دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية



بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينت من الهدى والفرقان

صدق الله العظيم

العدد 283 • رمضان 1411 هـ / أبريل 1991 م • ثمن العدد : 4,00 دراهم

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

صدق الله العظيم

".. وإذا كان الله تعالى قد امتن على أمتنا الإسلامية بأزكى تراث روحي وحضاري عرفته البشرية، فما ذلك إلا لنكون أمناء عليه حماة له من الضياع والنسيان، وما ذلك إلا لتكون حياتنا الخاصة والعامة مرآة ساطعة له في كل حين، وما ذلك إلا لنعمل على تقديمه غضا طريا إلى كل المتشوقين إليه والراغبين في الاطلاع عليه، من أبناء الأمم الأخرى .."

من رسالة أمير المومنين
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده
إلى الأمة الإسلامية
بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري

طوبى لأمة الإسلام

بشهر الصيام والقيام، والفتح والرضوان

يهل شهر رمضان على أمة الإسلام، فتستقبل فيه بمنتهى الفرح والاستبشار شهرا كريما بين شهور العام، شهرا خص الله به الأمة المحمدية، وجعله فريضة إسلامية، وركنا من أركان دينها الإسلامي الحنيف بما أوجب فيه من عبادة الصيام، وسن فيه الرسول عليه الصلاة والسلام من القيام، فقال سبحانه وتعالى : ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾، وقال النبي ﷺ : «إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسَنَنْتُ لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه».

وهكذا يكونُ هذا الشهر المبارك شهْر الرحمات الإلاهية والنفحات الرّبانية التي تتجلى على العباد المومنين الصائمين، القانتين الخاشعين، فتجعل كل مسلم ومسلمة يسارع إلى أداء ما فرض الله عليه من العبادات والحقوق والواجبات، ويبادر إلى المزيد من فعل الطاعات ونوافل القُرُبَات، فيزداد إيمانا ويقينا، وانشراحا واطمئنانا، وإقبالا على العمل الصالح ونشاطا، فيتعرض من خلال تلك الأَعمال الصالحة للنفحات الربانية، المتجلية بالمغفرة والرضوان والرحمة، ويتزود بزاد عظيم من التقوى والخشية، يمكنه من مواصلة العمل بتلك الروح المومنة، والسير على تلك الوتيرة الإسلامية طيلة شهور العام، ويجعله يراقب الله في السر والعلن، ويتعود على الصبر والمشقة، وتقوية

العزيمة والإرادة على مخالفة ما تعوده من تناول الطعام والشراب صباحَ مساءَ في سائر الأيام، ويستشعر ما يكون عليه بعض الناس من فقر وضعف واحتياج، فيمد إليهم يد العون والمساعدة، وينفق ويوسع عليهم مما آتاه الله ليجده يوم الدين والجزاء خيرا وأعظم أجرا، وتلك ثمرة وحكمة من ثمار مشروعية العبادات وفرضها في الإسلام، وبركة من بركات هذا الشهر العظيم، مصداقا لقول ربنا الكريم : ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات**﴾، وقوله سبحانه : ﴿**وتزودوا فإن خيْرَ الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب**﴾.

إنه شهر كريم، يتميز بما اختص به من الفضائل والمكارم العديدة، من نزول القرآن الكريم، ومن ليلة القدر المباركة، التي وصفها الحق سبحانه بأنها خير من ألف شهر، ونزول الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، واستمرارها سلاما وأمانا لأهل الأرض إلى طلوع الفجر، شهر أخبر عنه نبينا الصادق الأمين بأن الدعاء فيه محقق الاستجابة، وتُصَفَّدُ فيه الشياطين حتى لا تغوِي المومنين، وتُفتحُ فيه أبواب الجنة، وتُغلَقُ فيه أبواب جهنم، ولله فيه كل يوم وليلة عتقاءُ من النار.

إنه شهر يتميز بما حقق الله فيه للإسلام والمسلمين من انتصارات عظيمة، وفتوحات كبيرة، في غزوات النبي ﷺ، مثل غزوة بدر الكبرى التي كانت في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة الفتح الأعظم لمكة في السنة الثامنة من الهجرة، وغيرهما من الغزوات العظيمة، التي كانت كلها فتحا مبينا ونصرا عزيزا للنبي ﷺ ولصحابته الكرام، وللمسلمين والإسلام، وما أعقبها من الفتوحات والانتصارات الإسلامية الكبرى التي تحققت في شهر رمضان لكل جيل من أمة الإسلام، في عهد الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان في كل زمان ومكان وإلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليْها وهو خير الوارثين، تحقيقا لقول ربنا الكريم ووعده بنَصْرِ دينه القويم : ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا**﴾.

وإذا كان شهر رمضان المبارك يحْمِل في إقبالِهِ وإشراق طلعته هذه المبادئ والفضائل والمعاني الرّوحية، ويشخص مظهراً من مظاهر الوحدة والأخوة بين المسلمين،

ومساواتهم أمام الله لا فرق بين عربيّهم وعجميّهم، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما هو الشأن في كل فريضة من فرائض العبادات في الإسلام، ويجعلهم يزدادون إقبالا على مساجد الله وبيوته لأداء فريضة الصلاة مع الجماعة ومدارسة كتاب الله وسنة نبيه، والاستفادة من دروس الوعظ والإرشاد والتفقيه في الدين، فإن رمضان في المغرب إلى جانب اغتنام تلك الفضائل والتحلي بتلك المكارم يتميز بأمرين هامين، ويعيش حدثين بارزين يطبعانه بطابع خاص يجلب إليه الأنظار من كل مكان :

ـ الأمر الأول : الدروس الحسنية التي تلقى طيلة هذا الشهر المبارك بحضرة أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله، والتي يحضرها صفوة من علماء الإسلام، ورجال الفكر الأعلام، من المغرب ومختلف الأقطار الإسلامية، يتناولون فيها بالشرح والتحليل تفسير آية من كتاب الله العزيز، أو حديثا من أحاديث النبي المصطفى الكريم، حيث صارت ملتقى سنويا عالميا، وتظاهرة دينية فريدة من نوعها، أصبحت قبلة الأنظار في شهر رمضان من كل عام، ومحل استفادة منها داخل المغرب وخارجه بواسطة نقلها مباشرة حين إلقائها على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة، واستخراجها على شريط الفيديو، وترجمتها إلى اللغات : الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، مما جعل نفعها يحْصُلُ للخاص والعام، وصداها يصل إلى مختلف البلاد والأقطار، بفضل الرعاية والعناية الخاصة التي يوليها أمير المومنين لهذه الدروس الحسنية ولسائر شؤون الدين في هذا البلد العزيز الكريم.

ـ الأمر الثاني : إحياء المغرب ـ ملكا وحكومة وشعبا ـ في تأثُّرٍ وخُشُوعٍ لذكرى وفاة جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه في اليوم العاشر من رمضان، حيث يترأس أمير المومنين جلالة الحسن الثاني في الليلة العاشرة من ذلك اليوم حفلا دينيا كبيرا بضريح والده المنعم للترحم عليه بتلاوة آيات بينات من كتاب الله العزيز، وقراءة أمداح نبوية، كما يترحم المغاربة قاطبة على تلك الروح الطيبة الطاهرة بتلاوة سَلَكِ وَخَتَمَاتٍ من القرآن العظيم بمختلف مساجد المملكة، وإهدائها إلى تلك النفس المجاهدة المطمئنة، التي قضت حياتها في الصلاح والإصلاح، والجهاد في سبيل الله

لإعلاء كلمة الله، ونصرة الدين وإعزاز الوطن وإنقاذ المغرب والمغاربة من ذل العبودية والاستعمار، وتمتيعه بعز الحرية والكرامة والاستقلال، والتي يصدق عليها قول الله سبحانه في نفس كل مومن ومومنة : **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.**

بهذه الروح الإسلامية، والمشاعر الدينية، والنفوس الطيبة والقلوب المومنة، والعواطف النبيلة، والإحساسات الشريفة الفياضة، والتعرض للنفحات الربانية بالإقبال على الأقوال والأعمال الصالحة يستقبل المغرب والمغاربة قاطبة، كما يستقبل المسلمون كافة، شهر الصيام والقيام، والصبر وصالح الأعمال، شهر الصفح والعفو، والجود والكرم فيستحضرون سيرة وشمائل النبي ﷺ، الذي كان خلقه القرآن، فيتأسون به ويقتدون، في عبادته ومعاملته وأخلاقه الكريمة، ويكثرون من نوافل الخير والطاعة، والعطاء والإنفاق للمال في وجوه البر والإحسان، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

فطوبى لأمة الإسلام بشهر رمضان، شهر الصيام والقيام، وهنيئا لها بشهر القرآن والمغفرة، والرحمة والفتح والرضوان، وما اعده الله لها من النعيم المقيم في دار الخلد والجنان.

وأعاده الله على أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني وعلى كافة أسرته الملكية الشريفة باليمن والهناء والصحة والعافية والسعادة، وعلى الأمة المغربية والأمة الإسلامية جمعاء بدوام العزة والاستقرار والتقدم والازدهار والفتح والانتصار، ووفق المسلمين جميعا لجمع الشمل وتوحيد الكلمة على ما فيه خيرهم وصلاحهم، وعزهم وسعادتهم في الدنيا والدين، إنه سبحانه سميع مجيب.

دعوة الحق

خطاب العرش

الذي وجهه أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثلاثين لاعتلاء جلالته عرش أسلافه المنعمين

وجه مولانا أمير المومنين، صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، أدام الله عزه ونصره، وخلد في صالح الأعمال ذكره، يوم الأحد 16 شعبان 1411هـ موافق 3 مارس 1991م، خطاباً سامياً إلى الأمة، وذلك بمناسبة عيد العرش المجيد، وحلول الذكرى الثلاثين السعيدة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه المنعمين.

وكان جلالته ـ رعاه الله ـ محفوفاً أثناء توجيهه لهذا الخطاب، بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد، وبصاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد، وبصاحب السمو الأمير مولاي هشام.

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي.

الحمد لله

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

ها أنت تستقبل من جديد يوما أغر من أيامك التاريخية الزاهية، وتعانق ببزوغ فجره عليك ذكرى من ذكرياتك العزيزة الغالية، تحييها كعادتك ببالغ الفرحة والسرور، وتتملى بها بفائق السعد والحبور، فتشد باحتفائك بها كل سنة حاضرك السعيد إلى ماضيك التليد، امتدادا موصولا بين العهود، ووفاء لمشاعر التعلق بالآباء والجدود.



إنك تنتمي شعبي العزيز، إلى تاريخ تطبع كل مرحلة من مراحل عهوده معالم راسية قائمة على سهوله ونجوده، صرح ثابت الأركان، سامق البنيان، كتاب مسطور ناصع الصفحات، ووجه مضيء مشرق القسمات، تعج عهوده بمنجزات تذكر فتشكر، مما يجعله خليقا بأن يعتز به ويفخر.

وإن مؤسسة المؤسسات التي حفظها هذا التاريخ العظيم للأجيال المتعاقبة، لهي مؤسسة العرش الذي أرسيت قواعده على أرض هذا الوطن منذ اثني عشر قرنا، والذي امتد بين العروش العالمية القليلة التي رسختها السنون إلى يومنا، مما جعل منه المعلمة الأصيلة الأولى بين تراث هذا الوطن.

لذا، فمن حقك ـ شعبي العزيز ـ أن تتعلق بعرشك تعلقك بغوالي الأمجاد، وأن تدين له بالولاء مقابل ما قام به من تطوير لحالك وإسعادك، وأن ترتبط وتلتف حوله صيانة لعهد أصيل، وتخليدا لما يرمز إليه من مجد أثيل.

واحتفاؤك ـ شعبي العزيز ـ بعرشك في كل سنة وكيفما كانت الظروف التي يجتازها العالم،

ومهما كانت إنعكاساتها على بلدنا، لا يعني أنك تؤثر مظاهر الأفراح على متطلبات التضامن مع إخوة أشقاء حلت بهم النكبات والأتراح، بل إن احتفاءك بهذا اليوم الأغر، إن هو إلا عمل وطني بالغ الدلالة، يهدف لتجديد تعبئتك لمواجهة المستقبل بما يحفل به من سراء وضراء، وهو كذلك موعد مع التاريخ لا يتخلف كل سنة نقف فيه أنا وأنت وقفة في أحضان يوم الذكرى، لقضاء لحظات اذكار، واستخلاص النتائج، وأخذ الاعتبار مما جرى في السنة الماضية، وللتزود كذلك بنفس جديد لمواجهة الأيام الآتية، ولاستشعار أحاسيس العزة والفخار بمواقعنا كأمة مشيدة بانية، لها في حاضرها ما كان لها في ماضيها مقعد صدق بين العالم المتحضر، وموطىء قدم ثابتة بين الأمم العالمية الضاربة بتراثها في أعماق القدم.

وفي يوم الذكرى هذا، علينا أن نستحضر أن العرش المحتفى به، تقدم دوما في تاريخنا مسيرة الشعب، وقاد في كل حين خطواته، مدافعا في المقدمة تارة عن الديّار كلما هدد الوطن، بتحميل الأعداء المغيرين عليه صنوف الهزائم، وموحدا تارة أخرى صف الأمة، بلم الإرادات وشحذ العزائم.

والتاريخ يشهد لهذا العرش أنه لم يتخل قط عن مسؤولياته، وأن المتعاقبين عليه لم يَتَسَنَّمُوا ذروة الحكم لمجرد الاستفادة من حسناته، بل كانوا في معظمهم قائدي المسيرة وناصري العشيرة، حتى لم يستقر لبعضهم مقام في مكان، واشتهر من بينهم جدنا المنعم الحسن الأول بأن عرشه كان على ظهر فرسه، وكانوا كلهم ـ أثابهم الله ـ العين البصيرة والضمير اليقظ لأمتهم التي بادلتهم حبا بحب ووفاء بوفاء.

وعلى هذا الطريق، سرنا معك ـ شعبي العزيز ـ منذ ثلاثين سنة خلت على اعتلائنا عرش أسلافنا المقدسين، مما جعل من الذكرى الثلاثين التي نحتفل بها هذه السنة، ذكرى متميزة بطابع الاستمرارية، ولكن ذات خصوصية مشرقة زاهية.

ولقد كانت مسؤولية عظمى أن نرث العرش عن زعيم مجاهد كبير، وقائد مبجل عزيز النظير، هو جلالة والدنا المرحوم محمد الخامس، الذي كان طول حياته شعلة كفاح لا تخبو، وفارس نضال لا يكبو، فاستشعرنا منذ أن ألقى إلينا القدر بوراثة مسؤوليته العظمى، أن علينا أن نحافظ على ما طوق به جيد الوطن من مكرمات، وما حققه على درب إسعاد هذا البلد من منجزات، وأن نضيف إلى ما قدم وأسدى حصيلة يزيد بها صرح هذا البلد شموخا، وترسخ بها قيمنا ومثلنا رسوخا.

نقول ذلك، لأن عرشنا ظل ولا يزال عرش قيم ومثل، فكل حكم ينبثق عنه لابد أن يعمل لاستمرار تلك القيم، وعرشنا عرش وطني مكافح، يلتزم فيه من يتربعه بشروط معاناة، ومقتضيات المصابرة، وضرورات المكابدة.

ومن حسن حظنا، أننا انصهرنا منذ يفاعتنا في غمرة جهاد والدنا المنعم، الذي ربانا منذ صبانا على التعلق بالمثل والقيم، وعلمنا استرخاص الغالي والنفيس في نصرتها، والذب عنها. وقد عرفنا إلى

جانبه فترات فقد الحرية، وعانينا معه محنة الغربة عن الوطن، مما يجعلنا دائما في صف الأحرار، نفهم أكثر كفاح المجاهدين، ونتعاطف دائما مع المكافحين المخلصين، ولا نتوقف عن إحقاق الحق حيث كان، والعمل لدعم دولة الحق والقانون، والانتصار للشرعية كلما كانت مبادىء الحق والعدل في حاجة إلى دعمنا وسندنا.

وأن من جاهد من أجل الحرية، لا يمكن إلا أن يكون معها، ومن ناضل من أجل فرض احترام حقوق الإنسان والمواطن على الاستعمار، لا يكون إلا وفيا لها في عهد الاستقلال، بشرط أن لا يقع المس بقدسية مفاهيم المثل، وأن تحترم قدسية الواجبات، واحترام قدسية الحقوق، وأن تمارس الحقوق والحريات في نطاق المؤولية لئلا تعبث بها الفوضى.

ولقد شكلت ـ شعبي العزيز ـ العقود الثلاثة التي قطعتها معك سنوات جهاد، لم نخلد خلالها إلى راحة، ولا توقفت لنا أثناءها حركة، لم نتنازل فيها عن مطلب، ولا فرطنا في مكسب، وإنما كانت إضافة اللبنات إلى صرح هذا الوطن، شغلنا الشاغل، وهمنا المتواصل.

وحين نرتد بأنظارنا إلى واقع المغرب في مارس 1961، وقد تركه والدنا المرحوم واقعا مُشْرقاً ومُشَرِّفاً، وإلى حاضرنا في الحقبة التي نعيشها، فإن بصرنا يعشى لوفرة ما بعون الله في كل ميدان حققناه، وضخامة ما بفضله سبحانه في كل مجال أنجزناه، لكننا رغم ضخامة المنجزات، لا نقنع ولا نرضى كل الرضى، بل نظل نتطلع إلى منجزات المستقبل بطموح لا محدود، وبإرادة وتصميم على أن يكون الحاضر دائما أقوى من الماضي، والمستقبل أحفل عطاء من الحاضر.

وقد عرفنا خلال مسيرة الثلاثة عقود الماضية ما تعرفه الأمم من نجاحات، وما يواجهها كذلك عادة من مشاكل وأزمات، وكان سر تحقيق نجاحاتنا، والتغلب على أزماتنا، التلاحم المتين القائم بيني وبينك شعبي العزيز، ذلك التلاحم الذي ظل العاصم لأمتنا من الوقوع في المتاهات، والواقي لها من المخاطر والتهلكات، وصمام الأمان من غائلة النوائب والعوادي، والدرع الذي تتكسر على صلابته سهام الخصوم والأعادي.

فلتكن لنا في ذكرى الثلاثين مناسبة جديدة، نجدد فيها أنت وأنا، الالتزام بمقتضيات البيعة التي هي ميثاق دستوري. فمنّا لك شعبي العزيز موفور الإخلاص والوفاء ولنا عليك واجب التعلق بالعرش والجالس عليه بصادق الولاء.

شعبي العزيز،

لقد عشنا هذه الأيام الأخيرة، ومازلنا نعيش، أحداثا استثنائية توجه بشكل عميق مجرى التاريخ، نظرا لطبيعتها وأهميتها ومضاعفاتها. فالعالم يتغير مظهرا ومخبرا، ونتيجة لذلك، تتغير العلاقات بين الدول والأمم.

ومما لا ريب فيه، أنه سينشأ نظام عالمي جديد، كما يلوح في الأفق تغيير في التحالفات، ولا أحد يستطيع التكهن الدقيق بما سيكون عليه الوضع الجغرافي السياسي لعالم الغد.

إننا نشهد توزيعا جديدا للأوراق، مما يجعلنا نطرح على أنفسنا تساؤلا مختلف الأشكال، متعدد الأبعاد.

تُرى ماذا سيكون دور المغرب في التوزيع الجديد ؟ وما هي الطرق والوسائل الكفيلة بتدعيم العلاقات بين بلدان اتحاد المغرب العربي وتقوية أواصرها ؟ كما أنه من حقنا أن نتساءل من ناحية أخرى عن ماهية علاقات اتحاد المغرب العربي الكبير بمختلف التجمعات الجهوية أو الدولية ؟ وسيظل مصير العالم العربي همنا الأساس، سواء على صعيد العلاقات الداخلية بين العرب، أو على المستوى الدولي لعلاقات العالم العربي ببقية أقطار العالم.

وبخصوص دور المغرب في النظام العالمي الجديد، سيكون من مجافاة الصواب القول : إننا غير معنيين بالأحداث التي يشهدها العالم، أو ادعاء ألا تأثير لها علينا.

وكيفما كان الحال، فإن تصميمنا الأساس لن يدخل عليه أي تغيير، إذ المغرب بحكم موقعه الجغرافي، ومختلف التيارات والحضارات التي مر بها تاريخه الطويل، هو قبل كل شيء بلد متفتح على الخارج، لم ينكمش قط على نفسه، وليس في نيته أن يزج بنفسه في الانكماش والتقوقع. ومن الطبيعي أن تكون ثمة مضاعفات شتى لموقعنا هذا الذي فرضه وضع المغرب كملتقى لحضارات مختلفة، وأملته الروابط التي شدتنا إلى مختلف أقطار العالم.

إن المغرب كذلك، ظل على مر العصور كريما مضيافا، وسيظل بلد التسامح والتعايش والسلم، شأنه في ذلك شأن كبريات الأمم، كما أن موقع بلدنا في النظام العالمي الجديد، رهين إلى حد بعيد بحفاظه على هذه المقومات، وتشبثه بهذه الخصائص والمميزات.

والمغرب المتمسك بتلك المقومات، المتطلع إلى التعاون والتساكن، قد فكر وسعى طوال السنين، إلى إنشاء مجموعة مع أشقائه وجيرانه الأقربين، يلتئم فيها الشمل، ويسودها التجانس والتماسك.

والواقع أن هذا العمل، التقى فيه على كلمة سواء مجموع قادة المغرب العربي، وهم بذلك إنما استجابوا للمطمح العميق الذي أجمعت على تحقيقه شعوبهم. وهكذا تحول ما كان مجرد حلم يداعب جماهيرنا، إلى واقع مشخص بإقامة اتحاد المغرب العربي الكبير.

لقد قطع الاتحاد منذ تأسيسه خطوات متعددة المعاني، وفيرة الدلالات، من حق شعوبنا أن تعتز بها وتفخر، لكن الطريق لا يزال محفوفا بالأشواك. فعلينا أن نظل يقظين. وأن نضاعف الجهود للحفاظ على المكتسبات لتعزيز وحدتنا وترسيخها، إذ بهذا الترسيخ ستتقوى حظوظنا، وتعظم لدى الاتحادات الجهوية الأخرى، كما سيصبح صوتنا أكثر استماعا، ومصالحنا أشد تفهما وصيانة وانتفاعا.

إن الحياة لا تسير - شعبي العزيز - على خط واحد مستقيم، بل تمضي في منعرجات يصعب التكهن بنهايتها، وبالتالي يجب الاحتراز منها.

ولئن كان أهم أثر لاتحاد المغرب العربي يكمن في إرساء قواعد اتحاد الشعوب التي يتآلف

منها، فإنه لم يمح ولم يلغ الشخصية المميزة لكل عضو من أعضائه. لذا فإن هذا الاتحاد، سيقوم في ظل الحفاظ على المميزات الشخصية لكل طرف من أطرافه.

شعبي العزيز،

إن الهزة التي تصيب العالم العربي، تأخذ شكل زلزال سيخلف انعكاسات عميقة، وسيطبع بآثاره العلاقات بين الدول العربية لحقبة يصعب في الساعة الراهنة تحديدها. لكن العالم العربي عرف عدة أزمات، واجتاز حقبا صعبة في تاريخه، وكانت أزماته ما في ذلك من شك أخف وطأة من هذه التي نعيشها اليوم.

وقد تغلبنا إلى حد الآن على الأزمات والمشكلات بفضل عبقرية شعوبنا التي نستمد منها إيماننا وثقتنا.

فهل يا ترى سنتغلب على الأزمة الحاضرة ؟ إن الجرح عميق، وهو بمثابة تمزق في جسم الأمة العربية. فهل سيلتئم هذا الجرح ؟ وهل سيجبر الجسم العربي كسره، فتعود الأمة العربية إلى وحدتها وتماسكها ؟

إن ذلك ليس بالأمر الهين، لكنه ليس ممتنعا ولا مستحيلا كيفما كان الحال ـ هذا ما تمليه الحكمة وتفرضه المصلحة ـ فمن الواجب أن نعيد بناء تضامننا ووحدتنا، وأن نصون هويتنا وشخصيتنا، لِمَا لإعادة بناء الوحدة من حسنات وفوائد، نقتصر منها على إثارة نقطتين :

أولهما : أننا سنتجنب قيام محاور داخل العالم العربي تؤدي إلى الفرقة، وتعزل بعض أجزاء الأمة عن البعض الآخر.

وثانيهما : أن المجموعة العربية كوحدة قائمة بذاتها تجسد أمام بقية العالم قوة لا تمكن مقارنتها بما تشكله قوة كل دولة منها منفردة.

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى التطرق لأسباب الجرح العربي.

مما لا مراء فيه، أنه قامت دائما خلافات في حظيرة الأمة العربية، ولكنها بحكم طبيعتها وتأثيرها النسبي على التوجهات الأساسية كانت ثانوية.

أما أزمة اليوم، فقد مست بالجوهر والأساس، وألقت على المستقبل ظلالا قاتمة، فقد نشبت حرب بين دولة عربية شقيقة عزيزة علينا، وإخوة لنا عرب أعزاء استنجدوا بمجموعة من الدول الأخرى للدفاع عن أنفسهم.

وعندما انتهى إلينا خبر هذا النزاع صبيحة يوم ثاني غشت، ونبأ احتلال العراق للكويت، بادرنا إلى الإفصاح عن رأينا، وإعلان موقفنا بالتنديد جهارا بالاحتلال، لأنه مخالف للشرعية، ويمس بمشروعية دولة ذات سيادة، ويلغي وجودها.

وفي نفس الوقت، عبرنا عن كامل استعدادنا للتوفيق، حتى ننقذ قبل فوات الأوان ما يمكن إنقاذه. ولأجل ذلك، أرسلنا مبعوثنا الخاص إلى فخامة الرئيس صدام حسين، كما استقبلنا مبعوثيه إلينا.

وظلت جميع مبادراتنا وغيرها من المحاولات المبذولة لإعادة الشرعية بالطرق السلمية دون جدوى، فأصبح من منظور القواعد التي يقوم عليها تنظيم العلاقات لا مناص من اندلاع الحرب. لقد كانت لنا في الأيام الأخيرة فرص للتعبير عن دلالات موقفنا وطبيعته ومداه، فلا داعي للعودة اليوم إلى هذا الموضوع.

إننا نستنكر الحرب ونناهضها بجميع قوانا، وبنفس الإرادة والتصميم نقف باستمرار بجانب الشرعية والمشروعية.

إن الأحداث التي شهدتها السنة المنصرمة على الصعيد الدولي كادت تفقد جميع دلالاتها مقارنة بحرب الخليج، هذه الحرب التي هيمنت على كل شيء، وشغلت العقول، وصرفتها عما عداها.

شعبي العزيز،

وإذا كانت الأحداث على صعيد المغرب قد اكتست طبيعة مغايرة، فإنها مع ذلك ذات أهمية بالنسبة لاستكمال تنظيم مجتمعنا، والرقي به قدر الإمكان، فمن لا يتقدم يتقهقر حتما، ولزوما. لذا علينا أن نظل مفتوحي الأعين والنظرات، متوقين ما قد يعترضنا من عثرات.

ان مؤسساتنا تعمل ولله الحمد في احترام كامل للقواعد التي اعتمدناها. فقد قامت فرق المعارضة داخل مجلس النواب مجتمعة، بمساءلة الحكومة من خلال ملتمس للرقابة عرض على التصويت. وتمخضت دراسة هذا الملتمس عن نقاش عام صريح صادق مفتوح، وتم أثناءه تناول مختلف جوانب العمل الحكومي بالتحليل والنقد، مما أتاح لكل واحد من أعضاء المجلس التعبير عن رأيه بكل حرية، وطرح وجهة نظره دونما تحفظ، سوى بالطبع ما يتقيد به عادة في المجالس المحترمة من قواعد حسن السلوك، ومقتضيات اللياقة في التعامل.

وقد تتبعنا من جانبنا هذا النقاش في أدق تفاصيله، وخلصنا إلى الاقتناع بأن ديمقراطيتنا حية ونشيطة، وأن ممارستها بتعاقب الأيام والسنين تزداد جدية ووضوحا. فيمكن لشعبنا إذن أن يشعر بالطمأنينة والارتياح، لكون نوابه على الصعيد الوطني والمحلي يتعلمون كل يوم ما يساعدهم على تحسين ممارسة مهامهم.

ووفاء منا لتطلعات والدنا المغفور له محمد الخامس تغمده الله برحمته، عملنا ما في وسعنا منذ أن اعتلينا عرش أجدادنا، لنجعل من المغرب دولة عصرية متمسكة بالدين الإسلامي وقيمه، متشبثة بثقافتها.

كما سعينا إلى جعله دولة قانون، وحرصنا في هذا المسعى على إيلاء كامل الاهتمام، وموفور العناية، لمسألة حقوق الإنسان.

ونحن واعون كل الوعي، بأن الوسائل المتوفرة يمكن أن تعجز لأسباب أو أخطاء ترتبط بالطبيعة البشرية عن تحقيق ما ننشده من مرام، ونتوخاه من أهداف. وتلافيا لذلك، أنشأنا في هذا المجال جهازا متخصصا باسم المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، الذي يعمل تحت إشرافنا المباشر، ويهتم بكل ما يتصل من قريب أو من بعيد بحقوق الإنسان، وأن

تشكيلة هذا الجهاز ذات دلالة واضحة، حيث أن من بين أعضائه من ينتمون إلى كافة الأحزاب السياسية، والمركزيات النقابية، والجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان.

إن المهمة التي أنجزها هذا المجلس رغم حداثته جديرة بالتقدير، فقد عرض على أنظارنا في مجال اختصاصه مجموعة من المقترحات الهامة، ووافقنا عليها، وستصدر بشأنها عما قريب نصوص تشريعية وتنظيمية.

وبنفس الروح، ودعما للصرح الذي شيدناه، واستكمالا لبنيات دولة القانون، قررنا إنشاء محاكم إدارية تثري التنظيم القضائي في مملكتنا.

وعملا بمبدأ تقريب القضاء من المتقاضين، أصدرنا تعليماتنا لجعل الإجراءات التي تعمل على أساسها هذه المحاكم مبسطة وغير مُكَلِّفَة، حتى نمكن رعايانا من اللجوء إلى القضاء كلما كانوا عرضة للشطط من طرف السلطات الإدارية، أو لحقت بهم أضرار من جراء أنشطة الإدارة التي أقيمت لخدمتهم. وينكب مجلس النواب في الوقت الراهن على دراسة مشروع القانون المتعلق بإنشاء المحاكم الإدارية، وستخرج هذه المحاكم إلى الوجود، لتشرع في العمل بمجرد المصادقة عليه.

شعبي العزيز :

يتكون سكان بلادنا بنسبة الثلث من شباب تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وخمس وعشرين سنة، نخصص لتكوينهم وتدريبهم ما يناهز الأربعين بالمائة من مواردنا، إلا أن التجربة أظهرت أن هذا المجهود يبقى ـ بالرغم من أهميته. قاصرا عن بلوغ المراد، لأن آفاق المستقبل بالنسبة لكل بلد تتوقف على نوعية التكوين الذي يوفره لشبابه. وأملنا كبير في أن يساهم شبابنا مساهمة فعالة بمعرفته وذكائه وطاقاته في إغناء تراثنا الوطني. وقد استعنا في تحقيق هذه الأمنية بالمجلس الوطني للشباب والمستقبل، الذي أنشأناه من ممثلين عن كافة القِوَى الحية بالبلاد.

ويعمل هذا المجلس حاليا بكامل طاقاته، وقد حقق نتائج تشجع على التفاؤل بالرغم من الصعوبات التي تعترضه من جراء الظروف التي يعيشها العالم. فانعكاسات حرب الخليج التي أثرت سلبا على الاقتصاديات العالمية، وامتدت إلى كافة قطاعات الحياة، لم تمهلنا، ولازلنا نعاني آثارها.

ولكن ـ ولله الحمد ـ رغم هذه الظروف، حقق هذا المجلس إنجازا ضخما يرقى إلى مستوى المهمة التي عهدنا بها إليه، فقد أَعَدَّ جردا للعاطلين من حملة الشهادات في صفوف الشباب، ونجح فضلا عن ذلك في تحديد السبل والوسائل الكفيلة بإخراجهم تدريجيا من الوضع الذي يعانونه، وذلك بمشاركة المنتخبين والسلطات المحلية والإقليمية. وقد اتضح من عملية الجرد ـ ولو أني شخصيا أفضل لفظ الإحصاء ـ أن هناك مائة ألف شاب عاطل من أصحاب الشهادات، نصفهم حاملون للباكالوريا، والنصف الآخر يتوفر على شهادات عليا فوق مستوى الباكالوريا. ويشكل الذكور من هؤلاء الشباب نسبة الثلثين، والإناث نسبة الثلث.

وهذا العدد، هو مجموع ما تراكم نتيجة نقص التشغيل من بداية 1981 إلى سنتنا هذه، إذن عشر سنوات. معناه : أننا لو شغلنا كل سنة بشكل عادي، لن نصل مائة ألف دفعة واحدة، بل إن المشكل سيهم 10 ألاف فقط سنة بعد سنة.

وستوفر له الدولة والجماعات المحلية والقطاع الخاص لهذا المجموع أي 100 ألف من هنا إلى آخر السنة الجارية مناصب الشغل اللازمة. وكم يسعدنا ويثلج صدرنا، أن يحالفنا التوفيق في القيام بهذا العمل الضخم الذي سيستفيد منه حملة الشهادات، ويعود بالنفع على المشغلين. وبذلك سنكون إن شاء الله قد كسبنا الرهان في هذا الميدان، ورفعنا التحدي، ونجحنا في ما نحرص عليه من تكريم الإنسان.

وستقوم منهجية التوظيف على التشاور والتراضي بين الفرقاء المعنيين سالفي الذكر، أي : الدولة، والجماعات المحلية، والقطاع الخاص، بإشراف مختلف الوزارات الوصية.

وأخيرا، عهدنا إلى المجلس الوطني للشباب والمستقبل، بأن يقوم بعد هذا الدرس، بتقديم اقتراح تعلق ببرنامج الإدماج الذي يشمل جميع الإجراءات التشريعية والتنظيمية، التي من شأنها تيسير تنشيط التشغيل، وتحريك عجلة الاقتصاد الوطني.

وسيساهم إصلاح القطاع البنكي هو الآخر مساهمة نشيطة في تحقيق هذه الغايات.

وإننا لم ننس فئة شبابنا ممن لهم شهادات دون مستوى الباكالوريا، فستبدأ في بحر الشهر المقبل عملية إحصائهم، وسيجرى الإحصاء بنفس الطريقة التي اعتمدناها في إحصاء حملة الباكالوريا والشهادات العليا. وكل هذا يدخل في إطار التحضير لموضوع الدورة الثانية للمجلس الوطني للشباب والمستقبل في شهر يوليوز، وسيدور حول المحاور الثلاثة الآتية :

المحور الأول : الطرق والوسائل الكفيلة بإدماج الشباب في النشاط الاقتصادي الوطني.

المحور الثاني : تكييف التكوين المهني.

المحور الثالث : إعادة ترتيب النسيج البشري لتأمين توزيع متكافئ بين الحاضرة والبادية.

وبهذا نكون - بعون الله - قد أنجزنا وعدنا، وأقمنا البرهان على أن اقتصادنا الوطني جدير بما عقدناه عليه من آمال.

شعبي العزيز :

إننا واعون بالأهمية التي يكتسيها إعداد التراب الوطني والتخطيط، على صعيد الحواضر والبوادي، في وضع هياكل الاستقبال، وتشجيع الاستثمارات الخاصة والعمومية، وفي تنظيمها، وتحديد دور كل ذلك في الرفع من مستوى عيش المواطنين. وهذا ما حدا بنا إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات الهادفة إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فأصدرنا تعليماتنا إلى حكومتنا بوضع تصميم وطني لإعداد التراب، سعيا منا إلى الوصول إلى أفضل توزيع ممكن للأنشطة وللموارد البشرية على امتداد المملكة. وسيشكل هذا التصميم إطارا مرجعيا في التخطيط لعمليات التنمية على الصعيدين القطاعي

والميداني، وإدماجها لكونه يحدد التوجهات في التنظيم العقلاني للمساحات على ضوء الطاقات والقدرات الإقليمية.

وفضلا عن هذا، قررنا تزويد بلادنا بميثاق وطني، يجسد فلسفتنا، ويوجه سياستنا في مجالات إعداد التراب الوطني والتعمير والبيئة والهندسة المعمارية. ومن المحاور الأساسية ذات الأولوية التي يتبلور حولها عملنا في هذا الباب، وضع نصوص تشريعية وتنظيمية جديدة في حقل التعمير والبناء، تسمح في المقام الأول بإقامة مساكن لفائدة العائلات ذات الدخل المتواضع. وتهدف هذه النصوص الجديدة التي تأخذ بالاعتبار إشكالية التنمية الحضرية، إلى تعديل مجموع التشريعات المتوفرة واستكمالها، كما تمثل الأداة الضرورية للنهوض بالتعمير والهندسة المعمارية، والدفع بهما إلى الأمام.

وحرصا منا على الإحاطة بكافة جوانب هذا الحقل المهم، خاصة ما يتعلق منها بتكوين الأطر، قررنا إنشاء المعهد الوطني لإعداد التراب والتعمير، الذي سيوضع في خدمة بلدان قارتنا الإفريقية كلها. وهدفنا من إنشاء هذا المعهد، هو تكوين الأطر التي ستمكن الجماعات المحلية من الاضطلاع بدورها كاملا في البحث عن التدبير الأمثل لمجالها الجغرافي وتطويره بما يتلاءم وأهداف الميثاق الجماعي لسنة 1976.

وبهذا الخصوص، فإن بلادنا ستنشىء عما قريب مختبرا مختصا، نستطيع بواسطته أن نقيم ونقوم بصورة علمية، تطور البيئة في بلدنا، مما يتيح لنا التحكم فيها بطريقة أفضل.

وسعيا منا إلى تقوية اللامركزية، ودعم تفويض ممارسة السلطة، أصدرنا تعليماتنا السامية إلى وزيرنا في الداخلية، ليولي مزيدا من العناية لمتابعة تنفيذ عمليات الإعداد والتعمير، عن طريق إنشاء المؤسسات الملائمة على الصعيد الوطني، والإقليمي، وصعيد العمالات والجهات.

شعبي العزيز :

منذ بداية الثمانينات، وبعد أن تأكدت ضرورة القيام بتصحيح الوضعية المالية للبلاد، أصدرنا أوامرنا لحكومتنا، بإعداد برامج تستهدف إعادة التوازنات الاقتصادية الأساسية.

وفي إطار سياسة إجمالية متناسقة، تم وضع أسس إصلاحات هيكلية تهدف إلى الوصول إلى تحرر اقتصادي تدريجي محكم، وذلك عبر إصلاحات جبائية، وتجديد مسيرة تجارتنا الخارجية، وإضفاء المرونة على نظام الصرف، وكذلك على آليات تحديد الأسعار.

وبفضل التخصيص المقرر بالنسبة لعدد لابأس به من المقاولات التي تنتسب أصلا للقطاعين العمومي وشبه العمومي، ستتحقق بعون الله النتائج المتوخاة من سياستنا التي ترمي إلى تأمين نماء سريع.

لقد أصبح من الضروري الأكيد، السعي لإصلاح آخر مكمل لما سبقه من إصلاحات، ألا وهو إصلاح القطاع المالي والبنكي. ومعلوم أن هذا

القطاع يؤثر تأثيرا مهما في مستوى المبادلات والاستثمارات القومية.

ولقائل أن يقول : إن هذا الإصلاح تأخر موعده تأخرا لا يتناسب والدور المحرك الذي على القطاع الخاص أن ينهض به في حقل النمو الاقتصادي والاجتماعي لبلادنا، لاسيما في أعقاب الاختيارات التي حددناها ضمن المخطط التوجيهي لسنوات 1988 ـ 1992 (ثماني وثمانين إلى اثنتين وتسعين)، إلا أنه كان من الضروري قبل كل شيء إعادة التوازنات الكبرى، وإلا فقد كنا سنتعرض لتدني رصيدنا الخارجي، ولاستفحال التضخم، ولولا إعادة التوازنات كذلك، لكانت الجهود التي بذلناها في الميدان المالي طيلة أعوام عديمة الجدوى.

وإن التقدم المؤكد الذي سجلناه على مستوى تلك التوازنات، يجعلنا اليوم ـ ولله الحمد ـ ندعم النمو بتمويل مناسب، وخاصة لفائدة القطاع الخاص الذي هو مطالب أكثر من أي وقت مضى بالمساهمة في حل مشكلة التشغيل.

علينا إذن، أن نعيد النظر في «قانون الأبناك» الذي مضت على وضعه ثلاث وعشرون سنة، وأن يؤخذ بعين الاعتبار ما تفرضه من تعديلات التطورات والتغيرات التي طرأت على الصعيد الوطني والإقليمي والدولي. وسننشىء عما قريب لجنة نوكل إليها مهمة إدخال الإصلاحات الملائمة على نظامنا المالي والمصرفي، لتمكين المؤسسات المعنية من تأمين العمليات التالية :

أولا : مساهمة أكثر فعالية في التنمية الاقتصادية، مع أخذ البعد الإقليمي بعين الاعتبار.

ثانيا : إضفاء اللامركزية بصورة فعلية على عملية اتخاذ القرار، خاصة فيما يتعلق بتوزيع الاعتمادات.

ثالثا : مساهمة فعالة في جعل الاقتصاد يعتمد على تطوير البنيات النقدية، وفي تعبئة الادخار.

رابعا : منافسة واسعة بين المقاولات يطبعها الصدق والنزاهة.

ويجب أن يدمج هذا الإصلاح في تقديره بعد المغرب الكبير، إذ ذلك هو ما سيمكن بلداننا من التغلب على التحديات التي تفرضها علينا الأحداث الخارجية.

وهكذا أصدرنا تعليماتنا السامية لتنفيذ عمليات ملموسة تستهدف ما يلي :

أولا : مساندة جميع المبادرات الرامية إلى إنشاء مقاولات، وخاصة منها تلك التي يعود أمرها إلى خريجي الجامعات ومعاهد التكوين المهني.

ثانيا : تقديم المساعدة المالية اللازمة لقطاع المقاولات الصغيرة والوسطى العاملة في مختلف مرافق النشاط الاقتصادي.

ثالثا : تدعيم تمثيل مؤسساتنا المالية والبنكية خارج حدود المملكة، حتى يتسنى لها أن تشجع المستثمرين الأجانب على إقامة مشروعات في بلادنا، وتوطين حجم أوسع لأموالهم بالمغرب.

وستكـون الـــدورة الأولى للمجلس الـوطني للشبـاب والمستقبل، فرصـة لعرض مقترحـات بنـاءة، يقضي إن شـاء الله تنفيـذهـا إلى رفع العراقيـل التي تعترض نشاط عـدد لا يستهـان بـه من المنشطين الاقتصـاديين، ومن المقـاولات الصغيرة والـوسطى. تلك العراقيـل النـاجمـة عن نقص الرأسمال، وضعف التـأطير، وتـدهور شروط الضمـانـة المطلوب توفيرهـا من لدن المقاولات.

وقـد بـات من البـديهي - في مـوازاة هـذه البرامج - أن يصـار إلى التـأمل ومبـاشرة العمـل في وجهـة المراحـل المتتـاليـة للتمـويـل، ألا وهي تـوفر الأرض، والثمن اللازم، والأمـاكن المخصصـة للنشـاط المهني، وإعـداد الرخص الإداريـة، وتكلفـة عـوامـل الإنتاج.

وبذلك نكون قـد قطعنـا مرحلـة جديـدة في مسيرة تدعيم بنيات اقتصادنا، وضَمِنَّا لبلادنـا الظروف المواتية للنمو اللائق بالمطامح المشروعة لشعبنا.

شعبي العزيز :

الكل يعلم حق العلم سهرنا الـدائب على رصد أوضاع البلاد، ومتابعتهـا، وتعميق تحليلهـا، يحـدونـا إلى ذلك، اهتمامنـا البـالغ المطرد بـأن نؤمن لشعبنـا في جميع الظروف عيشا رغيدا، ومآلا سعيدا.

وإذا كان شعبنا يتميز بتعدد مكونـاتـه، وتنوع شرائحه واتجـاهـاتـه، في ظل وحـدة استمرت - ولله الحمد - ثـابتـة عبر العصور، ونعمل من جـانبنـا على ترسيخها، فإن هذه التعددية تشكل إحـدى طـاقـاتنـا الكبرى التي نستمد منها الشجاعة والقوة في السلوك والتصرفات.

وبمقتضى ذلك، سهرنا على أن لا يتردى شعبنا في متاهة الاتجاه الوحيـد المؤدي إلى إضعـاف وتيرة النمو، بمـا يفضي إليـه من تثبيـط العزائم والإرادات، ومـا يترتب عليـه من شـل القـدرات، وعجـزهـا عن تفتيق القرائح والمواهب والملكات.

ومن الطبيعي، أن تنشـأ في ظـل التعـدديـة والتنـوع نـزاعـات داخليـة، إلا أننـا نسعى دومـا إلى تلافيها، أو معالجتها بإيجـاد الحلول لها بمـا يكفل - قدر الإمكان - الحفاظ على وحدتنا المجتمعية، ذلك أن التعدديـة التي نرتضيهـا ونشجعهـا لا تتنـاقض مع وحدة الأمة، بل على العكس، تشكل أحد المقومـات الأساسية لبنائها، وهذا ما يجعلنا مطمئنين إلى أننـا أحسنـا الاختيـار، وإلى مواصلـة تسيير شؤون شعبنـا على نهج التعددية بإرادة وإصرار.

لقد جعلنا من التعددية المحور الأسـاسي الـذي تدور حوله سياستنـا، واخترنـا نهجها في وقت كـان فيه الحزب الوحيد هو السائد في معظم أنحاء العـالم، ولا سيما في العالم الثالث، فنمت التعددية في بلادنا وترعرعت، واحتـوت الخلافـات الحزبيـة في إطـار الشرعية ونطاق التعايش، وبـذلـك ظلت مقـدسـاتنـا كما كانت دائما، وكما ينبغي لهـا أن تكون، مصونـة الحرمة مؤمنة الاحترام. وكذلك كـان الأمر بـالنسبـة لوحـدتنـا الترابيـة التي التف حولهـا الجميـع، والتـأم الإجمـاع الوطني على التشبث بهـا في مـواجهـة من

نازعونا أو عارضونا، طامعين بشأنها، وظلت إلى اليوم، وستبقى في كل حين، قيمة مقدسة من لدن جميع شرائح مجتمعنا وفئاته.

وإذا كان استرجاع أقاليمنا الصحراوية قد تحقق، ودخلت قضيته في طي التاريخ بالنسبة لنا جميعا، فإنها لا تزال مع ذلك مطروحة على المحافل الدولية، وسيتم حلها النهائي عبر استفتاء تقرير المصير، الذي نتوقعه استفتاء مؤكدا لوحدتنا الترابية، نعارض بنتائجه مفتعل الأقاويل، وندحض بحجته البالغة ما ترمى به مغربية صحرائنا من ترهات وأباطيل.

وقد عهد بتنظيم هذا الاستفتاء إلى منظمة الأمم المتحدة، وانطلق مسلسل إجراءاته منذ ما يقرب من سنتين، وكانت المنظمة الأممية تتأهب للشروع فيه في وقت تزامن مع التاريخ الذي حدد في المغرب لإجراء الانتخابات التشريعية والجماعية، وهذه المزامنة، هي التي جعلتنا نتخوف أن تلهي المعركة الانتخابية الداخلية ـ التي لابد منها في كل بلد حر ديمقراطي ـ رعايانا في الجنوب، وتحول بينهم وبين أداء أول الوجبات المتمثل في تأكيدهم عن طريق الاستفتاء انتماءهم إلى الوطن الأب.

ودرءا لهذا الخطر، كنا قررنا إجراء استشارة شعبية، طرحنا فيها عليك شعبنا فكرة إرجاء الانتخابات إلى موعد آخر، حتى نضمن الحفاظ على الانسجام الوطني الضروري، وكان أن وعى شعبنا ولله الحمد قصدنا، فقبل بالإجماع هذا التأجيل.

وهكذا استمر مسلسل الاستفتاء يجري على وتيرته، إذ توجهت بعثات المنظمة الأممية للصحراء، واستقبلنا بنفسنا أكثر من مرة موفدي الأمين العام، وكان كل شيء يؤذن باقتراب موعد الاستفتاء، لولا أن القدر جرى بما لم يكن في الحسبان باندلاع أزمة الخليج، التي انقطع إليها مجلس الأمن، مرجئا النظر فيما عداها، ومن بينه ملف الصحراء.

ونحن على اتصال مستمر بالأمين العام الأممي، يحدونا الأمل في أن يطوي ملف الصحراء طيا نهائيا بالاستفتاء، خاصة وتقارير هذا الملف الأخيرة تشارف نهايتها.

إننا نعتزم على إثر الاستفتاء ـ وفي أقرب أجل ـ تنظيم الانتخابات التي اضطرتنا الظروف لتأجيلها، بيد أن الوقت الذي مضى لم يذهب سدى، ولم يمر عبثا، فقد كان ما حفل به من وقائع وأحداث، مؤشرات توجهنا وتدعونا إلى استخلاص العبر.

إن التحول الذي طرا على مجتمعنا عميق وجدير بالاهتمام، إذ نشأ بيننا جيل جديد، ونشأت معه خصائصه ومتطلباته الملحة، ولحسن الحظ، ليس ثمة حل يعتمد الاستمرار في سيره، ويشكل في نفس الوقت قطيعة مع ماضينا، على العكس من ذلك، فإن المغرب الجديد، يمضي قدما على مسيره الطبيعي الذي خطته أجيالنا السابقة، وهو الامتداد الذي يرسخه بالانتماء إلى الماضي جيل اليوم، والأجيال المتلاحقة.

إن قيمنا المثلى، ومؤسساتنا المتوارثة، تحتفظ بطابعها المقدس والأصيل، ولن نزيغ عن الاهتداء بنورها، مهما كانت الظروف فهي المنارة التي تهدينا سواء السبيل.

ومع ذلك، فكل تحول لابد أن يحقق انعكاسا مجديا في حياة الناس والمجتمعات، وقد عرف المغرب جيلا كافح وضحى مع جلالة والدنا المرحوم محمد الخامس، لاستعادة السيادة الكاملة، ثم لبناء المغرب الحر المتمتع بسيادته، المسؤول عن مصيره.

ومنذ تقلدنا أعباء هذه الرسالة المتوارثة ممن قبلنا، ونحن نكافح على نفس الطريق، ونرقب بعناية كل ما يتصل ببلادنا من قريب أو بعيد، مقارنين باستمرار ما عشناه في الماضي مع ما نحياه في الحاضر، مستخلصين العبرة من هذه المقارنة، ومستفيدين مما تفرضه علينا من دروس.

ونعتقد أن شرط الصحة لتحقيق هذه الأهداف يكمن في التناسق الضروري بين الأمة وقيادتها.

وإن حرصنا لشديد على توفير حياة سعيدة لشعبنا في ظل الاستقرار والكرامة، وعلى تأمين الانسجام والوفاق بين مجموع رعايانا.

إن الأمل يراودنا، والإرادة السياسية تحدونا، إلى أن نحقق في كل ميدان ما ينتظره منا المغرب الجديد، الذي يولد وينشأ تحت نظرنا، ونرعاه بكامل اهتمامنا وحدبنا.

وفي هذا النطاق فإن على الجميع أن يولي كامل العناية والاهتمام للانتخابات القادمة، التي نعمل جاهدين على أن تجسد نتائجها واقع الرأي العام على حقيقته، وأن تعكس بصدق مطامح شعبنا وتطلعاته.

والملاحظ أن المجتمعات المنظمة كثيرا ما تحدث فيها خلافات عديمة الجدوى، وقد تضر وتؤذي، إذ ينشأ عنها تباعد بين المجتمع المنتاب بها وبين قيادته. ونحن فيما يخصنا - شعورا منا بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقنا، لتأمين مستقبل شعبنا، ووعيا منا بمتطلبات التغيير الذي يطرأ على مجتمعنا، ولما لنا من بالغ الاهتمام بتوفير أقصى ما يمكن من الحظوظ للجميع في السلم الداخلي والعدالة الاجتماعية - فإننا سنبقى - مثلما كنا - ساهرين على أن تكون الانتخابات حرة نزيهة، طبقا لما تقتضيه قواعد الديمقراطية الحقة.

وإن عملنا لا ينحصر في القيام بدور الحكم الساهر على احترام قواعد التنافس السياسي، بل يتجاوزه إلى دور الموجه المباشر للعمل والبناء.

وبتأمين شروط الصدق والنزاهة للانتخابات المقبلة، سنكون قد أدينا وأجبنا خير أداء. فعلى كل واحد أن يعمل من جانبه لتأدية واجبه بكل يقظة ووعي.

شعبي العزيز،

إننا لنحمد الله على نهاية مأساة لبنان الدامية، وما كلل به جهود اللجنة العربية الثلاثية من نجاح مساعيها لتحقيق التصالح الوطني بين فصائل شعب

لبنان الشقيق العزيز علينا، والتئامها حول حكومتها في نطاق مقتضيات اتفاقية الطائف، كما نحمده سبحانه على توقف القتال في الخليج، بما وفر من حقن للدماء، وتجنيب المنطقة المزيد من الضحايا والخراب والدمار، وسمح بعودة الشرعية إلى الكويت الذي نزجي إليه تهانئنا أميرا وحكومة وشعبا.

ونحن متطلعون إلى أن يجد الوضع القائم في منطقة الشرق الأوسط الحلول بمقتضى الشرعية الدولية، التي يجب أن يخضع التعامل معها لوحدة المقاييس، حتى يرتاح الضمير العالمي كل الارتياح لقرارات الأمم المتحدة، ويرى دائما فيها خير أداة لتحقيق الأمن، وضمان الاستقرار في عالمنا.

وفي طليعة هذه القضايا التي نتطلع إلى تسويتها، القضية المحورية الفلسطينية التي لا يمكن للأمن والاستقرار أن يستتبا في المنطقة بدون حلها بما يضمن لشعب فلسطين المناضل حقوقه الثابتة، بما في ذلك حقه في إقامة كيان دولته فوق أرضه المغتصبة.

شعبي العزيز،

لقد دأبنا كلما توجهنا إليك بالخطاب يوم ذكرى عيد العرش، وطيلة السنوات الثلاثين المنصرمة، على إثارة ذكر أب الأمة جلالة محمد الخامس، واستحضار روحه الطاهرة، وإذ نستقبل اليوم الذكرى الثلاثين، نستشعر المزيد من التقيد بهذه السنة الحميدة، لارتباط ذكر والدنا بحصيلة ما أنجزناه أنا وأنت طيلة العقود الثلاثة.

ففي مدرسته السياسية الوطنية تربينا، وبأخلاقيتها الفاضلة اهتدينا، وعلى نهجه الجامع الموفق بين الصرامة في التعلق بالمثل والمبادئ والمرونة في تطبيقها درجنا، مما قرن ذكره - بعيدا عنا مثلما كان بيننا - بتحقيق الآمال وإنجاز الأعمال.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختاره لجواره قبل أن يحقق جميع ما كان يصبو إلى تحقيقه، فإننا أخذنا من يده المشعل مضيئا وهاجا، مُقفِّينَ على آثاره، مستلهمين من مواقفه وأفكاره، إنه وإن غاب جثمانه ما يزال بيننا، نستظل بروحه الطاهرة، ونتملى باستحضار سيرته العاطرة.

فاللهم نسألك أن تثيبه إثابتك المخلصين من عبادك المخلصين، بتبوئه مقعد صدق مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما كانت العقود الثلاثة المنصرمة كما أسلفنا حافلة بالبطولات التي سجلها هذا البلد الأمين صفحات غراء في سجل التاريخ، واصطبغ نصفها بما حفلت به ملحمة استرجاعنا صحراءنا الغربية من الاستعمار بتضحيات كل فرد من أفراد أمتنا، وبفضل تلاحم صفنا، وتناغم المشاعر بيننا وبين شعبنا، فإن من واجبنا أن ننوه بروح التضحية والتضامن التي طفح بها قلب كل مغربي ومغربية منذ انطلاق المسيرة الخضراء الشعبية.

إننا نعلم أن شعبنا سيظل وفيا لقسمه لتثبيت شرعية استرجاع صحرائه، ومصمما على أن يكون الاستفتاء المقبل مؤكدا لوفائه.

وإن قواتنا المسلحة الملكية وقوات الدرك والأمن والقوات المساعدة المرابطة في ثغر الصحراء، لتستحق منا تنويها خاصا، وهي التي ظلت ثابتة الجأش، يقظة البصر والبصيرة لحماية ذلك الجزء من وطننا الغالي، وصونه من كل عدوان.

إننا نعرب لها عن مشاعر التقدير، ونبعث لها برضانا الأبوي المفعم بالمحبة، ونشيد ببطولتها واستماتتها في أداء واجبها المقدس.

كما نسترحم الباري جل وعلا أن يتغمد بواسع رحمته شهداءنا الأبرار، الذين فدوا بأرواحهم الوطن، كي يظل محصنا منيعا، مقتعدا بين الأوطان الماجدة مقاما رفيعا.

وأسألك اللهم أن تحفظ هذا البلد من آفات المحن، وأن تحصنه من غوائل الفتن، وأن تديم عليه نعمة الاستقرار، وأن تطبع آصرة الود القائمة بيني وبين شعبي بطابع الدوام والاستمرار.

اللهم إنك تعلم أن قلبي يخفق بالإخلاص لشعبي، وأنه يقتعد في نفسي المكان المكين، وأن تعلقي بإسعاده تعلق وطيد متين، فأسألك اللهم أن تمدني من عونك وقوتك بما أقوى به على مواصلة الوفاء لعهده، ومتابعة إعلاء شأنه، وترسيخ مجده. إنك سميع بصير مجيب الدعاء : ﴿**ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء**﴾.

صدق الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

صدق الله العظيم

سورة الفاتحة

مكية وءاياتها سبع نزلت بعد
المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سورة البقرة مدنية إلا آية 281 فنزلت بمنى في حجة الوداع وآياتها مائتان وست وثمانون وهي أول سورة نزلت بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ
لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

خطاب مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده

بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم

الذي ألقاه جلالته حفظه الله بالرباط

يوم الخميس 26 رمضان 1387 هـ موافق 28 دجنبر 1967م

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها المسلمون :

في مثل هذا الليلة المباركة السعيدة، منذ أربعة عشر قرناً، وصل الله الأرض بالملأ الأعلى، فتنزلت الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، وبدأ الحق سبحانه يوحي إلى نبيه المصطفى المختار، آيات قرآنه، ومعجز بيانه، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان هذا الحدث العظيم، الذي تحتفل به الشعوب المؤمنة بالإسلام، المطمئنة بثلج اليقين، المتمسكة بهدى المبين، احتفالا يصل الحاضر بالماضي، ويؤكد الدلالة على رسوخ العقيدة، ويصدق قوله تعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

وإذا كان احتفال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى، يرمز إلى بقاء هذه الصلة واستحكامها، وإلى تمكن العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين الأوفياء لدينهم، المخلصين للمبادئ السامية، والقيم المثلى التي شرعها هذا الدين الحنيف، وإلى خلود الذكر الحكيم ودوامه أبد الآبدين، فإنه بالإضافة إلى هذا كله برهان على ما للمسلمين كافة والمؤمنين أجمعين من إدراك لعظمة الحدث الذي فرق بين عهدين، وفصل بين عصرين، وأقام بنيان الدنيا على أساس جديد، وخلق من الأمجاد ما هو مؤثل ومديد.

لقد نزل القرآن الكريم، على النبي العظيم، فأشرق النور مبدداً للظلام، وانتصر العلم على الجهل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، والعدل من البغي، وكان للدعوة الإسلامية التي أطاحت بالأوضاع المدخولة، وقومت الاعوجاج والزيغ، واستأصلت الفساد، وقوضت أركان الطغيان، كان لها الدوي الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية إلى ما حولها، والأثر البليغ الذي امتد إلى أقطار وأقطار، وسرى في شعوب وشعوب، فانتشر الإسلام وشاع، ونبه شأن المسلمين، وهبت ريحهم وطار صيتهم وذاع، فلم يلبث وجه المعمور بما كان لهذه الدعوة السامية والرسالة الخالدة من مفعول ومضاعفات وتحولات، أن تبدلت ملامحه، وتجددت سيماه وتقاسيمه، فبرزت الدنيا في ثوب غض قشيب، وإهاب ناضر عجيب، ولم تمض إلا أعوام معدودة على إتمام الدعوة والتبليغ، وكمال الوحي والتنزيل، حتى أعلى الله كلمة الإسلام والمسلمين، وفتح فتحه المبين، ومكن للمؤمنين في طول الأرض وعرضها، فخلفت الدولة الإسلامية الناشئة دولا كان لها قبل انتشار الإسلام شأن في الدنيا عظيم، وجاه واسع، وكلمة مسموعة، وأمر نافذ مطاع، فامتدت بامتداد الدعوة المحمدية أسباب سلم إسلامية، دعائمها أمثل المبادئ، وأسمى القيم، وأفضل المقاصد والأهداف، وقامت على تعاليم الدين الحنيف أركان حضارة، أضاءت بنورها أرجاء الشرق والغرب، ووثبت بالإنسانية الوثبة الميمونة نحو الرقي والازدهار في مختلف الميادين وجميع المجالات، لارتكازها على العدل والحرية والمساواة، ولانقطاع المسلمين على اختلاف أجناسهم وتعدد أنسابهم إلى الاستيعاب والتفكير والابتكار والتصنيف، والتأليف والتعليم والتلقين والتثقيف.

ومضى على الإنسانية ردح من الدهر سارت طواله في ظلال القرآن، وتحت راية الإسلام، سيراً ثابتاً موفقاً، وخطت فيه خطوات رشيدة مسددة، وأفادت خلاله الفوائد الصالحة الجمة، وكسبت في أثنائه المكاسب الجميلة الغزيرة، بيد أن المسلمين أتى

عليهم حين من الدهر، تداعت في نفوسهم فضائل الإيمان، وتضاءلت في قلوبهم محاسن الإسلام، وغابت عن أذهانهم وعقولهم تلك المبادئ والقيم التي صلح بها أولهم، فأخذ ذلك البنيان الشامخ الذي أقامته الأجيال الصالحة يتصدع شيئاً فشيئاً، وينهار يوماً على يوم، وتفرقت كلمتهم بعد اجتماع، فتبدد شملهم بعد ائتلاف واتحاد، وتقاسمتهم الأهواء، فانقسموا، وغلبت عليهم الشهوات، فغلبوا، وتوانوا وتواكلوا، ووهنوا وضعفوا واستكانوا، فخفت صوتهم، وخبا نورهم، وتقلص سلطانهم، وأدبرت دولتهم، وانحسر ما كان لهم من جاه ممدود، ونفوذ محمود، وانتقل ما كان لهم من شأن إلى غيرهم، وغدا ما كان لهم من قول مسموع، صادراً عن ألسنة من ناصبوهم العداء، وأخذوهم بالبأساء والضراء، حتى أهانهم من كان زمنا طويلا غفلا بين الأمم غير موسوم، وخاملا غير ملحوظ ولا معلوم، وأصبحوا فريسة لأطماع الطامعين، ولقمة سائغة للغزاة المتربصين، وبقي أمرهم على هذه الحال يعانون مرارة التفريط والتقصير، ويكابدون زمناً آلام العار والشنار، إلى أن قيض الله للأمة الإسلامية من استثار هممها، ودلها على الصراط المستقيم، وأهاب بها إلى سلوك النهج القويم، ودعاها إلى استقبال ما استدبرته من أمر، وبعث في نفوسها الأمل، وأعاد إليها الثقة المفقودة، وحرك في قلوبها الإيمان بالحق الضائع، وذكرها بالواجب المفروض. فتحركت حيثما وجدت بقية من صلاح، وألفيت جذوة من عزم، واستقر نصيب من حب في فك الأغلال، وحظ من رغبة في التخلص من القيود والآصار، فلم تلبث التضحيات المبذولة هنا وهناك، والمساعي الحميدة في هذا القطر وذاك، أن آتت ثمارها المنشودة، وأسفرت عن نتائجها المحتومة، إلا أن الاستعمار لم يلق عصا التسيار، ولم يقنع من الغنيمة بالإياب. فأخذ يتقنع كل يوم بقناع، ويتلون كل آونة بلون، ويكتسي حسب الظروف والأحوال كل حين بلباس، وفات المسلمين الذين استرجعوا ماسلبوا من حق، واستعادوا ما فقدوا من حرية، أن يواجهوا هذه المعركة الجديدة بقلب واحد، وإيمان جامع، واتحاد شامل، وعزيمة ماضية، لا سبيل إلى تفتيتها، وقوة شكيمة لا مجال لتشتيتها، فسلكوا الطريق الهين اليسير، بدلا من سلوك النهج العسير، ولم يحكموا عقولهم وبصائرهم، ولم ينظروا في عواقب أمورهم النظر البعيد على الرغم من محاولة إيجاد تآلف بينهم وتضامن، وأورث الخلاف بينهم الضغائن والأحقاد والإحن، وخلف الحزازات، وأوغر الصدور.

ثم كانت النكبة التي لم يكونوا لها متوقعين، ولا لمصابها منتظرين، فامتحنوا امتحاناً غير يسير، وانتهكت الحرمات المقدسة، وحل بديارهم الشقاء والبلوى، وضامهم

من لا عهد له ولا ذمام ولا ضمير. بعدما أهدرت القيم المتواضع عليها أيّما أهدار، وداس المبادئ المتفق عليها كل متغطرس جبار، وها هم العرب كافة، والمسلمون قاطبة، يعانون من ويلات هذه النكبة ما يذيب القلوب كمدا، ويفتت الأكباد لوعة وألما، لا نصير لهم إلا الله اللطيف بعباده، ولا ظهير لهم إلا أن يتمسكوا بالعقيدة المثلى، والإيمان الصادق، ويأخذوا بالمبادئ، ويتشبثوا بالقيم التي جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**﴾.

فإذا آمن المسلمون، واتقوا وعملوا الصالحات، واجتنبوا ما نهوا عنه، وخلصت نياتهم، وسلمت طواياهم، وصحت عزائمهم، فإن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، وإن الله لا يخلف ما وعد به عباده العاملين للصالحات، والمؤمنين بما أوحى إلى نبيه الأمين من آيات بينات، وسور محكمات، فكلما اجتمعت كلمة المسلمين على التقوى وصفت قلوبهم، واستهدفوا الخير والعمل والصالح، كان الله من ورائهم ظهيرا، ومعينا ونصيراً، وبلغوا أسنى الدرجات، وأجمل المقاصد والغايات، وكلما تفرقوا شيعا، وذهبوا طرائق قددا، وخذل بعضهم بعضاً، وتنكروا للمبادئ القومية التي قام على دعائمها صرح نهضتهم المنيف، وشامخ مجدهم التليد، وجد العدو المتربص بهم الدوائر إلى صفوفهم مدخلا، وإلى قلوبهم سبيلا، وألب بعضهم على بعض، وأحدث بينهم العداوة والبغضاء، والشقاق والشحناء، وأضعف قواهم، وفل غرب عزائمهم، وصرفهم عن المقاصد والأغراض التي تستهوي النفوس الأبية، والعقول المتبصرة.

وتفادياً لاتساع الخرق، ودرءاً للمكاره، وحفظاً للكيان، وصوناً للكرامة، وإمساكاً للمقاليد والزمام. وانتصاراً على المحن والشدائد، فإن علينا أن نرجع إلى أنفسنا محاسبين، ونتناول بالنقد والتمحيص ما نأتي من الأمور وما نذر، وما نبدئ فيه ونعيد، حتى لا يصدر عنا من الأعمال والأقوال ما يشين سلوكنا وتصرفاتنا من النقائص والعيوب التي ينكرها الإسلام، ويدينها محكم التنزيل والفرقان، فإن من شأن هذه النقائص والعيوب، أن تعرضنا لصروف الدهر وَغِيَرِه، وفواجعه وأزماته.

وإننا لنستعيذ بالله في هذه الليلة المباركة التي هي سلام حتى مطلع الفجر، وفي هذا الاحتفال بأعظم حدث وأسماه، وأجله وأسناه، من كل نعمة يتلوها بطر، ومن

كل جاه محفوف بمكروه غير مقرون بتبصر وحسن نظر، ولقد أوضح لنا الله في كتابه المبين، الطريق السوي والنهج اللاحب : ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾.

فاللهم إننا نعوذ بعزتك ـ لا إله إلا أنت ـ أن تضلنا، ونسألك الهدى والتقى، ونستهديك لأرشد أمرنا، ونستجيرك من شر نفوسنا، اللهم لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم.

اللهم إن عبادك الضارعين إليك، المبتهلين إلى كرمك وجودك وعظمتك وجلالك في هذه الليلة الغراء التي شرفتها وخلدتها وجعلتها خيراً من ألف شهر، يسألونك الصلاح والرشاد، ويستوهبونك التوفيق والسداد، والنصر، والتمكين، والهداية في المهتدين، غير ضالين ولا مضلين.

اللهم إن عبادك الذين أمرتهم بالتوحيد، يتوسلون إليك بسر قرآنك الكريم، الذي يحتفلون اليوم في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى تنزيله ووحيه، أن تنعم وأنت خير من أنعم وجاد، بلم شعثهم، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، والتأليف بين قلوبهم، وتطهير سرائرهم، وتمتين عرى الإيمان في نفوسهم، وكشف بلواهم، وإذهاب الحَزَنِ عنهم، فإنك اللهم الملجأ والملاذ، والمَفْزَعُ عند الملمات الشداد.

ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم وقولك الحق : ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾.

أبحاث ودراسات

مُعجزة القرآن الكريم
ودحضها لشبهات الكفار وافتراآت المشركين

للأستاذ عمر بن عبّاد

إنه كلما انتهى شهر وأقبل شهر آخر، أو انصرم عام وأقبل عام آخر، إلا واستحضر المسلم قول الله تعالى : ﴿**يسألونك عن الاهلة، قل هي مواقيت للناس والحج**﴾،(1) وقوله سبحانه : ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض، منها أربعة حرم**﴾،(2) وتذكر الكلمة النبوية التي قالها النبي ﷺ في خطبته يوم عرفة من حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض،...».

نعم، إن الزمان يستدير ويسير، فيمر اليوم بعد اليوم، ويعقبه الأسبوع بعد الأسبوع، ويهل الشهر بعد الشهر، ويأتي العام بعد العام، فتسير حياة الكون والإنسان في نظام فلكي بديع محكم، وتحرك كوني مضبوط متقن، لا يعتريه أدنى خلل، ولا يشوبه أي اضطراب، فيسير الزمان بتعاقب الليل والنهار، وتتالي الشهور والأعوام، وتحرك الشمس والقمر بحسبان، وفق سنن كونية ربانية، ولغاية حتمية مقدرة، يصير إليها وجود الكون وتنتهي إليها حياة النوع البشري ككائن حي وإنسان، ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿**صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء**﴾،(3) وقوله : ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون. إن في اختلاف الليل والنهار وماخلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون**﴾،(4) وقوله سبحانه : ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى،**

ذلكم الله ربكم له الملك﴾[5] وقوله سبحانه: **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾**،[6] وقوله جَلَّ علاه: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون﴾**[7] وقوله سبحانه: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إِلَيْنَا لا تُرجَعون، فتعالى الله الملك الحق، لا إلاه إلا هو رب العرش الكريم﴾**[8] وقوله تعالى: **﴿كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾**.[9]

وها هو شهر رمضان من هذا العام قد أهل على أمة الإسلام في كل مكان، هذا الشهر المبارك الذي جعل الله صيامه فريضة، وشرع الرسول ﷺ قيامه وجعله سنة، وأخبر وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بأن جزاء صيامه وقيامه المغفرة والرحمة والرضوان من الله سبحانه. قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياما معدودات﴾**،[10] وقال النبي ﷺ: (إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه). رواه الإمام أحمد والنسائي.

وهكذا يجد المسلم أن الله سبحانه وتعالى كرم شهر رمضان بين شهور العام، فجعله شهر الصيام والقيام، ومن خصائص أمة الإسلام، وخصه بمزايا أخرى ومحاسن وفضائل، تكريما للأُمة المحمدية، وإعلاء لشأنها بين الأمم في دنيا الناس. ففيه أنزل القرآن الكريم، مصداقا لقول الله رب العالمين: **﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أُخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾**.[11] وفيه ليلة القدر المباركة التي وصفها الحق سبحانه بأنها خير من ألف شهر.

فقال: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر﴾**،[12] وفيه يكثر الثواب ويعظم الأجر على العمل الصالح، والاجتهاد في تحصيل التقوى وإخلاص العبادة والعبودية لله، فتنزل الرحمة، وتثبت المغفرة، ويكون الدعاء سريع القبول محقق الاجابة، مصداقا لقول الله تعالى: **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يَرْشُدُون﴾**،[13] وقوله سبحانه: **﴿وقال ربكم أدعوني أستجب لكم﴾**[14] وقول النبي ﷺ: ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب تبارك وتعالى:

«وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين». وفي هذا الشهر المبارك الكريم يزداد المسلمون إقبالا على الله تعالى بصفاء قلوبهم وأرواحهم، ويزدادون تراحما وتعاطفا، وتآزرا وتماسكا فيما بينهم، فيكثرون من العبادة، والذكر ومدارسة القرآن والسنة، وكلام السلف الصالح من علماء وصالحي الأمة، ويكثرون من عمل البر والخير والإحسان، وسائر أنواع القربات والطاعات، اقتداء بالرسول ﷺ، الذي كان أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجْودَ بالخير من الريح المرسلة، حتى كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، ولنا في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وبذلكم تجتمع في هذا الشهر المبارك تلك الفضائل الزمانية، وتلتقي مع تلك الأعمال الطيبة الإيمانية، فتعمل على تطهير القلوب وتخليص النفوس والجوارح مما صدر عنها ووقع منها خلال العام من الذنوب والآثام، ومما علِق بها من آثار المعاصي والأدران، فيعود المسلم إلى رشده، ويتوب المومن إلى ربه، ويندم على ما وقع منه من تقصير أو تفريط في جنب الله، ويتوجه من صيم قلبه بالتوبة إلى خالقه ورازقه، متذكرا ومستيقنا أنه لا محالة راجع إلى ربه، وعلى موعد مع لقائه، فيجدد العهد مع الله ومع نفسه، ويصمم العزم، ويقوي الإرادة على السير في المنهج القويم والصراط المستقيم الذي أوضحه القرآن ورسمه الإسلام للناس كافة، وسلكه العباد المومنون المتقون، مستحضرا باستمرار في قلبه ونفسه وعقله، وواضعا نصب عينيه في كل وقت من أوقاته وفي كل لحظة من لحظات حياته وأعماله، قول الله تعالى في آخر آية نزلت من كتابه العزيز: **﴿واتقوا يوما تُرجَعون فيه إلى الله ثم تُوَفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظْلَمُون﴾**[15] وقوله سبحانه: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا﴾**[16] وقوله جل علاه: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولْتَنْظُر نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾**.[17]

وهكذا يكون شهر رمضان شهر الصيام والقيام، وشهر الصبر والاقبال على صلاح الأعمال، ونوعا من الجهاد الروحي ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، ومظهرا من مظاهر وحدة المسلمين في الإسلام، واجتماعهم والتقائهم على أُخوة الدين وكلمة الإيمان، والاعتصام بحبله المتين واتباع صراطه المستقيم الذي قال فيه الحق سبحانه: **﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**.[18]

وبعد هذا التقديم الهادف إلى التذكير ببعض مكارم هذا الشهر ومحاسنه، وفضل الإسلام على أُمته المحمدية، وانطلاقا من أن فضائله كثيرة ومزاياه عديدة فإني أود الاقتصار في هذا العرض والحديث على فضيلة واحدة من بين تلك الفضائل والمكارم

هي فضيلة القرآن الكريم، ومعجزته الخالدة، وأهدف إلى تناولها من جانب واحد هو جانب إعجاز القرآن المبين، في دحضه لافتراءات المفترين، وإبطاله لشبهات الكفار والمشركين، ومزاعم المبطلين والضالين، مستعرضا بعض الآيات التي تدحض تلك الشبهات وترد تلك المزاعم والافتراءات، وتتحدى مفتريها ومنتحليها أن يأتوا بسورة أو آية مماثلة للقرآن في بلاغة لفظه وسمو معناه وإعجاز أسلوبه ومضمونه ولو كان بعضهم لبعض مُعينا.

ومن ثم فإن هذا المقال سيرتكز بالأساس على الآيات القرآنية المتضمنة للرد على تلك الشبهات ودحضها، بهدف التذكير بها واستحضارها حين تطرح تلك المزاعم والافتراءات، فيجد المرء المسلم في كتاب الله العزيز، وفي دينه وإيمانه ويقينه ورُوحِهِ ما يبطل تلك الشبهات ويردها على مدعيها، ويدفعها عن قلبه ونفسه، وفكره وعقله، فيستحضر تلك الآيات ويجعلها في المقام الأول عند الاستدلال والاحتجاج والاقناع بها أثناء البحث والمناظرة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجعل في المقام الثاني الاستدلال على دحض الشبهات والافتراءات بالحجج المنطقية العقلية، وبآراء الفلاسفة وأقوال المفكرين المسلمين أو غيرهم من المفكرين المنصفين، وما تتضمنه من مقدمات نظرية ومنطقية، للوصول من خلال تلك الآيات الكريمة والبراهين الجدلية المقنعة إلى النتائج المطلوبة من إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتنوير الأفكار، والبصائر والأذهان وإن كانت كل سورة سورة، وكل آية آية، وكل كلمة كلمة، وكل حرف حرف، من كتاب الله العزيز، تنطق بتلك الحقيقة الأبدية، والحجة السرمدية، كما هو اعتقاد كل مسلم ومسلمة، وكل مؤمن ومومنة، بأن القرآن العظيم كلام رب العالمين لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه دستور الإسلام وأساسه الأول، وتشريعه الأسمى، ومعجزته الباقية الخالدة، وحجته البالغة على الناس يوم البعث والقيامة، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾.[19] وقوله سبحانه : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾.[20] وقوله جل علاه : ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين**﴾.[21]

فقد أراد الله سبحانه وتعالى، واقتضت حكمته الإلهية في سابق أزله وعلمه أن يختم رسالاته الربانية، فبعث نبيه ورسوله محمد بن عبد الله إلى الناس كافة. وأنزل عليه القرآن الكريم، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، مصداقا لقوله تعالى : مخاطبا نبيه ورسوله : ﴿**وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا**﴾.[22] وقوله سبحانه : مهددا للكافرين المكذبين بنبوة هذا الرسول ورسالته الحق، وموعدا لهم بما ينتظرهم من

الندم والحسرة والعذاب يوم القيامة : ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تَسَوّى بهم الأرضُ ولا يكتمون اللهَ حديثا**﴾.[23] وقوله جل علاه : ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتِمَ النبيئين وكان الله بكل شيء عليما**﴾،[24] وقوله سبحانه : ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾،[25] وقوله جل علاه : ﴿**فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزءين من الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوفَ يعلمون**﴾[26] وقوله : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين فإن عصوك فقل إني بريء ممّا تعملون**﴾،[27] وقوله جل علاه : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾،[28] وقوله سبحانه : ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾،[29] وقوله جل علاه : ﴿**يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا**﴾.[30]

وكان المجتمع العربي الذي بعث فيه النبي عليه الصلاة والسلام، وابتدأت فيه رسالة الإسلام، والوسط الذي انطلقت منه دعوته الحق وسطا جاهليا، بَعُدَ العهد بينه وبين ديانة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وتشبع بروح الأنانية الفردية، والعصبية القبلية، والحمية الجاهلية، وتعود عادات وألف تقاليد ضالة لا يقرها شرع ودين، ولا يقبلها ولا يستسيغها عقل واع متبصر، ولا تفكير وذوق سليم. وقد أجملها القرآن الكريم، ووصفها بأنها ضلال مبين، عند ما قال سبحانه : في سورة الجمعة : ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم**﴾،[31] وقوله تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**﴾،[32] فكان الكفار والمشركون من قريش يقفون في وجه رسالة الإسلام ودينه، ويقاومون دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بمختلف الوسائل الجاهلية، والأساليب المعادية الشيطانية، تارة بالدس والمكر والخديعة، وتارة بإشهار السلاح والتهديد والمكيده، وأخرى بمقاطعة الرسول وعشيرته في التعامل معهم وعزلهم وضرب الحصار الاقتصادي عليهم في شِعْب من الشعاب، وأخرى بالتكذيب للنبي وادعائهم بأنه افترى القرآن من عنده، أو بأنه تعلمه من غيره، وتارة أُخرى بالاستهزاء والسخرية، وتارة بطلبهم تبديل القرآن وتغييره من عنده، أو بالتحريض على الإعراض عنه وعدم الاستماع إليه، وتارة بالتعجيز بأسئلة وطلب المحال، وسؤاله ما ليس لبشر في

الإمكان، إلى غير ذلك من وسائل التعجيز والتضليل والضلال التي تمسك بها المشركون والكفار، فأثبتها، وسجلها عليهم القرآن، لتكون حجة عليهم ووبالا يوم الحسرة والندامة والنكال. وما علموا أن الله تعالى تكفل بنصرة دينه وعصمة رسوله ونبيه، فقال سبحانه : ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾،(33) وهو القائل سبحانه حكاية عن الكفار في دعوتهم إلى الإعراض عن القرآن، وتهديدا لهم وإنذارا عن ذلك الإعراض بالوعيد وسوء المصير والمآل : ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلِبُون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون**﴾،(34) وقال تعالى : ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يومنون إنا نحن نرث الارض وَمَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون**﴾.(35)

وهكذا كان موقف المشركين والكفار من دعوة الرسول عليه السلام إصرارا على الكفر وإمعانا في العناد والضلال، وتعلقا بالتقاليد الواهية، وإعجابا بالغرور والأنانية الخاسرة، وخوفا من أثر القرآن الكريم في هداية القلوب وإسعاد النفوس وإرشاد العقول، وخوفا من انتشار الدين الإسلامي المكين وتحقيق نصره وفتحه المبين، فتبقى فئتهم الكافرة الضالة قليلة مهزومة، وادعاآتهم المغرضة باطلة مدحوضة، فتدور عليهم الدائرة، ويخسرون الدنيا والآخرة، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الاذَلّينَ، كَتَبَ الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز**﴾.(36)

إن القرآن الكريم معجزة ظاهرة للعيان، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، بادية لأولي العقول والألباب المتفتحة، جلية لذوي الأبصار والبصائر المتنورة، على تعاقب السنين والأزمان، يهتدون إليها بهداية الإسلام ونور الإيمان، ويدركونها ويلمسونها في كل جانب من جوانبها وفي كل منحى من مناحيها، سواء منها ما يتعلق بالآيات القرآنية نفسها في أسلوبها ومبناها، أو في مضمونها ومعناها، وفي كل موضوع من موضوعاتها المتصلة بالله، وجودا وتوحيدا، عبادة لله وطاعة له سبحانه، أو المتصلة بأحكام المعاملات والأخلاق الإسلامية والحدود الشرعية، أو المتعلقة بالكون ونظامه ومآله، أو الإنسان وأحواله ومصيره، أو ما يتعلق منها بشخص الرسول عليه الصلاة والسلام وحياته، أو تسديده في سيرته واجتهاده، أو قصص الأنبياء والرسل والأمم الغابرة، قصد الاتعاظ وأخذ العبرة، فقد تضمن القرآن الكريم كل تلك الموضوعات والجوانب، وردت آياته البينات وبلاغتها المعجزة دعوى معارضيها رد الغيور يد الجاني عن الحرم، فدحضت ادعاءات المدعين وافتراآت المفترين على القرآن، وفندت مزاعم الزاعمين، وأبطلت أكاذيب المبطلين، وشبه الضالين والمضلين فيما ادعوه وأثاروه حول أي جانب من جوانب القرآن الكريم، أو موضوع من موضوعاته، فرجعوا في كل

زمــان ومكــان على أعقــابهم خــائبين خـــاسرين، مهزومين مـدحـورين، ليبقى دين الإسـلام ظـاهرا محفوظـا منتصرا، وتكون كلمـة اللـه العـزيـز الحكيم هي العليـا، وتظـل حقيقـة الـدين والقرآن في لفظـه ومعناه، جلية واضحة، ناصعة خالدة، محفوظة بحفـظ اللـه إلى يـوم البعث والنشـور، مصـداقـا لقـول اللـه تعـالى : ﴿**إنــا نحن نـزلنــا الــذكر وإنــا لــه لحافظـون**﴾،[37] وقـول النبي ﷺ : «يحمـل هـذا الـدِينَ من كلِ خلَف عـدولُـه، «أي المومنون المتقون والعلمـاء العـاملـون»، ينفـون عنــه تحريف الغــالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين».

وهنـا أجـدني مشرفـا على الـدخـول في صميم الموضـوع وصلبـه الـذي جعلتـه عنـوانـا لهـذا العرض والمقــال، وهــو إيراد بعض الآيــات القرآنيـــة التي تـدحض شبـه الكـافرين والمشركين وترد وتبطل مـا أثـاروه من إشكـالات وأبـاطيـل حـول نـزول القرآن الكريم وحول الوحي به من رب العـالمين على نبيـه المصطفى الأمين محمـد بن عبـد اللـه عليــه الصـلاة والسلام.

وأول ما يطالع المرء وينبغي تقديمـه في هـذا المضــار، والإشـــارة إليــه في معجـزة القرآن الكريم وإعجازه، وإبطاله لكل الشبه التي أثارها الكفار، هو التذكير بحقيقة مُسَلَّمـة عنـد جميع المسلمين، وحتى عنـد أعـداء الإسلام، وخصومـه المشركين (والحق مـا شهـدت بـه الأعـداء) هي أن القرآن المبين نـزل على الرسول عليـه الصلاة والسلام وتلاه على النـاس، وهـو أمي لم يـسبق له أن تعلم القراءة والكتـابـة من أحـد، وقـد مكـث وعـاش بين أهلـه وعشيرتـه وقومـه العرب مـدة أربعين عـامـا لا يعرف القراءة والكتـابـة حتى اصطفاه الله واختاره بالنبوة والرسـالـة، فبعثـه لحمل رسالة الإسلام وتبليغ دينـه الحنيف الـذي أكمل اللـه بـه الديانات وختم به النبوة والرسـالات، وأتمـه نعمـة على عباده المسلمين. وقد أوضح القرآن الكريم هـذه الحقيقة في غير ما آية، إظهارا لحقيقة الـدين وإبرازا لحقيقة النبوة، وأنهـا وحي من اللـه تعـالى، لا تنـال بالاكتسـاب والترويض النفسي على الطاعـات، وإنمـا تنال بـاصطفـاء اللـه واختيـاره لمن يشـاء من عبـاده المصطفَين الاخيار، مصداقا لقولـه سبحـانـه : ﴿**اللـه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير، يعلم ما بين أيـديهم ومـا خلفهم وإلى اللـه تُرجَـع الأُمـور**﴾،[38] وأن النبي عليـه الصلاة والسلام إنما يقرأ ويتلو ما أُنزل إليـه من ربـه الكريم، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿**هو الـذي بعث في الأميين رسـولا منهم يتلـو عليهم آيـاتــه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كـانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾،[39] وقـولـه سبحـانـه خطابا لنبيه ورسوله : ﴿**وما كنت تتلو من قبلـه من كتـاب ولا تخطـه بِيَمينـك، إذن لارتــاب المبطِلـون بـل هـو آيات بينـات في صـدور الـذين أوتـوا العلم ومـا يجحـد بـآيــاتنــا إلا الظالمون**﴾،[40] وقوله سبحـانـه : ﴿**أُتل مـا أُوحي إليك من الكتـاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر اللـه أكبر، واللـه يعلم ما تصنعون**﴾.[41]

وكما ألمحت وأشرت إليه سابقا، فقد أراد الله سبحانه، واقتضت مشيئته الأزلية وحكمته الإلاهية أن تنبثق رسالة الإسلام في العرب وبلادهم، وأن تنطلق من جنسهم وأرضهم، فاصطفى لحملها واختار لتبليغها رسوله محمد ابن عبد الله، النبي العربي الأمين، وأنزل عليه كتابه الحكيم بلسان عربي مبين، ليتلى ويحفَظ، ويُعْقَلَ ويُفْهَم، ويكون الإيمان به أولا في البيئة والوسط الانساني والاجتماعي الذي نزل فيه، ثم ليكون ذلك المجتمع والوسط العربي مُنطلَقا لنشر دين الإسلام، وتبليغ رسالته وإيصال دعوته إلى الناس كافة، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ألر، تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإن كنتَ مِن قبله لمن الغافلين﴾،[42] وقوله سبحانه : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يستحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أُولئك في ضلال بعيد، وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.[43]

وقامت دعوة الإسلام ورسالته الحق ـ ضمن ما قامت عليه من مبادئ وأركان، وقواعد وأحكام ـ على بيان إعجاز القرآن، ورد شبهات الكفار، وعلى دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره، وجدالهم ومناظرتهم بالتي هي أحسن، وتوجيههم إلى التدبر في القرآن، وإقناعهم بحجته البالغة التي هي أقوى حجة ناطقة، وبرهانه الساطع الذي هو أسطع برهان، وإرشادهم إلى النظر والتأمل، والتبصر والتفكر في ملكوت الله من السماوات والارض، واختلاف الليل والنهار، وفي مخلوقات الله من الإنسان والحيوان، للاستدلال بها ومن خلالها على خالقها العلي العظيم العليم الحكيم الذي لا يحده زمان ولا يحيط به مكان، بما يجعل الناظر المتأمل، والمتعقل المتبصر، يهتدي بهدي القرآن ويستنير بنوره المبين، فيتمسك بهديه وعقيدته وشريعته، ويرد كل الشبهات والأباطيل، التي أثيرت أو تثار حول دين الإسلام ومصدره الأول القرآن من طرف أعدائه وخصومه، الذين يحاولون في كل زمان ومكان بطرحها على ضعاف العقول والثقافة الإسلامية زحزحة الإيمان الراسخ في أمة الإسلام، رجالا ونساء، شيبا وشبابا، كهولا وأطفالا. يقول الله تعالى في محكم كتابه الحكيم : ﴿إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما يَنفَع الناسَ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحابِ المسخّر بين السماء والارض لآياتٍ لقوم يعقلون﴾،[44] وقال سبحانه : ﴿قل أُنظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الآياتُ والنُّذُرُ عن قوم لا

يومنون﴾،[45] وقال جل علاه : ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**،[46] وقال سبحانه : ﴿**وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾**،[47] وقال تعالى : ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيدٌ، ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾**.[48] وقال تعالى : ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يومنون﴾**،[49] وقال سبحانه : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رُفِعتْ وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ وإلى الارض كيف سُطِحت، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر، إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾**.[50]

وهكذا ذكر القرآن الكريم تلك الشبه وحكى تلك الأباطيل للرد عليها وإبطالها ودحضها بآيات بينات، لا يجحدها إلا الكافرون المكابرون، ولا يجادل فيها إلا المشركون المعاندون، لأنهم لم يهتدوا إلى معرفة الله حق المعرفة، ولم يقدروه حق قدره، كما أخبر عنهم سبحانه في محكم كتابه الحكيم بقوله الكريم : ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾**.[51] وقوله سبحانه : ﴿**وما قَدَروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا، وعُلِّمْتُمْ ما لم تَعْلَمُوا أنتم ولا آباؤكم، قل اللهُ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها، والذين يومنون بالآخرة يومنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾**،[52] وقوله سبحانه : ﴿**وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسماواتُ مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**.[53]

لقد ادعى الكفار والمشركون فيما ادعوه وزعموا فيما زعموه أن الرسول عليه الصلاة والسلام اختلق القرآن وافتراه من عنده، فأبطل القرآن هذه الفرية المزعومة، ورد هذه الشبهة الكاذبة والقولة الضالة الآثمة، فتحداهم أن ياتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في ادعائهم، أو ياتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو سورة واحدة مثله في علو ألفاظه وأسلوبه، وإعجاز بلاغته ومعانيه، وشمولية موضوعاته، فقال تعالى : ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة مِنْ مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي**

وقـودهـا النـاس والحجـارة أعـدت للكـافرين﴾،[54] وقـال سبحـانـه : **﴿أم يقـولـون افتراه قل فـاتـوا بعشر سـور مثلـه مفتريات وادعـوا من استطعتم من دون اللـه إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فـاعلموا أنمـا أنـزل بعلم اللـه وأن لا إلاه إلاّ هـو فهـل أنتم مسلمون﴾**،[55] وقولـه جـل عـلاه : **﴿أم يقـولـون تقوّلـه بل لا يومنون، فليـاتوا بحـديث مثلـه إن كانوا صادقين﴾**.[56]

وقـال الكفـار والمشركون : إن الرسول ﷺ : تعلم القرآن من الغير ويقصدون بـذلـك تعلمـه من رجـل أعجمي كـان مـوجـودا في مكـة يجلس عنـد الصفـا ليبيع بعض الأشيـاء التي كـان يتجر فيهـا، وقيل : إنـه رجـل نصراني الـديـانـة أعجمي اللســان، كـان يجلس عنـد المروة لنفس الغـايـة المـذكـورة، وكـان إذا مر بـه النبي قبـل أن يبعثـه اللـه نبيـا ورسـولا، يجلس إليـه ويكلمـه في شيء أو أمر أو حاجة، وهذه الشبهة والقولة الضالـة بـأن الرسول تعلم القرآن من بشر هي كـذلـك من أوهى والأكـاذيب وأخطـإ الادعـاءات والافتراءات، إذ كيف يقبل عقـل سليم أو يتصور فكر واع متبصر في حق إنسان مهمـا كـان متصفـا برجـاحـة العقل ونضـج الفكر، وقـدرتـه علي الابداع والابتكار، أن تكون له معرفة من تلقـاء نفسه بـالقرآن العربي المبين، في شموليـة موضوعـاتـه لـوجـود اللـه ووحـدانيتـه ولعـالم الغيب، وللكـون ومظاهره والإنسـان وأحواله، وكيف يمكن كذلـك أن يتلقـاه إنسـان ويستـوعبـه ويتعلمـه من بشر مثلـه، ويحيط بألفاظه ومعانيه في بضعة أيام قليلة ؟ اللهم إلا أن يكـون القرآن الكريم وحيـا من اللـه رب العالمين، أنزله على نبيه محمـد الـذي اصطفـاه لختم نبوة الأنبياء ورسالة المرسلين، ليبلغه ـ منجما ومفرقا على مـدى ثـلاث وعشرين سنـة إلى النـاس كـافـة، ويبقى للعـالمين هـدايـة ورحمـة، وعلى الكـافرين حجة وحسرة ونـدامـة، وتلـك هي الحقيقـة النـاصعـة التي يهرب منها الكفار ولا يريـدون أن يـذعنوا لهـا ويقروا بها، ولـذلـك يثيرون حولهـا شبهـات بـاطلـة مـدحـوضـة، منهـا شبهـة تعلم النبي للقرآن من الغير، وقـد دحضهـا القرآن الكريم بقـول ربنـا العظيم : **﴿ولقـد نعلم أنهم يقـولـون إنمـا يُعَلِّمُـهُ بشرٌ، لسان الـذي يلحـدون إليـه أعجمي وهـذا لسـان عربي مبين. إن الذين لا يومنون بآيات اللـه لا يهـديهم اللـه ولهم عـذاب أليم، إنمـا يفتري الكذب الذين لا يومنون بـآيـات اللـه وأولئـك هم الكاذبون﴾**.[57]

وقال سبحانه : **﴿وقال الذين كفروا إن هـذا إلا إفك افتراه وأعانه عليـه قوم آخَرونَ. فقـد جـاءوا ظلمـا وزُورا وقـالـوا أسـاطير الأولين اكتتبهـا فهي تُملَى عليـه بكرة وأصيـلا، قـل أنـزلـه الـذي يعلم السر في السمـاوات والارض إنه كان غفورا رحيما﴾**.[58]

وقال الكفار والمشركون : إن الرسول شـاعر أو كاهن أو مجنون، فرد الله عليهم هذه الفرية الكاذبة، والقولة الآثمة وقال سبحانه : **﴿وما علمنـاه الشعر ومـا ينبغي لـه، إن هـو إلا ذكر وقرآن مبين**

لتنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾،[59] وقال سبحانه مخاطبا نبيه ورسوله : ﴿**ن، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم﴾**،[60] وقال جل علاه : ﴿**فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقولُ رسولٍ كريم، وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تومنون، ولا بقولِ كاهن، قليلا ما تذَكّرون، تنزيل من رب العالمين﴾**.[61]

وقالوا أيضا : لماذا لم ينزل القرآن كله على الرسول جملة واحدة، وفي مرة واحدة، كما نزلت الكتب السماوية على الرسل السابقين دفعة واحدة، ليكون ذلك في نظرهم أقوى في الدلالة على الوحي والنبوة، فأبان الله سبحانه عن السر الذي يجهلونه في إنزال القرآن الكريم منجما أي مجزأ ومفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة من بعثة النبي عليه الصلاة والسلام بأول آية نزلت عليه، وإلى آخر آية نزلت عليه قبل لقاء ربه راضيا مرضيا، بعد ما بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة، وتركها على المحجة البيضاء المتمثلة في كتاب الله وسنة نبيه، وأن الحكمة في ذلك هي تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه ونفسه بالقرآن، وتمكينه من حفظه وتحصيله، وتبليغه وترسيخه في صدور المومنين به آية آية، وسورة سورة، وكلمة كلمة، ومن غرس التمسك به في القلوب والنفوس اعتقادا وسلوكا، حفظا وفهما وعلما وعملا، وتسهيل فهمه وإدراك مقاصده حسب نزوله في الوقائع والأحداث التي تكون سبب النزول، فيبقى تشريعا ربانيا حكيما، ودينا إلاهيا خالدا، صالحا لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فقال سبحانه : ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، ولا ياتونك بِمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾**[62] وقد كان الرسول ﷺ يستعجل القراءة للقرآن مع جبريل عليه السلام حين ينزل عليه بالوحي، خوفا من أن ينسى منه شيئا، أو يتفلت له منه شيء، فأنزل الله سبحانه آية في الموضوع تطمينا للنبي وتثبيتا لفؤاده على أنه لن ينسى منه شيئا، لأنه وحي الله ودينه الحق المامور بتبليغه إلى الناس كافة، فقال تعالى : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾**.[63] وبذلك أمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ويتأنى في الاستماع له والقراءة بعده، فقد تكفل الله أن يجمعه في صدر النبي، وأن ييسره لأدائه وتبليغه على الوجه الذي ألقاه إليه، دون أن ينسى منه حرفا واحدا، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير عند تفسيره لتلك الآية الكريمة.

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم وصفه الحق سبحانه بأنه قول ثقيل، ثقيل في عظمته وجلاله، ومسؤولية العمل به، ثقيل في

أسلوبه ومضمونه، وفيما جاء به وحمله إلى الناس من تكاليف شرعية وأمانة عظمى عجزت السماوات والأرض عن حملها وحملها الإنسان، وفي ذلك يقول الله تعالى : مخاطبا رسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿**ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**﴾.[64] وقال النبي ﷺ وهو يتحدث عن الحالة التي يكون عليها أثناء نزول الوحي عليه وقد سأله الحارث بن هشام قائلا : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس (أي صوته)، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه أي ينفصل عنه، وجبينه يتفصد عرقا (أي يتصبب عرقا). هذه مكانة القرآن وعظمته وجلاله، التي اقتضت معها حكمة الله أن ينزل كتابه العزيز شيئا فشيئا، آيات آيات، وسورة سورة حتى أكمله الله دينا وأتمه شريعة.

وطلب الكفار على سبيل السخرية والاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام أن يأتي بقرآن غير هذا، لا يكون فيه تسفيه لعقولهم الضالة وعاداتهم الفاسدة، وهم يريدون أن يأتيهم من عنده بما يوافق أهواءهم المنحرفة وأحوالهم الفاسدة، وأفعالهم وتقاليدهم الجاهلية، ويوافق نزواتهم الطائشة، فرد الله عليهم سبحانه وتعالى وأبان لهم أن القرآن كلام الله رب العالمين، وأنه ليس في إمكان الرسول أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه كلمة ولا حرفا، وإنما حقه وواجبه أن يتلوه كما أوحى الله به إليه، وأن يعلمه ويبلغه للناس كما أنزل إليه من ربه، إظهارا لبشرية الرسول أولا، ولنبوته ولعصمته من أي خطأ في التبليغ ثانيا، فقال تعالى : ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجُونَ لقاءنا إيت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْه، قل ما يكون لي أن أُبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحَى إلي، إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم، قل لو شاء اللهُ ما تلوتُهُ عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله أفلا تعقلون**﴾.[65]

واستغربوا من نسخ بعض الآيات القرآنية بآيات أخرى واستبعدوه وأثاروه شبهة عجيبة ليصفوا الرسول بالكذب، فرد الله عليهم تلك الشبهة والفرية، فقال وهو العليم بعباده وبما ينزل لهم من دينه وتشريعه، ليصلحوا به ويسعدوا في حياتهم الأولى والآخرة فقال تعالى : ﴿**ما يَوَدُّ الذينَ كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينَزَّلَ عليكم من خير من ربكم، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ما نَنسخْ من آية أو نُنْسِها نات بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله علي كل شيء قدير، ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾،[66] وقال سبحانه : ﴿**وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما يُنَزِّلُ قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ، بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدُسِ من ربك بالحق**

ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾.[67] فالكافرون والمشركون وهم قد أصروا على الكفر والإمعان في العناد الضلال لم يكونوا ليهتدوا إلى أن الله سبحانه بعث نبيه محمدا بدين الإسلام، وأن هذا الدين أكمل الله به الديانات وختم به الرسالات، وأن من أسس خلوده وركائز دوامه واستمراره مبدأ اليسر والمرونة ورفع الحرج، ومبدأ التدرج في الأحكام، لنزع العادات السيئة التي ألفها واعتادها المجتمع العربي قبل الإسلام، وللانتقال به من حكم نزل أولا وتقبله في يُسْرٍ، من آمن بالإسلام، إعدادا لهم لتقبل حكم آخر أصلح وأنسب يبقى خالدا على مدى خلود القرآن ودين الإسلام، مما يجده القارئ للقرآن الكريم في سوره وآياته، وفي التفاسير القرآنية للعلماء المفسرين، فالكفار والمشركون كانوا يجهلون هذه الحقيقة الإلاهية والحكمة الربانية، فاستبعدوا مسألة النسخ في القرآن وآثاروها شبهة أبطلها ودحضها القرآن بالآية السابقة وغيرها من الآيات الكريمة.

وطلب الكفار من الرسول عليه الصلاة والسلام على سبيل التعجيز له والاستهزاء به كشرط لإيمانهم بالله ورسوله، وبوحي القرآن ودين الإسلام وشريعته أن يأتيهم الرسول بالمحال، وبما يتجاوز حدود بشريته وليس في إمكانه كإنسان، فطلبوا منه أن يفجر لهم الأرض عيونا، وأن يتملك لنفسه بستانا يفجر فيه الأنهار تفجيرا، أو يسقط السماء عليهم قطعة قطعة، أو يحضر لهم الله مع الملائكة حتى يروه، أو يكون له قصر عظيم مزخرف في هذه الدنيا، أو يصعد إلى السماء طائرا، وهم يرونه صاعدا ثم ينزل منها ويعود إليهم وهو حامل لكتاب يقرؤه عليهم، فحكى الله كل ذلك وسجله وخلده في كتابه الحكيم ليكون حجة عليهم يوم لقاء رب العالمين، وأبان لهم أن الرسول ما هو إلا بشر نبي ورسول يوحى إليه، فقال تعالى في كتابه العزيز : **﴿وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكونَ لك بيت من زخرف أو ترقَى في السماء ولن نومن لرقيك حتى تُنزل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا، وما منع الناس أن يومنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾.**[68]

واستغرب الكفار وأهل الجهل والضلال أن يكون محمد بن عبد الله، الذي اصطفاه الله واجتباه ليكون رسول الإسلام هو النبي الأمي الذي ينزل عليه القرآن، وعلقوا الإيمان بنبوته وبربه الذي أُوحى إليه بدينه الحنيف، على أن يكون لهم ما لرسل الله من المكانة والرفعة والحكمة، وقالوا : لماذا لم ينزل الوحي على رجل عظيم من أهل مكة أو الطائف أو غيرهما من القرى، فرد الله عليهم

قولتهم الواهمة، وأبان لهم أنه هو الخالق لعباده، العليم بخلقه، يصطفى منهم سبحانه بحكمته من أهله الله لتلك المكانة وييسره لتلك المسؤولية، وعلم بحاله أنه أحق يحمل تلك الأمانة واجدر بتبليغ تلك الرسالة فقال تعالى : ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نومن حتى نُوتَى مثلَ ما أوتي رسلُ اللهِ، اللهُ أعلم حيث يجعل رسالاته، سيصيب الذين أجرموا صَغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾،[69] وقال سبحانه : ﴿**وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيمٍ أهم يَقْسِمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾.[70]

ومن خلال هذه الآيات الكريمة التي أوردناها، والتي اقتصرنا على ذكرها في هذا الحديث والمتعلقة بجانب من إعجاز القرآن ومعجزته، يتمثل في رد شبه الكافرين والمبطلين من أعداء الإسلام وخصومه، يتساءل المرء المسلم تساؤل تعجب واستغراب : كيف استساغت بعض النفوس والعقول من أبناء الضاد (من أبناء اللغة العربية) في عصر البعثة النبوية المحمدية، وهم أهل الأدب واللغة والفصاحة، والشعر والبلاغة، إنكار الوحي بالقرآن، وكيف نسبته - جهلا وتجاهلا وتضليلا - إلى إنشاء بشر وتأليف إنسان، لتغالط بذلك نفسها وتحاول أن تغالط غيرها من ذوي العقول البسيطة والنفوس الحائرة المضطربة التي لم تتنور بنور الإسلام ولم تهتد بهدي الإيمان، ولم تتحصن بحصنه الحصين، ولتستدرجها إلى إنكار الوحي والرسالات السماوية، وكيف تسيغه بعض العقول الجامدة المتحجرة والنفوس الجاحدة المعجبة بنفسها وعقلها ومكرها في القرن العشرين، مع أنها لو فكرت مليا وتأملت جيدا في ضوء هدي القرآن وكان لها من سلامة العقل والإدراك، وصفاء النفس والطوية، وقوة الملكة ووضوح الرؤية والبصيرة ونقاوة القلب وشفافية الإحساس، وسلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها في الإيمان بالله والتشبع بدينه القويم، لاهتدت إلى هذه الحقيقة من خلال آية واحدة من الآيات القرآنية أو سورة من سوره الكريمة، فكيف بمن تتبع القرآن كله وقرأه وتدبره سورة سورة، وآية وآية، وكلمة وكلمة، فإنه يجد قلبه وعقله، ونفسه ووجدانه مع تلك الحقيقة الناصعة التي قال فيها الحق سبحانه : ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يومنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما**﴾،[71] وقوله سبحانه : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعا، كل حزب بما لديهم فرحون**﴾،[72] وهل يمكن تصديق بشر يدعي لنفسه تأليف القرآن من عنده، ويدعي الإحاطة بهذا العلم الذي تضمنه كلام الله وكتابه

المبين، الشامل لذكر الكون والإنسان وسائر المخلوقات وما في الطبيعة البشرية والكونية من سنن وأسرار، لا يدعي ذلك ولا يصدقه إلا من كان معدودا في صفوف الحمقى والمجانين، وفي أصناف المعتوهين والمخبولين. إن العلم المطلق بالكون والإنسان، وبالغيب الذي لا يراه ولا يحيط بعلمه إلا الله تعالى، وإن العلم الشامل لكل ذلك إيجادا وخلقا، وحالا ومآلا إنما هو لله وحده الذي أحاط علمه بكل شيء، وأحصى كل شيء عددا، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾.(73) وقوله سبحانه : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾.(74) وقوله سبحانه : ﴿**ماأشهدتُّهم خلقَ السماوات والارضِ ولا خَلْقَ أنفسِهم وما كنتُ متخِذَ المُضِلين عَضُداً**﴾.(75)

وبعد هذه الإشارة بالآيات السابق ذكرها إلى وحي القرآن وإلى ما يرشد إليه في كل آية وكلمة من التحدي والاعجاز، ومن دحض شبه المنكرين والكفار المشركين، يصل بهم إلى هذه الحقيقة ويختصر الطريق عليهم، ويقرر في تحد للجاهلين والمبطلين : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾.(76)

ويقول سبحانه : ﴿**وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثلِه، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويلُه، كذلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين، ومنهم من يومن به ومنهم من لا يومن به، وربُّك أعلم بالمفسدين، وإن كذبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون،ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تَهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون. ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين**﴾،(77) ويقول سبحانه في نزول القرآن على النبي بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام : ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زُبُرِ الأولين، أو لم يكن لهم آيةً أن يعْلَمَه علماء بني إسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مومنين**﴾.(78)

وسألوا النبي ﷺ على سبيل السخرية والتعجيز أن يعرفهم بالروح وسرها في الإنسان، فلم

يجبهم ﷺ حتى أُنزل عليه الوحي بالقرآن، يبين أن الروح مما استأثر الله بعلمه وحقيقته، وأن ما أعطى الله للإنسان ومنحه من المعرفة بالقرآن والكتابة، والعلم ببعض ظواهر العلم والكون، إنما هو نقطة من بحر، فقال تعالى : ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾.[79]

واستغربوا واستبعدوا واستشكلوا أن يكون النبي بشرا رسولا، يأكل الطعام ويشرب الماء، ويتحرك في الأسواق لمآربه البشرية وتبليغ رسالة ربه الإسلامية، فأثاروها شبهة تذرعوا بها في استمرارهم على الكفر وعدم الإيمان، فحكى الله ذلك عنهم في القرآن وأخبر بما أعده لأنبيائه ورسله المصطفين المختارين، وعباده المومنين المتقين وأنبيائه ورسله المكرمين، من نعيم مقيم في الجنة، وما أعده من وعيد وعذاب للكافرين في النار، فقال سبحانه : ﴿**وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لو لا أُنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا، أو يُلْقَى إليه كنز أو تكونُ له جنة يأكل منها، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، أُنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا، تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعلْ لك قصورا، بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مَكَانٍ بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا**﴾.[80]

وكيف لا يهتدي الإنسان بهدي القرآن، ويستنير قلبه ومكره، وينشرح صدره بنور الإيمان، وكيف لا تومن العقول السليمة وتنفتح القلوب المتبصرة، وتطمئن به النفوس الواعية، وكيف لا تسترشد بكتاب الله وذكره، والاستماع إلى القرآن وتلاوته، وهو الذي لو نزل على الجبال والجمادات أو خوطبت به الأرض والسماوات لتأثرت وخشعت، وأذعنت وخضعت، ولانَتْ واستكانت، فكيف بالإنسان المكرم من الله بمختلف مظاهر التكريم، وفي مقدمتها نور العقل والتفكر، كما وقع لكثير من السابقين إلى الإسلام، ويقع لكثير من الناس الذين يهتدون حديثا وفي كل زمان ومكان إلى الإسلام بهدي القرآن الذي هو أساس الإيمان وسعادة المرء في الحال والمآل، مصداقا لقول الله المتعال : ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾.[81] وقوله : ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾.[82] ولذلكم أمر الله سبحانه عباده المومنين أن يعيروا استماعهم ويولوا اهتمامهم للقرآن الكريم حين يتلى ليكون له الأثر في هدايتهم ونيلهم لرحمة الله، فقال تعالى : ﴿**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾.[83] وقال : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون،**

الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المومنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.[84] وقال جل علاه : **﴿الله نزل أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هُدَى اللهِ يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**[85] وقال سبحانه : **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.**[86]

إنه تعبير واضح صريح، وتبيان بليغ معجز، وتصوير رائع مدهش، يبرز وحي القرآن الكريم، من رب العالمين، ونوره الوهاج المشرق المبين، وأثره الطيب في قلوب ذوي الألباب المهتدين، ونفوس ذوي البصائر المتنورة من العباد المومنين.

وحتى يزداد كل مسلم ومسلمة معرفة بالقرآن الكريم، ويزداد كل مؤمن ومؤمنة تنورا بنوره المبين، وتمسكا بهديه المستبين، وسيرا على نهجه القويم، وسلوكا لصراطه المستقيم، وإدراكا لفهمه وتذوقا لحلاوته ولبلاغته وأسرار إعجازه، ويكون له الاثر الفعال في قلوب الصغار والكبار من أمة الإسلام ويطبقونه في سلوكهم وأخلاقهم، ويعملون به في معاملاتهم وحياتهم الخاصة والعامة، لا بد أن تتوفر للجيل الصاعد وناشئته المسلمة أمور :

1) تنشئته على تحفيظ القرآن الكريم منذ الصبا والطفولة في الصغر، وعلى تلقينهم وتحفيظهم أحاديث النبي ﷺ، وتعريفهم بسيرته الطاهرة وشمائله النبوية، وسيرة وحياة الخلفاء الراشدين والصحابة الاخيار المكرمين، وبقية السلف الصالح من العلماء العاملين والصالحين المتقين، وتنشئتهم وتعويدهم منذ نعومة أظفارهم على القيام بالعبادات وأدائها، والتمسك بالأخلاق الإسلامية وفضائلها، فإن أولى ما عني به الناصحون وأفضل ما رغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليراضوا عليه.

2) توفير القدوة الصالحة في مختلف مجالات الحياة التعليمية والعملية حتى لا يرى النشء المسلم ولا يستشعر تناقضا بين ما يتلقنه ويتعلمه من مبادئ الدين وأحكامه وأخلاقه الفاضلة، وبين ما يراه ويشاهده في سلوك بعض الناس وأعمالهم وتصرفاتهم اليومية في سائر مرافق الحياة وشؤونها، فإن القدوة الحسنة هي خير مرب ومرشد وأفضل معلم وموجه للخير، ولذلكم أرشد إليه الله سبحانه أمة الإسلام إلى الاقتداء بالرسول ﷺ في أقواله وأعماله إلا ما كان مخصوصا به عليه الصلاة والسلام فقال تعالى : **﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾.**[87]

3) تكوين النشء المسلم تكوينا متينا في اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولغة حديث النبي ﷺ وتزويده بالقدر الضروري الذي يمكنه من معرفة قواعد اللغة العربية وعلومها، وإدراك بلاغتها وفهم آدابها، وييسر له دراسة علوم الشريعة الإسلامية وأحكامها، وبالتالي يساعده ذلك التكوين

الضروري المتين على تـدبر القرآن وفهمـه وتـذوق بلاغتـه وحلاوتـه وأسرار إعجـازه والتمييز بين القرآن الكريم في سمـو ألفـاظـه ومضمونـه وإعجـاز معانيـه وأسلوبـه، وبين كـلام البشر في قصـوره وعجـزه، وضعف عقله وإدراكه، ومحـدودية علمـه ومعرفتـه : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

ومن خلال هـذا العرض والمقـال الـذي يهـدف إلى تذكير المرء المسلم من خلال إيراد بعض الآيات بمـا في القرآن الكريم، من معجـزة إلاهيـة خالـدة، وإعجاز رباني تنطق بـه كل آيـة وكلمـة وحرف من كتـاب اللـه العزيز، يتبين أن هـذا المقـال لم يقصـد إلى التعرض لجميـع جوانب الاعجـاز والتحـدي في القرآن والتفصيل في ذلـك من خلال التعريف الـذي عرفـه علمـاء الأصـول كمـا جـاء في كتـاب جمع الجوامـع في أصـول الفقـه لتـاج الـدين ابن السبكي رحمـه اللـه : القرآن هـو اللفـظ المنـزل على محمد ﷺ، للاعجـاز بسورة منـه، المتعبـد بتلاوتـه، وكمـا جـاء في غيره من كتب الأصـول، فجمعـوا في تعريف القرآن جـوانب الاعجـاز فيـه، وأركـانـه وعنـاصره، من وجـود التحـدي بطلب المعـارضـة والمنازلة، ووجود المقتضي الذي يـدفع المتحـدي إلى تلك المنازلة والمعارضـة، وانتفـاء المـانع الـذي يمنع منها، وهي أمور وعناصر وبواعث كانت كلها متوفرة للمشركين من العرب والكـافرين في عهـد النبـوة والرسـالـة ونـزول الـوحي على النبي ﷺ بـالقرآن الكريم، ومع ذلـك عجزوا أن يتحـدوا القرآن ويـأتوا ولو بسورة مثلـه، وسلموا أنـه من عنـد اللـه، وإن لم يتوفقوا للاهتداء بهديـه للإيمـان بـه وبنبوة ورسـالـة المنزل عليه، مصـداقـا لقولـه تعـالى : في أول سورة فصلت : ﴿**تـنـزيـل من الرحمـان الرحيم كتـاب فصّلَتْ آياتُه قرآنا عربيـا لقوم يعلمون بشيرا ونـذيرا فـأعرض أكثرهم فهم لا يسمعـون**﴾.(88)

فهـذا البيـان والتفصيـل في وجـوه إعجـاز القرآن الكريم، وجوانب تحديه للكافرين والمشركين هو ما تكفلت بتوضيحـه وإبرازه الكتب الإسلاميـة المؤلفـة في هـذا المضمـار من علمـاء المسلمين عبر مختلف العهود والأزمان، أمثال : إعجاز القرآن لأبي عبد اللـه محمـد بن يـزيـد الـواسطي المتـوفى سنـة 306 هـ ودلائل الاعجاز لعبد الطاهر الجرجاني المتوفى سنـة 471 هـ وإعجـاز القرآن للقـاضي أبي بكر البـاقـلاني المتـوفي سنـة 403 هـ ونظم القرآن لأبي عثمـان الجاحظ المتوفى سنة 255 هـ، وإعجاز القرآن للشيخ مصطفى صـادق الرافعي وغيرهم من العلمـاء الـذين اهتموا بهذا الموضوع، كما أن هـذا المقـال لا يقصـد إلى تناول الاعجـاز من جوانب اتسـاق عبـاراة القرآن ومعانيه وأحكامـه، وانطبـاق آيـاتـه على مـا يكشفـه العلم الحديث من كشوفـات علميـة، وإخبـار بوقـائع غيبيـة لا يعلمهـا إلا علام الغيوب، وقوة أثره وتـأثيره في القلـوب والنفـوس وهـدايتهـا إلى الإيمـان وكـل خير، فـذلـك مـا تنـاولتـه وأبرزتـه دراسـات وبحوث أخرى، من مـؤلفـات في علم الأصول وغيره، وإنمـا هـدف هـذا المقـال، وحسبـه استعراض بعض الآيـات القرآنية وإيرادها، حيث تضمنت دحض شبه الكافرين التي أثاروها حول القرآن الكريم ونبيـه الأمين، والرد على افتراءات المفترين وإبطـال ادعـائهم التضليليـة

في كل زمان ومكان وحين، وذلك ليستحضرها المسلم ويتزود بها ويتسلح بها كلما أثيرت مثل تلك الشبهات من طرف الضالين المغرضين، ويدفع بها ترهات المضللين والمبطلين، ويتحصن بتلك الآيات وبكل آية من كتاب الله العزيز في سلامة إيمانه وعقيدته، وقوة يقينه وثباته ويجعل القرآن ربيع قلبه ونور نفسه وبصره وجلاء همه وأحزانه، ووسيلة اطمئنانه في الدنيا وسعادته في الآخرة، فإن القرآن وصفه منزله رب العالمين بأنه نور وكتاب مبين، فقال سبحانه وتعالى : مخاطبا نبيه ورسوله : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات ومَا الأرض ألا إلى الله تصير الأُمور﴾.**[89]

وقال سبحانه : **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين﴾.**[90]

صدق الله العظيم

الرباط ـ عمر بنعباد

فهرس الآيات الواردة في المقال
من حيث السورة ورقم الآية

1) البقرة 189.
2) التوبة 36.
3) النمل 88.
4) يونس 6.
5) فاطر 13.
6) الإسراء 12.
7) يس 40.
8) المومنون 115 ـ 116.
9) الرحمان 26 ـ 27.
10) البقرة 183.
11) البقرة 185.
12) القدر 1 ـ 5.
13) البقرة 186.
14) غافر 60.
15) البقرة 281.
16) الكهف 110.
17) الحشر 18 ـ 20.
18) الأنعام 153.
19) النساء 82.
20) محمد 24.
21) الجاثية 29 ـ 31.
22) النساء 79 ـ 80.
23) النساء 41 ـ 42.
24) الأحزاب 40.
25) المائدة 67.
26) الحجر 94.
27) الشعراء 214 ـ 215.
28) الأنبياء 107.
29) سبأ 28.
30) الأحزاب 45 ـ 46.
31) الجمعة 2 ـ 4.
32) البقرة 170.
33) التوبة 33.
34) فصلت 26 ـ 27.
35) مريم 39 ـ 40.
36) المجادلة 20 ـ 21
37) الحجر 9.
38) الحج 75 ـ 76.
39) آل عمران 164.
40) العنكبوت 48 ـ 49.
41) العنكبوت 45.
42) يوسف 1 ـ 3.
43) إبراهيم 1 ـ 4.
44) البقرة 164.
45) يونس 101.
46) النحل 41.
47) البقرة 109.
48) فصلت 53 ـ 54.
49) النحل 79.
50) الغاشية 18 ـ 26.
51) غافر 4.
52) الأنعام 91 ـ 92.
53) الزمر 67.
54) البقرة 23 ـ 24.
55) هود 13.
56) الطور 33 ـ 34.
57) النحل 102 ـ 103.
58) الفرقان 4 ـ 6.
59) يس 69.
60) القلم 1 ـ 4.
61) الحاقة 38 ـ 43.
62) الفرقان 32 ـ 33.
63) القيامة 16 ـ 19.
64) المزّمّل 4 ـ 5.
65) يونس 15 ـ 16.
66) البقرة 105 ـ 107.
67) النحل 101 ـ 102.
68) الإسراء 90 ـ 96.
69) الأنعام 124.
70) الزخرف 31 ـ 32.
71) الإسراء 9 ـ 10.
72) الروم 30 ـ 32.
73) الأنعام 59.
74) ق 16.
75) الكهف 51.
76) الإسراء 88.
77) يونس 37 ـ 45.
78) الشعراء 192 ـ 199.
79) الإسراء 85.
80) الفرقان 7 ـ 11.
81) الرعد 28 ـ 29.
82) الحشر 21.
83) الأعراف 204.
84) الأنفال 2 ـ 4.
85) الزمر 23.
86) ص 29.
87) الأحزاب 21.
88) فصلت 2 ـ 4.
89) الشورى 52 ـ 53.
90) الواقعة 75 ـ 80.

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

للدكتور توفيق محمد شاهين
المركز الاسلامي - أتاوا - كندا

يقول الله تعالى : **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** - سورة البقرة 185.

أشارت الآية الكريمة إلى شيئين لهما أهميتهما في حياة المؤمنين، وهما : أن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان، فتلك ذكرى ابتداء الوحي بالقرآن إلى رسولنا ﷺ. وأن على المسلم الذي يشهد رؤية الشهر المبارك صيامه لله سبحانه، تعبدا وشكرا على نعمة القرآن.

وذكرى نزول الوحي تستحق وقفة تدبر فيها شأنه، وتدرجه، وما أحيط به من ضمانات لبقائه نقيا له قداسته وتقديره وفعاليته واستمراريته.. ومراجعة جبريل عليه السلام للرسول في كل عام لجمع القرآن وتثبيته، حتى قوي إيمان المؤمنين بربهم، وصفت أرواحهم.

وتشير الآية الكريمة إلى أن القرآن الكريم هدى للناس، فهو الذي يزكي النفوس، ويثبت الإيمان، ويصفي الروح، وينهنه من طغيان المادية والجسد...

ويتأتى ذلك بتدبر القرآن وتلاوته، مع قبول الهداية العملية والتدريب عليها، فتكون الموازنة بين مطالب الجسد وأشواق الروح.

وكانت فرضية الصوم في شهر رمضان، بدون تخيير في حرية اختيار أي شهر، حتى تتحد كلمة المسلمين ومشاعرهم وأحاسيسهم من ناحية، وليغلق الإسلام باب الأعذار والتعللات، حين يختار بعضهم ما يروقه من الأشهر، أو يكون النسيء، فتضطرب القلوب، وتتفرق الكلمة، ويحل الشتات محل الثبات والصفاء والاتحاد في المشاعر والقلوب : فالإجماع على شيء واحد في زمان واحد... أدعى إلى القبول،

ووحدة الهدف، وقبول الهداية، وتسهيل الامتثال للأمر، والتشجيع على إنفاذه.

وكان الصيام يوما كاملا - من طلوع الفجر إلى غروب الشمس - في شهر كامل، لجدية التمرين والانقياد بالإمساك عن الطعام والشراب، وللوسطية التي يراعيها الإسلام بين مطالب الجسد وأشواق الروح، بموازنة سوية لا إفراط فيها ولا تفريط.

وفي اتفاق جماعة المسلمين على شيء كالصوم... يجلب ما يناسبه من رحمة الله وإحسانه، وجوده وبره بعباده الممتثلين لأمره، والواقفين عند حدوده، والمسارعين إلى مرضاته، والبعيدين عن سخطه... حينئذ تسطع أضواء الإيمان في قلوبهم، وتعمهم الرحمة، وتنزل بهم البركة. ولا يؤثر فيهم الشيطان، ولا تهبط بهم الغرائز والحيوانية، وإنما يرتقون في المستوى الإنساني الفاضل... ولذا جاء في الحديث الشريف : (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة - وفي رواية أبواب الرحمة - وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين).

ورمضان شهر الإخلاص، لأن الصائم يخلص فيه الصوم لربه سبحانه وحده، وليس له من رقيب على نفسه سوى الله تعالى، فقد يتراءى الخلل بالمراءات في أساسيات الإسلام الأخرى، بسبب النفس الأمارة بالسوء، أو تسلط الهوى والشيطان، فيحبط الرياء صالح العمل، أو يقلل من قيمته وفعاليته. ولذا أشار **الحديث الشريف** إلى الصوم ومزيته من بين العبادات - التي هي كلها لله - **(كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به)**، مزية إخلاص، ومزيد جزاء. وجاء في حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به. قال : (عليك بالصوم، فإنه لا مثيل له)، أي لا نظير له في عظيم الأجر، وصفاء النفس، والقرب من الله، وصحة الجسم، وكسر طغيان شهوة النفس، فيسيطر الإنسان على نفسه والأحداث التي تنزل به، والصعاب التي يلاقيها في الحياة، والإسلام يحب ذلك الإنسان القوي، ولا يرحب بالإنسان المتردد بين الضعف والقوة، والذليل لشهوته ووهمه، والقلق في الحياة بسبب ضعفه وقلقه في دنياه، وإيثاره الفانية على الدار الباقية.

وحين تذكر الآية الكريمة أن نزول القرآن في شهر رمضان كان ﴿**هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾. يتضح أن قلوب المؤمنين بأداء هذا الصوم تنطوي على إيمان بالله وحده، وبكتابه الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ، وبهداية هذا الكتاب تتضح معالم الحق، فضلا عن الاتحاد في المشاعر والأحاسيس، ومن ثم تلتقي القلوب على هدف واحد وكلمة سواء. كذلك يخف عن المحتاجين ما يلاقونه من حرمان في الحياة، حين يواسيهم الغني بإيصال حقهم إليهم، شكرا لله تعالى، ويقبل صاحب الجاه بجاهه على من لا جاه له تيسيرا لأمره، وتسهيلا لشأنه. وبمعرفة الحقوق والواجبات يكون التعاطف والتواد، وتحلو وتهون مشقات الحياة والأحياء. وهنا يرضي الإنسان ربه بامتثاله لأمره، ويرضي نفسه بتزكيتها ونجاحه في تخطي الصعاب، مع الاحتفاظ بمعنوياته وإنسانيته. وتتعاطف نفسه مع أفراد أمته وجماعته فتقوى وتتماسك، بقوة العزيمة حين ينميها بالإمساك عما تشتهي نفسه بصيام رمضان، فيصبح سيد نفسه، وتسود أمته، وترتفع عند الشدائد

والأزمات، وتكون خير أمة أخرجت للناس.

وللمشقة التي يلاقيها الصائم، حين يكافح الهوى والشهوة والمألوف في سبيل نصرة إيمان النفس بالله تعالى، وإيقاظ ضميره، فاستجاب لدعوة الله، وانتصر في جهاده... لهذه المشقة كان جزاء الصائم أضعافا مضاعفة، لأنه جهاد من نفسه الخيرة ضد نفسه الأمارة بالسوء. ويروي أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قوله في الحديث القدسي المروي عن ربه : (**كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به؛ يدع طعامه وشرابه من أجلي). جزاء وفاقا لما قام به من صيام عن معتاده ومألوفه وشهوته، في سبيل تزكية نفسه، وابتغاء وجه خالقه، ونصره لإيمانه، وتضامنه مع إخوانه المؤمنين.**

والإنسان الصائم قاصد لكمال نفسه ورقيها الإنساني... وبالتالي فعليه قهر نفسه لإزالة رذائلها، حتى يكون لعمله صورة تقديسية في دنيا المثال، ويكون صومه لله المعطي، الذي يجازي عليه بنفسه. ومن هنا جاء قول الرسول الأكرم : (الصيام جنة)، أي وقاية؛ لأنه يقي النفس شرها، ووسوسة الشيطان، ويباعد الإنسان من تأثيرهما، فالواجب تكميل معنى الوقاية بتنزيه اللسان عن الأقوال والأفعال التي لا تليق بالإنسان المؤمن، والتي تمثلت في حديث المصطفى ﷺ :

(رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر)، رواه أبو هريرة.

فالصائم هو الذي أمسك فمه عن الأكل والشرب ولغو القول والحديث. وأمسك لسانه عن الوشاية والشائعات والأراجيف والغيبة والنميمة. وأمسك يده عن الكسب الحرام، وعن الإيذاء والعبث. وأمسك قدميه عن السعي في الشر والإفساد. وحفظ قلبه عن الحقد والحسد وسوء النية والطوية. والذي يمسك عن مجازاة الشر بمثله، ومجازاة السفه بلفظه، فيغير من وضعه عند غضبه والاعتداء عليه، وليقل : إني صائم حين يسفه عليه السفيه؛ اعتصاما بالصوم، ونأيا عن خطاب المسيء... وبذلك يكون معنى الصوم ـ كما جاء في اللغة ـ هو الإمساك... قولا وفعلا، وعملا ولفظا ومعنى... لأن الصوم سر وعمل باطن يجب ألا يراه الخلق ولا يدخله الرياء... وتضييق لمسالك الشيطان والشهوات. وبهذا نعلم أن :

صوم العموم هو : الكف عن شهوتي البطن والفرج.

وصوم الخصوص : هو كف النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، وسائر الجوارح عن الآثام.

وصوم خصوص الخصوص : هو صوم القلب عن كل همة دنية، وأفكار تبعد عن الله تعالى. والناس هم درجات في هذا الجانب.

وعلى الجملة : فللصوم خصيصة ليست لغيره، وكفاه شرفا أن الله سبحانه أضافه لنفسه حينما قال في حديثه القدسي : (**الصوم لي وأنا أجزي به**) كما شرف سبحانه البيت العتيق بالإضافة إليه حينما قال تعالى : ﴿**وطهر بيتي**﴾ الحج 26.

والصوم عزيمة، يجب أن يتناولها المسلم بعزيمة وقوة، وألا يترخص في تعلل النفس - الأمارة بالسوء - عن صيام رمضان، فمنهم من يتوهم أن الصوم مضعف للجسم، وبالتالي فهو معطل أو مقلل للعمل والإنتاج... ومنهم من يتعلل بأن الصوم يحد من حرية الإنسان فيما يفعل ويتصرف، أو أنه تقليد مضى زمنه، ولم يعد يصلح للحياة الحديثة... ومنهم من يتوهم أن المرض قريب منه إذا صام... الخ وكلها تعللات كاذبة لنفس خائرة، وعزيمة واهية... وغاب عن المتعللين أن الصوم تدريب وتهذيب، وتقوية للإرادة، واستعلاء بها على مظاهر الركود والضعف والخور، وانتصار للإنسان على نفسه وعادته، وتدريب على الصبر على الشدائد والمكاره، وإذكاء لإعلاء المشاعر الطيبة بين الفرد والجماعة، ويكون سيدا على نفسه وشهواته، وتعلم الصبر وخلق الأمل، والإحسان بالقول والفعل، وإتقان العمل والإخلاص فيه، فيثابر في سعيه في سبيل عيشه، ولا ييأس حين يخيب مسعاه أو يخفق في أمله، ولا رقيب على ذاته إلا من ذاته وداخله.

وفي إيجاز: الصوم عبادة تصلح الروح والبدن، وعبادة تعد الإنسان لحياة الخير، لخير الإنسانية وخيره.

والصوم لما له من آثار صحية على البدن، وآثار نفسية على الإيمان والاتصال بالله تعالى وطاعته، وآثار على السلوك السوي المهذب الإنساني... كان الصوم عبادة قديمة، وفريضة على الأمم السابقة عنا، كما هي فريضة إسلامية. يقول الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات﴾ البقرة 183.

ومعنى هذا أن بين الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وشائج قربى سماوية، وأن اللاحق منهم يتمم رسالة السابق، وكلهم في سبيل الله وخير الإنسانية.

ومعنى هذا أيضا أن رسالات الله سبحانه إلى خلقه سلسلة من حلقات يتم بعضها بعضا، ويقوي بعضها بعضا، قوامها: الشهادة بأن الله واحد لا شريك له، وأنه وحده المستحق للعبادة والطاعة والامتثال. وأن فعل الخير واجب، وأن البعد عن الشرور والآثام مفروض، وأن الإيمان باليوم الآخر والعمل له واجب كل مؤمن... هذا في أساسيات الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعا، كما نلمح في آخر سورة البقرة:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾ البقرة 285. وتلك عقيدة الرسول محمد والمسلمين معه.

هنيئا للصائمين صومهم، وقبل الله منا ومنهم الصيام والصلاة والقيام وسائر الأعمال الصالحة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

كندا - توفيق محمد شاهين

القرآن يهدي الناس للتي هي أقوم

للأستاذ علال البوزيدي

مما ينفرد به الإسلام من أخلاقيات ومثل عليا سامية، وقيم وفضائل، إقراره للعلاقات الإنسانية العامة التي جاءت مصاغة في تعاليمه التي نص عليها القرآن المجيد، وهو دستور الأمة الإسلامية، والذي نزل جملة وتفصيلا على الرسول الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وقال في حقه جل شأنه : **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**. إذ بهذا الاصطفاء وهذه المكانة التي تتميز بها شخصية نبيّ الرحمة ورسول السلام محمد عليه الصلاة والسلام قيل في حقه ﷺ : **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**. وبالفعل، فمن رحمة الرسول الكريم بالناس كافة أن جاءهم بالإسلام الذي هو دار السلم والمحبة والتكافل، ومصدر للحريات ولاحترام حقوق الإنسان، تحرير الناس من ربقة الاستغلال وقيود الرق والاستعباد، وأشاع بين الناس الخير والتعاون على البر والتقوى، ونهاهم عن الإثم والعدوان.

وبقليل من التفكير واستخدام العقل السليم، يتضح أن ما يخالط سلوكيات وأخلاقيات الناس في هذا العصر من موبقات، هو نفسه الذي كان يخالط حياة البشرية سلوكا وأخلاقا ومعاملات وعلاقات عامة قبل مجيء الإسلام، وقبل نزول القرآن، أي في غابر الأزمان وسالف العصور، حيث كانت الإنسانية غارقة في أوحال الجاهلية وغياهب العصبية، والرذيلة والمجون والانحلال والظلم، فأية إنسانية بقوى على الظلم والعصبية والجهل والشر، أي لم تكن في الحقيقة بالإنسانية، بل كانت حياة بدائية أقرب إلى الحيوانية الشرسة التي لا عقل لها ولا ضمير، بل أنانية وحب الذات، وجور وظلم وظلام، دامس

مطبق، إلى أن شاع في الربوع نور الإسلام، وانبثق فجره الجديد، وصدع صوت الحق، وبدأت دعوة محمد ﷺ تنتشر في الآفاق، وتستقطب من هداهم الله إلى الصراط المستقيم.

ولنا الأسوة الحسنة في السيرة المحمدية المطهرة، وفي الأدب النبوي الشريف، إذ فيهما الدروس والعبر، ولو تمسك بهما الناس، وسار الكل على هديهما وأثرهما، لم يبق من تواجد لما يتمسرح على خشبة المجتمع الحديث من هزل وزور وبهتان ودس وخداع، وانحراف وسوء أخلاق وخبث، وما إلى ذلك من سلوكيات المجون والانحطاط والفراغ الأخلاقي والروحي، ذلك لأن القرآن الذي هو منهج الحياة، وأساس السلوك والمعاملات والعلاقات والروابط كفيل بتحقيق الحياة الأفضل، والانسجام الأشمل، والتعاون الأكمل بين الناس، وإشاعة المودة والرحمة بين البشر بصفة عامة، وبين المسلمين بصفة خاصة. وقد جاء ذلك واضحا في كون القرآن يهدي المسلمين للتي هي أقوم في الدنيا والآخرة، لكونه يبرمج الحياة على أساس الإصلاح، وينظم هذه الحياة تنظيما محكما.

لذلك، نجد أن الإسلام الذي هو دين القرآن عقيدة وشريعة وسلوكا وأخلاقا، يمتاز بخصائص ومرونة تساير كل الأزمنة والأمكنة، وهو الذي جعل الأمة الإسلامية أمة وسطا، إذ لا إفراط ولا تفريط، الكل سواسية أمام الحق، وتلك قمة الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، إذ لا مجال للظلم والاعتداء ولاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. ولذلك استحق القرآن المكانة الهامة التي يحتلها منذ نزوله على الرسول ﷺ، واستمر العقل البشري في تحليل معانيه، والتمعن والشرح والتفسير لنصوصه وآياته الجامعة الشاملة، ويكفي المسلمين المؤمنين فخرا واعتزازا بانتسابهم لأمة القرآن، أن يلمسوا ويدركوا بأن هذا القرآن أخذ في هذا العصر يحظى باهتمام واسع، يتجلى في البحوث والدراسات التي تصدر من حين لآخر في أوروبا والعالم الغربي، وهذاالاهتمام ببحث جوانب من القرآن الكريم، دفع الباحثين والدارسين إلى بحث حقائق عن الإسلام، ولم يخف بعض الباحثين في تحليلاتهم وأبحاثهم أن الإسلام يمتاز بعظمة القرآن وشموليته الديناميكية، الصالحة لكل زمان ومكان، بحل كل ما يعترض الإنسانية من إشكاليات وقضايا شائكة، نتيجة العصبية والأنانية وحب الذات، والتوتر والقلق، والفراغ الأخلاقي والروحي، والتوسع الجغرافي والتفوق الاستراتيجي. ومن دوافع الاقتناع، أن العديد من أصحاب الرأي والعقلاء والحكماء، انتهوا في أبحاثهم إلى أن عظمة القرآن، وشموليته الممنهجة للحياة، ترجع إلى كونه خاتمة الكتب السماوية، التي ربطت بين الحياة المادية والروحية رباطا موضوعيا ومنطقيا، خرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، وتأكد البعض أن غير القرآن، مجرد فلسفات تقحم الناس في مجاهل المعرفة، وتجعلهم في تيه دائم يصعب عليهم الوصول إلى رأي سديد، أو حل موضوعي لأية مشكلة من إشكاليات العصر، وما أكثرها في العالم المعاصر. وكلما أشكل عليهم الأمر، واستحال عليهم الحل، رجعوا إلى القرآن، فوجدوا فيه

ضالتهم المنشودة، وتوصلوا من خلاله إلى ما هم محتارين فيه، لكن يبقى بعد نتائج الأبحاث ذلك التصادم المعروف بالتحجر الفكري، والإلحاد العقائدي، الذي يروم إلى التغيير فيما لا يحتاج إلى التغيير، إذ هناك ثَوَابِتُ لا تقبل قيما غير القيم التي أقرتها، ومناهج غير المناهج التي حددتها، ونجد أن القرآن لم يغفل هذا الجانب حفاظا على استمرارية التوازن، ورعيا لكون أي اختلال يمس القيم الأساسية والمثل الإنسانية العليا، من شأنه أن يؤدي إلى التصادم الحضاري، ومنه إلى التصادم الفكري والعقائدي. وتلك هي أسباب الصراع الذي نبه القرآن إلى عواقبه الوخيمة على الحياة البشرية، وبالتالي حذر القرآن من مغبة الخطر الذي من شأنه أن يؤدي إلى التصدع الكوني.

• القرآن فتح للناس أبواب الاجتهاد

لقد فتح القرآن للناس أبواب الاجتهاد، وجعل مجالات واسعة مرتبطة بالحياة وتطوراتها رهن اجتهاداتهم، لغاية تحسين الأوضاع الإنسانية، وضمان أكبر قدر ممكن من النفع العام، وربط الأرزاق بإمكانيات الاجتهاد، بل فضل بعض الناس على بعض في الأرزاق، تحفيزا على إشاعة روح الاجتهاد، ونبذ الخمول والكسل والتقاعس والاتكال، بل حث الإسلام في ضوء القرآن على العمل، وجعله مفتاح وطريق النجاح، موصيا بضرورة الاعتماد على النفس، وتحريك الأسباب المشروعة، التماسا وسعيا للرزق الحلال الطيب. مما يؤكده النص القرآني المبين: ﴿**وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى**﴾ إلى آخر الآية. لذلك ففي مجال السعي، تبرز روح الاجتهاد الحقيقي، خاصة إذا كان ذلك ينطبق على ما تشير إليه الاجتهادات الهادفة إلى بلورة الفعاليات الإنسانية، وبالأخص فعاليات الطاقات الكادحة التي تبذل العرق من أجل سد الرمق. وما أروع القرآن الكريم، الذي يجزي كُلاً بحسب اجتهاده ونيّته، وهذه الروعة البيانية في القرآن نالت إعجاب كبار المفكرين بما فيهم أولئك الذين لا يدينون بدين القرآن، وأذكر منهم المفكر الغربي (سدني فيشر)، الذي قال في كتابه بعنوان : الشرق الأوسط في العصر الإسلامي : «إن القرآن صوت حي يروع فؤاد العربي، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة، كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، اعتمادا على أثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع، أنه كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر، وأن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه، كما تتجلى في أوامره، فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر، ولا أن يقامر، ولا أن يعتدي وأن يستسلم للترف والرذيلة...» انتهى.

وهكذا نجد أن الأقلام تجد وتجتهد، انطلاقا من نصوص القرآن وقصصه، وحسن بيانه وروعة

بلاغته. وكم يكون الأمر هام للغاية، أن ينتزع القرآن - بما حباه الله من عظمة - اعترافات أصحاب الرأي وحملة الأقلام ورجال الفكر، حتى وإن كانوا خصوصا أعداء للإسلام. يبقى جدير بالإشارة أن هذا القرآن قمين بكل اجتهاد من طرف من يدينون بدينه الحنيف، ويتمسكون بما جاء به من تعاليم تسمو بالإنسان المسلم نحو مدارج الرفعة والارتقاء الفكري والتقدم المعرفي، غير أنه ومع شديد الأسف، نجد العكس، بحيث هناك البعض من الناس ينتهجون في حياتهم نهجا مخالفا لما يوصي به القرآن، وتلك هي الطامة الكبرى، إذ يقوم البعض بما يجلب له الهوس والصداع، مع أن القرآن المنزل من عند الله على نبي الرحمة محمد رسول ﷺ، وبهذا التنزيل، تمت تسوية الكثير من الإشكاليات، وتحولت الحياة تَحَوُّلاً حاسما بأمر الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ولن تجد لسنة الله تبديلا. هذا القرآن، الذي ينادي بالعمل والخير في ضوء اليسر والاعتدال، لذلك فإن الذين لا يهتدون بهدي القرآن، ويركبون أهواءهم، أولئك في ضلال بعيد. الذي ينبغي بالأساس هو العمل بتعاليم القرآن، وهضم معانيه ومضمونه الشمولي العام. إنه كتاب متناسق الآيات وقوى الحجة، مما جعل له تأثيرا في أخلاق الأمم والشعوب على مستوى العلاقات الاجتماعية، ويتضح ذلك من خلال التوحيد والاحترام للمرأة وحقوقها، وإقرار مبدإ المساواة، ومن هذه المنطلقات ينبغي أن يتنافس المتنافسون. غير أن الملاحظ عكس هذه التعاليم النيرة الخيرة، التي تكفل مصلحة الإنسانية ونفعها على كل المستويات. والاجتهاد في هذه السبل يعتبر اجتهادا إيجابيا، ذلك أن كل نوع من أنواع الاجتهاد الهادف إلى الخير، وترسيخ العقيدة السليمة، والتربية القويمة، والأخلاق الحميدة في النفوس، إنما هو اجتهاد مقبول، وما يروم إلى دعم قوى الشر والخذلان والانحراف والرذيلة وكل الموبقات المهلكة للإنسان، والمضرة بالإنسانية، إنما هو اجتهاد مرفوض، حتى وإن كان الهدف منه علمي أو تكنولوجي يراد به تدمير الإنسانية، ونشر الفتنة بين الناس، وزرع الأحقاد والصراعات بين بني البشر، وتنشيط النزعات على أساس عنصري وطبقي، قوميا وإقليميا، مع أن الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

هذه جوانب من أخلاقيات القرآن وأدبياته، لكن هل تعمل بمقتضاها الإنسانية الحديثة التي تأثرت بإيديولوجيات الفكر المعاصر، إلى درجة أصبحت تسيطر على تفكيرها أوهام لا تحدها حدود، حتى أصبح الناس يقولون ما لا يفعلون، ويقومون بأشياء ويتخذون مواقف لا يؤمنون بجدواها، ولا يدركون عواقبها. ولعل ما تعرفه بعض الأمم والشعوب من تمزق وصراع وحروب دليل على خروج الناس عن الجادة والصواب، والزيغ عن المحجة البيضاء، تلك المحجة التي رسمها القرآن الكريم.

• من معالم الاجتهاد : التفاسير القرآنية نموذج

سيلاحظ بعض المختصين في الكتابات الإسلامية من أساتذة الشريعة والفقهاء أن الأسلوب

الذي تناولت به موضوعي هذا يميل بعض الشيء إلى البساطة في التعبير، وغايتي من ذلك، تكمن في الابتعاد عن التكلف والعمق، وحتى لا أقع في الخلط الذي قد يؤدي إلى الغموض، أفضل الأسلوب المبسط القريب إلى فهم العامة، ذلك لأن المستهدف بالأساس هم بعض الحائرين الذين كاد الشك والتشكيك أن ينال منهم، إن لم يكن قد استحوذ على أدمغتهم بالفعل، فهذا النمط من الناس وخاصة الشباب أصبح في حاجة ماسة إلى عملية غسل الأدمغة من ما علق بها من أفكار زائغة عن الجادة والاستقامة.

وبدون أن أتوغل في تحليل هذا المحور من الحديث، أنصح هذا النمط من العنصر البشري المسلم على وجه الخصوص، إلى استيعاب النصوص القرآنية المفسرة، واعتماد التفاسير الهامة، كظلال القرآن لـ(سيد قطب) رحمه الله، وابن كثير، وأشباه ذلك من التفاسير القيمة التي تزخر بها المكتبة العربية الإسلامية، ففي هذه التفاسير ما يقنع ويرشد إلى الخير والفلاح. وللإشارة فإن هذه التفاسير قادرة على أن تجعل المسلم يفهم ويحس بقيمة القرآن وشموليته، ذلك لكونه كثيرا ما يقرأ آيات من القرآن، لكنه لا يتدبر معناها وأبعادها التوحيدية، بعيدا عن الفلسفات والتأويلات. إذ فكل آية من القرآن لها دلالات ومعاني ليس من السهل إدراكها، لأن الإدراك الحقيقي، والفهم الصحيح لهذه الدلالات والمعاني القرآنية، يحتاج بالأساس إلى عنصر الإيمان والاقتناع بأهمية التوحيد. وقد تنافس علماء الإسلام في شروحهم وتفاسيرهم لأوجه الإعجاز القرآني. وقد أثبت التاريخ أن الباحثين والنقاد، وكل الذين يهاجمون القرآن، أو حاولوا الرد عليه بكتب فلسفية جوفاء، وافتراءات مفضوحة، بكونهم أنصار الحرية والعدالة كاذبون، لكونهم ينادون بأفكار دون أن يطبقونها... غير أن الإشكالية التي تعاني منها الإنسانية منذ القديم تتجسد في السلوكيات والأخلاقيات، وهي ما أوضحتها وأبانت عنها مختلف التفاسير القرآنية، لكن أين العقول التي تستوعبها..؟ وأين الأفكار التي تتشبع بها وتعمل بمقتضاها..؟ وقد حصل تراجع ملحوظ من حيث المناهج السلوكية والأخلاقية، فإذا أخذنا الإنسان العربي المسلم نموذجا، وحاولنا مقارنة السلوكيات والأخلاقيات السائدة في العصر الحديث مع ما عرف به هذا الإنسان قديما من خصائص ومواهب، تتمثل في : الفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة والصراحة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة.

فهذه الصفات والفضائل، لا ينبغي أن يقال بأنه وقع التراجع عنها كليا، بل خالطتها بعض السلوكيات والأخلاقيات الدخيلة بواسطة الفلسفات الإلحادية، ونتيجة التصادم الحضاري والصراع العقائدي والإيديولوجي. وهذا جانب آخر نترك الحديث عنه إلى فرصة أخرى بحول الله.

سلا ـ علال البوزيدي

مخطوطات صحيح البخاري بخزانة القرويين بفاس

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

إن الاشتغال بالحديث النبوي الشريف، من أهم ما استأثر بعناية المغاربة منذ ارتباطهم بالإسلام، وذلك لأنهم يعلمون، أن السنة تعد أصلا من أصول التشريع الإسلامي، ومصدرا من مصادره الكبرى، التي لا يمكن التهاون في حفظها وتدوينها ودراستها والتمسك بما صح منها.

ولقد كانت اهتماماتهم موجهة إلى الاعتداد بالكتب القيمة، التي عمد مؤلفوها إلى التحري في تدوينها واختيار صحيحها، فنراهم مثلا يهتمون بموطأ الإمام مالك، لعنايته بالجوانب الفقهية، كما يهتمون بالكتب الستة الصحاح، وبالأخص منها : صحيح البخاري وصحيح مسلم، وفقا للشروط المعتبرة التي لا تقبل أي زيف، ولا ترضى بأي خلل في متن أو سند.

ومن يتتبع الخزانات المغربية، سواء كانت خاصة أو عامة، فسيرى أنها مليئة بكتب الحديث المذكورة، وأنها كانت تعنى بالنسخ المخطوطة المصححة المقابلة بالأصول الصحيحة ذات الاعتبار العلمي، إما بتوقيع بعض العلماء الذين لهم شأن في علم الحديث، وإما بتسجيل بعض السماعات والإجازات، وإما بذكر الروايات الرابطة بينها وبين مصدرها الأصلي.

وفي خزانة القرويين، مخطوطات كثيرة تسير على هذا النسق الدال على صدق همة العلماء، المبين لحرصهم على أن تكون كتبهم ذات قيمة علمية، وأن تكون صالحة للاقتباس منها والنقل عنها.

ويمكننا أن نقدم بعض النماذج من صحيح البخاري ومن شروحه لنتعرف من خلال ذلك، على ما بذله المغاربة من جهد في نشر هذا الكتاب بربوعهم، وفي حفظه بخزائنهم، سواء كان مكتوبا بخط مغربي أو أندلسي أو شرقي، وسنلاحظ أن كثيرا من النسخ كانت تتعمد ذكر الناسخ وتاريخ

النسخ، وذكر الأصول المعتمد عليها والروايات المستمدة منها، إذ من المعلوم أن صحيح البخاري قد روي عن مؤلفه من طرق شتى، إلا أن أكثر الروايات انتشارا بالنسبة للغرب الإسلامي، هي رواية محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري المتوفي سنة 320 هجرية[1].

وروايته هاته، انتقلت بواسطة روايات مختلفة أهمها :

رواية أبي إسحق المستملي إبراهيم بن أحمد البلخي المتوفى سنة 376 هجرية[2]، ورواية عبد الله بن حموية السرخسي المتوفى في ذي الحجة من عام 381 هجرية[3]، ورواية أبي الهيثم الكشميهني محمد بن مكي المروزي المتوفى يوم عرفة من عام 381 هجرية[4].

وعن هؤلاء الثلاثة، روى أبو ذر الهروي عبد بن أحمد الأنصاري الخزرجي نزيل مكة، المتوفى عام 434 هجرية[5]، وهو الذي أصبح فيما بعد من أهم الرواة الذين اعتمد عليهم المغاربة فيما نقلوا.

ومن أشهر الذين أخذوا عنه بمكة، القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة 474 هجرية[6]، وعن الباجي أخذ الفقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيارة الصدفي المعروف بابن سكرة المتوفى سنة 514 هجرية، وعن هذا الأخير أخذ أبو عمران موسى بن سعادة البلنسي المتوفى عقب 522 هجرية، وهو صاحب النسخة الشهيرة التي يجب الاعتماد عليها، لأنها قرئت على أبي علي الصدفي نفسه، وهي تحمل خطه الذي يشهد بأن ابن سعادة قد سمع منه هذه النسخة، وأنه قرأها عليه.

ولقد ظلت هذه النسخة معتمد الناقلين والناسخين، وجعلوها أصلا في المقابلة، وعنها كتبت نسخة أبي المحاسن يوسف الفاسي عام 1031 هجرية، بخط الفقيه محمد بن علي بن محمد الحسني المعروف بالجزولي المتوفى سنة 1018 هجرية[7]، وقرئت عليه بعد نسخها، ووقعت المقابلة بينها وبين النسخة الأصلية، حيث كان أبو العباس أحمد بن يوسف الفاسي يسرد الفرع، وعمه أبو زيد عبد الرحمن العارف يمسك الأصل، وتكررت عملية التصحيح والمقابلة حتى أصبحت هاته النسخة الفرعية تنال نفس القيمة التي كانت للنسخة الأصلية، وصارت هي المنطلق للاستنساخ، وعرفت بسبب ذلك بين رجال العلم بالنسخة الشيخة، الشيء الذي دفع السلطان المولى محمد بن عبد الرحمن إلى الأمر بأن يستنسخ منها الجزء الأول الذي ضاع من النسخة السعادية، التي كانت محفوظة بخزانة القرويين، وذلك عام 1228 هجرية.

ومن المعلوم، أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن كان قد استعار نسخة ابن سعادة من

1) شذرات الذهب ج 2 ص 286.
2) شذرات الذهب ج 3 ص 86.
3) شذرات الذهب ج 3 ص 100.
4) شذرات الذهب ج 3 ص 132.
5) شذرات الذهب ج 3 ص 254.
6) شذرات الذهب ج 3 ص 344.
7) سلوة الأنفاس ج 3 ص 286.

الخزانة، وكان يحملها معه في ركابه تبركا، وكذلك كان يفعل ولده المولى الحسن الأول، وانتقلت النسخة بعد ذلك إلى المولى عبد العزيز، ثم إلى المولى عبد الحفيظ، ثم إلى الخزانة العامة بالرباط.

ولقد أعجب المستشرق ليفي بروفنصال بهذه النسخة، فعمل على تصوير الجزء الثاني منها، وإخراجه بباريز مع مقدمة كتبها الشيخ محمد عبد الحي الكتاني سماها : «التنويه والإشادة، بمقام رواية ابن سعادة»، ثم حاول أن يقوم بنفس العمل بالنسبة للجزء الثالث، إلا أنه توفي قبل تحقيق ما أراد، وضاع هذا الجزء ولم يدر مكانه الآن، أما باقي النسخة، فما زال محفوظا بالخزانة العامة بالرباط.

ونظرا لأهمية نسخة ابن سعادة، فإن النساخ كانوا يعتمدون عليها. وفي خزانة القرويين مخطوطات تشير إلى ذلك، نذكر منها على سبيل المثال ما ياتي :

أولا - الجزء الرابع والخامس من نسخة خماسية مكتوبة بخط أحمد بن العربي بن أحمد الريحاني عام 1120، وهما مسجلان تحت الرقم 74.

ثانيا - الجزء الرابع من نسخة خماسية مسجل تحت عدد 76 نسخ في ربيع الثاني من عام 1078، وبه سماع على أبي عبد الله محمد بن يحيى السراج وهو يمسك الأصل المقروء على أبي علي الصدفي بمسجد إمامته من زنقة حجامة في مجالس عدة بين المغرب والعشاء، وذلك سنة 836. ويذكر المهتمون بهذه الرواية أن هذا التاريخ هو أول تاريخ تذكر فيه النسخة السعادية بالمغرب.

ثالثا - أجزاء ثلاثة من نسخة خماسية مسجلة تحت عدد 750، وبهامشها بعض تصحيحات من نسخة ابن سعادة.

رابعا - نسخة عشرينية الأصل، بقي منها ثمانية عشر جزءا، كتب الجزء الأول منها عام 1005، كتبه محمد بن عبد الرحمن البكاري القيسي، ووقع الفراغ من الجزء العشرين عام 1017، وقد كتب على كثير من أجزائها، تولى العرض مع أصل ابن سعادة العلامة العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي الفهري من أول التفسير إلى خاتمة الكتاب.

وهناك نسخ أخرى تسير على نسق رواية ابن سعادة، إلا أنها لم تشر إلى ذلك.

ولا تقتصر الخزانة على المخطوطات المتصلة بالنسخة السعادية، بل توجد نسخ أخرى تنتمي إلى روايات أخرى، نذكر منها على سبيل المثال ما ياتي :

1) أربعة أجزاء من نسخة خماسية، كتبها محمد بن مخلوف بن ميمون بن خلاص، من رواية أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي، ثم الهروي مسجلة تحت عدد 89.

2) الجزء الثاني من نسخة كتبت عن أصل به بعض التعليقات، بخط أبي الحسن علي بن محمد الهاشمي اليونيني الحنبلي المتوفى عام 701 هـ، وهو مسجل تحت عدد 91، حبسه المنصور السعدي على الخزانة عام 1008 هـ.

ومن الجدير بالذكر، أن نشير إلى أن هذه النسخة تعد من نوادر الخزانة. ذلك أن الذين يكتبون

عن رواية اليونيني، يذكرون أنها لم تصل إلى المغرب إلا في القرن الثاني عشر الهجري، ويقولون عنها أنها آخر الروايات ظهورا بالمغرب، وأن أول من استجلبها من الشرق، هو أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي التمجروتي المتوفى عام 1129 هـ، الذي اشترى من مكة المكرمة برسم الزاوية الناصرية فرعا من هذه الرواية من 528 ورقة، موزعة بين عشرة أجزاء، مكتوبة بخط شرقي واضح مليح، ووقع الفراغ منها تجاه الكعبة الشريفة عام 1117 هـ، على يد كاتبها إبراهيم المكي بن علي القنصري الحنفي، وهي منقولة من الأصل اليونيني مباشرة، بخط محمد عبد المجيد بن زيد، وكتبه هذا في مدة آخرها يوم الأحد 28 رمضان عام 569 هـ.

وبناء على ما ذكر، نلاحظ أن ما عرف من هذه النسخة بالمغرب، لم يكن إلا عن طريق الفروع المكتوبة أثناء القرن الثاني عشر، مع أن الجزء الذي نتحدث عنه من خزانة القرويين، قد كتب قبل ذلك بسنين متعددة، فهو وإن كان عاريا عن تاريخ النسخ، فإنه على أبعد تقدير، قد كتب قبل سنة 1008، أي قبل سنة تحبيسه من لدن أحمد المنصور تغمده الله برحمته.

والنسخة اليونينية، قد اعتمدت وقوبلت في أصلها على أصول أربعة، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد المنوني في بحثه القيم المنشور بمجلة دعوة الحق العدد الأول من السنة السابعة عشرة مارس 1975.

1 ـ أصل مسموع على أبي ذر الهروي عن طريق أبي العباس أحمد بن الحطيئة.

2 ـ أصل مسموع على عبد الله بن إبراهيم الأصيلي المتوفى سنة 392، وهو أصل يتصل بالفربري عن طريق أبي أحمد الجرجاني، وأبي زيد المروزي.

3 ـ أصل أبي القاسم بن عساكر.

4 ـ أصل مسموع على أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الهروي، الذي تقدمت الإشارة إليه.

هذا، ومن المعلوم أن رواية الأصيلي، قد كان لها أيضا وزن كبير عند رجال الحديث، وقد ذكر الفقيه المنوفي في بحثه المذكور، أن هذه الرواية تحتفظ بها نسختان اثنتان.

الأولى : قطعة من صحيح البخاري تشتمل على أوراق من السفرين الرابع والخامس بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 301 بخط أندلسي، وبآخرها ما ياتي :

كتبه لنفسه علي بن غالب بن محمد بن خزمون الكلبي، وفرغ منه يوم الثلاثاء 12 شوال عام 535، وانتسخه من أصل قوبل بأصل أبي عبد الله بن عتاب، الذي نقله بخطه من نسخة الأصيلي من صحيح البخاري، وقد أشار في التعليق، أن ترجمة ابن حزمون توجد بالذيل والتكملة القسم المنشور في لبنان الجزء الخامس رقم 541، وأن ترجمة ابن عتاب توجد بالصلة.

الثانية : السفر الأخير من صحيح البخاري ابتداء من أواخر كتاب الأدب بخزانة المعهد الأصيل بتارودانت، وجاء في آخره :

تم الديوان بأسره بعون الله ويسره، وذلك في غرة شهر رمضان المعظم من سنة تسعين وأربعمائة، وانتسخه محمد بن عبد الله بن أحمد بن العاصي لنفسه نفعه الله به، وأعانه على فهمه ودرسه، من كتاب قوبل بكتاب الفقيه أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي رحمة الله عليه.

هذا، ويمكننا أن نضيف إلى الإشارتين اللتين ذكرهما الفقيه المنوني إشارة ثالثة، تتعلق بنفس النسخة التي توجد قطعة منها بخزانة ابن يوسف، المكتوبة بخط علي بن غالب الكلبي، المسجلة تحت الرقم 301، فإن بخزانة القرويين، يوجد الجزء السابع من هذه النسخة وهو الأخير، وهو مسجل تحت الرقم 1873، وقد نسخه علي بن غالب المذكور، وفرغ من نسخه بمدينة باغة في شهر ربيع الأول من سنة 536 هجرية، وهو متلاش جدا، والانتفاع به صعب، ومع ذلك، فإن فائدته ترجع إلى كونه من نفس نسخة مراكش، ولا ندري متى تم الفصل بين أجزاء هذه النسخة.

ومن النسخ الصحيحة القيمة الموجودة بخزانة القرويين، نسخة عشرينية مسجلة تحت عدد 956، وقع محو في تحديد تاريخ نسخها ومقابلتها، وهي نسخة عتيقة مقابلة على أصل صحيح عتيق، قرئ على أبي علي الصدفي، وعلى أصل بخط أبي علي الغساني، وقد قرئت على الشيخ أبي عبد الله القصار، كما ثبت ذلك بأحد أجزائها.

وقيمة هذه النسخة، ترجع إلى كونها مقابلة على أصلين عتيقين، أصل الصدفي من جهة، وأصل أبي علي الغساني، الذي كان معروفا بمدينة فاس من جهة أخرى.

ومن القطع العتيقة الموجودة بخزانة القرويين، جزء يبتدئ بحج أبي بكر بالناس إلى آخر كتاب التفسير، مسجل تحت عدد 969، وترجع كتابته إلى أوائل القرن الخامس، وبآخره سماعات على أبي الحسن طاهر بن مفوز بن أحمد بن مفوز، بتاريخ 481 هجرية، وعقبه خطه بالإجازة، وتصحيح السماع، وهو في الأصل من أحباس خزانة جامع الأندلس بفاس.

ومما ينبغي الإشارة إليه، ونحن نتحدث عن المخطوطات الموجودة من صحيح البخاري بخزانة القرويين، أن هناك تداخلا بين بعض النسخ الموزعة على أرقام مختلفة، مع أنها كان من المفروض أن تكون في رقم واحد.

فمن ذلك مثلا، النسخة الخماسية الكاملة التي حبسها القاضي مولاي عبد الهادي العلوي عام 1251 هجرية، نيابة عمن قصد الثواب، فهي في السجل العام موزعة على الأرقام التالية حسب هذه الأجزاء :

- الجزء الأول تحت رقم 59.
- الجزء الثاني تحت رقم 70.
- الجزء الثالث تحت رقم 73.
- الجزء الرابع تحت رقم 62.
- الجزء الخامس تحت رقم 72.

ولقد لاحظ الأستاذ المرحوم محمد العابد الفاسي بعد إطلاعه على هذه الأرقام المختلفة، أن

الـواجب كـان يقتضي إجماعهـا كلهـا تحت رقم 59، وأن يقع تعـويض الأرقـام الأخرى بكتب غيرهـا، إلا أنه قد وافته المنية قبل القيام بهذا التعويض.

ومن ذلك الجزءان اللـذان ينتميـان إلى نسخـة واحدة، وهما الجزء الرابع والخامس، اللـذان كتبهمـا أحمـد بن محمـد بن العربي بن حمـدون الريحـاني، فهما مسجلان تحت عدد 64 و74، وكـان من الأولى تسجيلهما في رقم واحد.

ومن ذلك، سفران من نسخـة حبسهـا أحمـد بن الحسين الشريف السجلمـاسي البـوعنـانـي عـام 1157 هجرية.

السفر الأول : مسجـل تحت عـدد 52، وهـو يحتـوي على الجـزئين الثـالث والعشرين والرابـع والعشرين من نسخة ثلاثينية.

والسفر الثـاني : مسجـل تحت عدد 97، وهـو يمثل الجزء الأخير، وقد كتب في آخره، أنـه نسخـه أحمد بن علي بن سعيد الشهير بابن حجر عام 855.

والظـاهر أن هنـاك خطـأ في كتـابـة هـذا التـاريخ، لأن ابن حجر قد توفي قبل ذلك بثلاث سنين، اللهم إلا إذا كان المراد به شخص آخر، يحمل نفس اللقب ونفس الاسم، ولا يمكن التثبت من ذلك، إلا بمقارنة هـذه الأجزاء بـالخـط الأصلي لابن حجر إذا وجدناه بكتب أخرى.

ومن ذلك، الأجزاء المسجلة تحت عـدد 1625 و1856 و1900، فإنها كلها كانت محبسـة من محبس واحـد، هـو أحمـد بن مبـارك السـوسي على ضريـح سيدي أحمد الشاوي، وذلك في شهر ذي القعـدة من عـام 1168 هجريـة، رغم أن الجـزء الأول مغـاير للجزئين الأخيرين.

ومن ذلـك، الأجزاء المسجلة تحت رقم 1785 و1825 و1895، فـإنها متشـابهـة، وهي تمثل الأجزاء الثلاثة الأخيرة من نسخة رباعية، وقـد كتبهـا محمـد بن علي بن أحمد اليعقوبي الميموني، بأجرة لصاحبه الحاج محمد بن إبراهيم، وذلك في ربيع الثـاني من عام 1281.

وإن مثل هذا التنسيق لمفيـد جـدا في التحقق من أصول هذه النسخ، وفي ربط بعضهـا ببعض، وفي تحديد مـا في الخزانـة من الأجزاء التي يمكن ضمهـا لما يناسبها.

ومن الجـديـر بـالـذكر، أن نشير إلى بعض الفوائد التي أثارت انتباهنا أثناء الاطلاع على هـاتـه المخطوطات، نظرا لما فيها من المتعـة الفكريـة، أو من الطرافـة الاجتمـاعيـة، ويمكن اختصـارهـا في الفوائد التالية :

الفـائـدة الأولى : في ذكر أسماء المحبسين وذكر وجهات تحبيسهم.

إن كثيرا من الكتب تحمـل أسماء المحبسين وتصف حيثيتهم، وهم يمثلون نوعين :

النوع الأول : يتعلق بـالملوك على اختـلاف الدول التي تعاقبت على المغرب منذ تأسيس الخزانة إلى الآن.

النـوع الثـاني : يتعلـق ببعض المحبسين الـذين وقفـوا الكتب، يرجـون من ذلـك الإسهـام في نشر العلم، وتيسير وسـائله، وهؤلاء يمثلـون طـوائف

متعـــددة من أفراد الشعب، بحيث نجـــد فيهم ذوي العلم، وذوي الغنى من الرجال والنساء.

وفيما ياتي، سنذكر الأسماء التي وجدناها على مخطوطـات الجـامع الصحيح من النوعين معـا، سواء كانت محبسة على الخزانة مباشرة، أو كـانت محبسـة على بعض المساجد والزوايا، ثم نقلت للخزانة أثناء تنظيمها من لدن الأوقاف أيام السلطان سيدي محمد بن يوسف، تغمده الله برحمته.

فمن الملوك الـذين أسهموا في تحبيس بعض هذه النسخ حسب الترتيب الزماني :

أولا ـ عبد الحق بن أبي سعيد المريني رقم 94.

ثانيا ـ أحمد الوطاسي رقم 956.

ثالثا ـ أحمد المنصور السعدي رقم 91.

رابعا ـ المولى الرشيد، وتحبيســه في الأصل كان موجها للخزانة التي أسسها بالمسجد الأعظم بفاس الجديد (110. 1659. 1772. 1952).

خامسا ـ المولى عبد اللـه، وهو من أكثر الملوك تحبيسا لصحيح البخاري على هذه الخزانة منذ أيام والده المولى إسماعيل طيب الله ثراه (56. 63. 65. 71. 76. 82. 106. 107. 108. 811. 952. 960. 961. 966. 971. 1909).

سادسا ـ المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله (75).

سابعا ـ المولى سليمان، وتحبيسها في الأصل على خزانة جامع الرصيف (96. 1417. 1418).

وأما ما يتعلق بمطلق المحبسين، فإننا نذكر من بينهم الأسماء الآتية :

أولا ـ أحمد بن مبارك السوسي، الذي حبس نسخة من صحيح البخاري على ضريح سيدي أحمد الشاوي بفاس في ذي القعدة من عام 1168.

وتوجد منها أجزاء مسجلة تحت الأرقام الآتية (1625. 1856. 1900).

ثانيا ـ عبد العزيز الرندة، ويوجد جزءان مما حبسه في الأصل على مسجد الميزاب بأعلى حومة الأقواس من حي الأندلس، وذلك في شهر محرم عام 1214 هجريـــة، وهمـــا مسجلان تحت الرقمين الآتيين : (1605. 1776).

ثالثا ـ السيدة منانة بنت الحاج أحمد اللبار، ويوجد مما حبسته أجزاء تسعة من نسخة على اثني عشر جزءا، مصححة ومقابلة، وهي في الأصل محبسة على مسجد المزدغي بدرب السعود من الجزيرة، وذلك في شهر جمادى الأولى عام 1149 هجرية.

رابعا ـ مولاي مسعود الطاهري، ويوجد جزءان مما حبسه في الأصل على مسجد سيدي عبد الرحمن البياض أسفل عقبة سيدي صوال، وذلك عام 1146 هـ.

وهناك عدد من الكتب التي تعمد المحبسون فيها إهمال أسمائهم، ويقتصرون في صيغة التحبيس على أنها محبسة ممن يرجو الثواب من اللـه، ولا يزيدون شيئا على ذلك.

الفائدة الثانية : تتعلق بنسخ كانت محبسة على كرسي الوعظ، ويدخل في هذه المجموعة الربع الرابع من النسخة المكتوبة عام 845، والمسجلة تحت

عدد 94، فهي محبسة على هذا الكرسي من لدن السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني عام 865 هـ، كما يدرج فيها جزء واحد متوسط غير مرتب الأوراق، يشتمل على أوراق من جزء آخر من نفس الكتاب بخط مغربي، وبهوامشه تعليقات بخط الحافظ أبي العلاء العراقي، وهو مسجل تحت رقم 109.

ويمكننا أن نذكر بهذه المناسبة، أنه كان هناك كرسي بجامع القرويين، مخصص لتقديم صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر، وأنه ما زالت إلى الآن نسخة من هذا الشرح، مسجلة تحت رقم 100، وهو مقسم على ثمانية أجزاء، وقد كتبت بخط مغربي صحيح متقن، هو خط العلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني المتوفى عام 899، وقد نقلها عن نسخة عليها خط المؤلف ومقروءة عليه، وقد قرأ بهذا الفرع التنسي، الشيخ أبو محمد عبد الواحد الونشريسي، ولد صاحب المعيار، ويعرف هذا الفرع بنسخة التنسي، وقد وقع الفراغ من نسخ الجزء الأخير منها في جمادى سنة 888، وهو من تحبيس السلطان أحمد بن محمد بن أبي عبد الله الشيخ الوطاسي عام 939 هـ، ولقد افتخر الفقيه المرحوم السيد عبدالرحمن بن أبي شعيب الدكالي بهذا الصنيع، في محاضرة أرسلها إلى مهرجان مدينة سمرقند المقام نين 20 و23 غشت عام 1974، بمناسبة مرور اثني عشر قرنا على ميلاد أمير المحدثين، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الذي أقامته الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازخستان. وقد نشرت هذه المحاضرة بمجلة دعوة الحق بالعدد التاسع من السنة السادسة عشرة.

الفائدة الثالثة : تتعلق بالورع الذي يتجلى عند بعض العلماء المغاربة، خشية أن يتملكوا كتبا علم عنها أنها محبسة، ويظهر ذلك في استرعائية كتبت بخط الفقيه عبد الواحد بن عاشر، في واجهة السفر المسجل تحت رقم 80، فقد قال فيها :

الحمد لله وحده

يقول عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر لطف الله به :

هذا الجزء الأول من الجامع الصحيح للبخاري، المكتوب هذا على أول ظهر ورقة منه، هو والجزء الثاني بقيا بيدي من عهد والدي رحمه الله، كان رهنه بيده بعض الناس فيما دون ثلاثة أواقي، ثم مات ذلك الشخص، ولم يعلم له وارث.

وأخبرني الشيخ الفقيه العلامة سيدي محمد القصار، أن هذه النسخة من الجامع الصحيح حبس، وأنه يتحقق ذلك، إلا أنه شك هل هي حبس على خزانة القرويين أو الأندلس ؟

قال كاتب الأحرف :

وقيدت هذا على ظهر هذا الجزء، لِئَلاَّ يتوهم أنه ملك لي أو لوالدي، وليبقى عرضة لنظر الناظر، أواسط شعبان عام ست وألف سنة.

الفائدة الرابعة : تتعلق بالمراقبة العفوية للكتب المحبسة، ويتعلق ذلك بالسفر المسجل تحت رقم 106، المكتوب بخط مغربي جيد، ويشتمل

على أوائل الكتاب إلى أبواب صدقة الفطر، فقد عثر عليه بسوق الكتبيين بالقاهرة، ووجه إلى مركزه الأصلي بخزانة القرويين عام 1293، وهو في الأصل من تحبيس السلطان مولاي عبد الله عام 1156.

الفائدة الخامسة : تتعلق باهتمام العلماء بنسخ الكتب ودراستها، دون إهمال واجبهم في الجهاد ومواجهة الأعداء، ويستفاد ذلك مما كتب على الربع الأخير المسجل تحت عدد 67، فهو مكتوب بخط مغربي، لناسخه أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد الجزنائي، الذي فرغ من نسخه في شعبان عام 1117 هجرية، وقال بعد ذكر التاريخ :

وكتب جله بالمحلة الجهادية أيام حصار المسلمين لسبتة.

الفائدة السادسة : تتعلق بكون بعض العلماء والأمراء والنساخ، كانوا يتبركون بنسخ بعض الكتب، ووقفها بعد إتمام نسخها على الخزانة بأنفسهم.

ويتعلق الأمر، بالثلث الثاني من صحيح البخاري، المسجل تحت رقم 90، فهو مكتوب بخط محمد بن عمر بن زيان بن عمر بن علي الوطاسي عام 844، وقد حبسه على الخزانة عام 945، كما يتعلق الأمر بنسخة أربعينية بخطه، نسخ الجزء الأول منها عام 857، والجزء الأربعون اندثر تاريخه، ولعله أواخر 861 هجرية، وقد حبسها على الخزانة في شهر ذي القعدة من عام 861 هجرية.

ومن ذلك، أجزاء من نسخة كتبها محمد بن محمد بن عيسى النقسيس التطاوني الفاسي عام 1090، وحبسها آخر ربيع الأول من نفس السنة.

الفائدة السابعة : تتعلق بتنظيم الخزانة، وأنها كانت تقبل تعويض بعض الكتب إذا ضاعت ممن استعاروها، ويتجلى ذلك في الجزء المسجل تحت رقم 66، المبتدأ بكتاب بدء الخلق، والمنتهي بترجمة كم غزا النبي ﷺ ؟ فقد حبسه محمد بن العباس القرطبي عوضا عما كان عنده، وادعى ضياعه من البخاري، وذلك في ذي القعدة من عام 1311 هـ.

إن الاطلاع على محتويات هذه الفوائد، لَمِمّا يثلج الصدر ويريح النفس، وذلك لأنها تربطنا بروح ثقافية شمولية كانت من عوامل استمرار وجودنا العلمي والديني، ولأنها في الوقت ذاته، تجعلنا نعتز بهذه النسخ المخطوطة من صحيح البخاري بخزانة القرويين، فهي إلى الآن، ما زالت صالحة لتكون من عوامل الربط الروحي بين مختلف المسلمين في كل أنحاء العالم.

فاس - محمد بن عبد العزيز الدباغ

الاجتهاد وضرورته في العصر الحاضر

للأستاذ عبد السلام فيغو
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش

مقدمـــة :

تكفلت الشريعة الإسلامية بتحقيق مصالح الناس في كل زمان ومكان، من حيث إنها خاتمة الشرائع ومصدرها الوحي الإلهي، فنظمت أحكام الدين والدنيا وأحكام المعاملات، وهي شريعة وسطية توفق بين التزامات الإنسان الاجتماعية ونزعاته الذاتية أو أنها توفق بين حاجات الإنسان ومتطلبات محيطه وبيئته الاجتماعية، وبذلك ترضي المجتمع والفرد معا[1] أي إنها قد عنيت ـ فضلا عن القواعد التي تنظم المعتقدات والعبادات ـ بتنظيم علاقات الناس بقواعد وأحكام، وفضائل خلقية، وفي هذا الصدد لم تقنع بالقواعد التي تنظم حالات الأفراد فيما بين بعضهم البعض، وإنما تجاوزت ذلك إلى وضع الأسس الكاملة التي تقوم عليها الدولة.

ولذا كان الفقه الإسلامي بما اشتمل عليه من مرونة وحيوية قادرا على أن يواجه المشاكل، ويعطي الحوادث المتجددة ما يناسبها من أحكام، فلم يعوز المسلمين أن يجدوا في فقههم لكل حادثة حكما يستفاد من الكتاب أو السنة، أو يؤخذ من روح الشريعة وتدبر أغراضها ومقاصدها، وبذلك لم يكن المسلمون بحاجة إلى الالتجاء إلى تشريعات وضعية بعيدة عن دينهم وثقافتهم ومقومات حياتهم.

وقد أدرك كثير من علماء القانون الغربيين ما اشتمل عليه الفقه الإسلامي من مرونة وصلاحية لحل مشاكل الحياة على مختلف ضروبها وتنوع مطالبها، يقول العلامة سانتيلا : «إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني، إن لم نقل إن فيه ما يكفي الإنسانية كلها»[2].

1) محمد أبو زهرة : الإسلام وتقنين الأحكام.

2) نقلا عن (روح الدين الإسلامي) عبد الفتاح طبارة ص : 301، الطبعة الثامنة 1389 هـ 1969 م، دار العلم للملايين، وقد جاءت ملاحظة سانتيلا في مقدمة مشروع القانون المدني والتجاري التونسي.

Avant – projet du code civil et commercial Tunisien.

كما قرر علماء القانون الغربيون في عدة مؤتمرات أن الشريعة الإسلامية تعتبر مصدرا من مصادر التشريع العام، وأنها صالحة للتطور، ومستقلة عن غيرها من الشرائع.

فقد قرر مؤتمر القانون الدولي المقارن الذي انعقد في لاهاي سنة 1932 أن «الشريعة الإسلامية من الأهمية والشأن في علم القوانين الحديثة، ما يستدعي أن يكون في المؤتمرات القادمة قسم خاص لدراسة الشريعة الإسلامية. كمصدر للقانون المقارن».

وفي المؤتمر الدولي الثاني للقانون المقارن الذي عقد في لاهاي أيضا سنة 1937. جاءت قرارات المؤتمر معترفة بمرونة الشريعة وقابليتها للتطور واستقلالها عن غيرها من الشرائع، وصلاحيتها لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن[3].

ويكفي لبيان مكانة الشريعة الإسلامية أن نشير إلى مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الذي عقد بجامعة باريس سنة 1951 برئاسة نقيب المحامين والذي انتهى إلى النتائج الآتية :

1) أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية لا يمارى فيها.

(une valeur indiscutable)

2) أن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمسلمات ومن الأصول الحقوقية، هي مناط الإعجاب، وبها يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجياتها[4].

وقد أوصى الحاضرون بإخراج موسوعة للفقه الإسلامي تعرض فيها المبادئ والنظريات مبوبة تبويبا عصريا، ليسهل على رجال القانون في العالم أن ينتفعوا به.

ولقد كان مما ذكرته هيئة تحرير المجلة الدولية للقانون المقارن :[5] «أنه ليس بالتقدير الهين أن تتبوأ الشريعة الإسلامية مكانها في علم القانون المقارن»[6].

وفي سنة 1966 كتب الأستاذ دافيد R. David من أكبر أساتذة القانون المقارن في فرنسا يقول : «من ضروب الخطإ الاعتقاد ـ كما يظن البعض ـ أن الشريعة الإسلامية في حالة سبات يذكرنا بسكون المقابر وجمودها، فالحقيقة هنالك غير ذلك، فالشريعة الإسلامية لا تزال تعد من الأنظمة الفقهية العظيمة في العالم الحديث»[7].

---

3) بدران أبو العينين بدران : (الشريعة الإسلامية تاريخها ونظرية الملكية والعقود) ص : 2، الناشر، مؤسسة شباب الجامعة. وانظر أيضا عبد الحميد متولي : (الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للدستور) ص : 265، الطبعة الثانية، نشأة المعارف.

4) Ce grand système juridique, implique une richesse de notions juridiques et de technique remarquables.

5) Ce n'est pas un minée mérite d'avoir assigné au droit musulmane sa place dans la science du droit comparé.

6) المجلة الدولية للقانون المقارن. عدد اكتوبر، دجنبر 1951 ص : 661.

7) راجع كتابه :

les grands système de droit contemporains P. 477. Paris 1966.

طبعة باريس 1966.

وقرر عمداء كليات الحقوق بالبلاد العربية في مؤتمرين سنة 1973 ببغداد، وسنة 1975 ببيروت ضرورة الرجوع عن القوانين المتباينة في الدول العربية والعودة إلى الشريعة الإسلامية.

وإنه مما يثير الاعجاب حقا أنه كلما خاض الباحث في أعماق الشريعة الإسلامية كلما ظهر له أن أحدث النظريات التي ينتهي إليها الفقه الغربي الحديث في كل فروع قوانينه وكان للوصول إليها دويّ كبير بدعوى أنها ابتكار في العلم، أن لهذه النظريات أصلا في الفقه الإسلامي، ففي ميدان القانون الخاص الداخلي يحتوي الفقه الإسلامي القانون المدني بجميع فروعه، وهو ما يندمج في معاملات البيع، والإيجار، والرهن، والمساقاة، والهبة، والوديعة، وغير ذلك، وما يتعلق بالأحوال الشخصية وشؤون الأسرة كالزواج والطلاق، والإرث، والنفقة، وقد اهتم بهذا الجانب الفقهاء اهتماما بالغا.

فلما سبق، كانت الحاجة ماسة إلى دراسة الفقه الإسلامي دراسة وافية عميقة تقوم على أسس قوية سليمة لاستجلاء مافيه من نظم، والوقوف على مافيه من كنوز تفي بحاجة الناس وتحل مشكلاتهم.

الإجتهاد وضرورته لاستمرارية الفقه الإسلامي :

يعتبر الاجتهاد هو المحرك الذي أورث الفقه الإسلامي الحيوية والانطلاق والخلود، وهو الذي مد الإنسانية بهذه الثروة الضخمة من الأحكام العملية والنظريات الحقوقية التي لا يكاد يوجد لها نظير في دنيا الحق والقانون. والاجتهاد الفردي حق ثابت في الإسلام لكل من له أهلية النظر والبحث، يستوي فيه الرجل والمرأة والحاكم والمحكوم، وأرباب الوظائف الكبرى وغيرهم ممن لا يشغلون وظيفة، وكما يستوون في ثبوت هذا الحق لهم، يستوون في حق احتمال الخطإ ولا يعرف الإسلام عصمة أحد من الخطإ إلا الرسول فيما يبلغه عن ربه، أما فيما يجتهد فيه فإنه يكون عرضة للخطإ[8].

فالإسلام لا يخص أحدا بحق الاستثناء في تفسير النصوص، ولا بحق إلزام الناس برأيه، بل يمنح هذا الحق لكل مسلم حائز لأهلية البحث، أما من ليست له أهلية البحث، فكان واجبه أن يسأل أرباب الأهلية مما يحتاج إليه، ولا يلزم باتباع شخص معين إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله[9].

وعلى هذا، فليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد وتتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت، ولكن هناك عالما متخصصا يملك أدوات الاجتهاد، وتتحقق فيه شروطه، فهو الذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه الاجتهاد أصاب أو أخطأ[10].

ومن ثم فلا ينبغي القول بخلو عصر من العصور من وجود مجتهد تتوافر فيه شروط الاجتهاد، لأن

8) يراجع في هذه (الإحكام) للآمدي ج 4 ص 291 وما بعدها.

9) محمد شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص 470 طبعة 1959. ـ

10) يوسف القرضاوي : من أجل صحوة راشدة ص 44، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى : 1408 ـ 1988.

طريقة معرفة الأحكام الشرعية هو الاجتهاد، إذ الوقائع متجددة، والحاجة إلى معرفة حكم الله فيها مستمرة في كل زمان ومكان، وشريعة الله خوطب بها الناس في كل العصور، يقول تعالى : ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾(11).

وقد كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على الاجتهاد في المسائل الفقهية إذا لم يجدوا نصا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله، فقد ورد في مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : كيف تقضي إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله، قال : أجتهد رأيي ولاآلو، قال : فضرب صدري فقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله»(12).

كما ورد في سنن الدّارمي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين. وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به(13).

ومن هذا يظهر حرص الصحابة على الاجتهاد في المسائل التي لم يكن فيها نص من كتاب الله ولا سنة رسول الله، وبالتالي فإنهم يجمعون رأيهم على الحكم في تلك المسألة ويفتون بما يظهر لهم أنه الحق والصواب.

فالاجتهاد هو فضل من الله ورحمة، وهو واجب شرعي لكنه واجب كفائي(14).

بمعنى أنه إذا اشتغل في تحصيله إنسان واحد، سقط هذا الفرض عن الجميع حين ذهب جمع إلى أنه لا يجوز خلو الزمان من مجتهد قائم بحجج الله يبين للناس ما نزل إليهم، بل لابد أن يكون في كل

---

(11) الحشر / 2.

(12) مسند الإمام أحمد ج 5 ص 242، الأم 273/7 ط. الشعب، كشف الأسرار 998/2.

(13) سنن الدارمي 53/1.

(14) بل ذهب ابن حزم إلى أبعد من هذا، واعتبر وجوب الاجتهاد على كل مكلف، وتحريم التقليد مهما كان المقلد، حاشا رسول الله ﷺ فإنه واجب تقليده لقوله تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة**﴾ ثم قال ابن حزم : «إن هذه البدعة العظيمة ـ يعني التقليد ـ أنها حدثت في الناس وابتدي بها بعد الأربعين ومائة من تاريخ الهجرة، وبعد أزيد من مائة وثلاثين عاما بعد وفاة النبي ﷺ، وأنه لم يكن قط في الإسلام قبل الوقت الذي ذكرنا مسلم واحد فصاعدا على هذه البدعة».

ثم قال مبينا حكم التقليد : «فالتقليد كله حرام في جميع الشرائع أولها وآخرها من التوحيد والنبوة، والقدر والإيمان، والوعيد، والإمامة، والمفاضلة وجميع العبادات والأحكام» ثم ذكر ما يفعل العامي إذا نزلت به نازلة، فأوجب عليه الاجتهاد بقدر استطاعته قال : «فإن قال قائل فكيف يصنع العامي إذا نزلت به نازلة ؟ قال أبو محمد : فالجواب وبالله = التوفيق : إننا قد بينا تحريم الله للتقليد جملة، ولم يخص

عصر من يقوم بـــه، لأن الاجتهـــاد من فروض الكفاية[15].

أما إذا قصر في تحصيله أهل عصر ما أو الأمة بكاملها فإن أهل ذلك العصر بذلك قد أثموا بتركه وأشرفوا على الهلاك، وتكون الأمة بكاملها آثمة لتركه[16].

فلو خلا عصر من مجتهد يمكن الاستناد إليه في معرفة الأحكام وما جد منها خاصة، أو كان منها ما يتأثر باختلاف العصر والبيئة، لأفضى ذلك إلى تعطيل الشريعة وعدم إمكان تطبيقها فيما يجد من الوقائع، فالمجتمع يتقدم ويتطور، وبتطوره تظهر حاجات جديدة على الدوام، ووقائع جديدة تفرز مشكلات مستجدة لم ترد فيها نصوص خاصة من الكتاب أو السنة، ولا يزعم أحد أن في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حلولا نصية لجميع هذه الحوادث والوقائع، لأن الوقائع غير محدودة ولا متناهية، والنصوص محدودة متناهية. يقول الشاطبي في ذلك : «إن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادا لا تنحصر»[17].

وقد روى ابن القيم في أعلام الموقعين عن علي رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم تمض فيه منك سنة، فقال : «اجمعوا العالمين من المؤمنين، فاجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد»[18].

وبذلك يمكن تنزيل الوقائع المستجدة على أحكام الكليات التي وردت بها النصوص الشرعية، لأن الشريعة الإسلامية تتمتع بمزية المرونة[19] اللامتناهية، والتي تحمل في طياتها الاستجابة لمتطلبات واحتياجات كل عصر ومجتمع.

= الله تعالى بذلك عاميا من عالم، ولا عالما من عامي، وخطاب الله تعالى متوجه إلى كل أحد، فالتقليد حرام على العبد المجلوب من بلده، والعامي والعذراء المخدرة، والراعي في شعف الجبال، كما هو حرام على العالم المتبحر ولا فرق، والاجتهاد في طلب حكم الله تعالى ورسوله عليه السلام في كل ما خص المرء نية لازم لما ذكرنا كلزوم المتبحر ولا فرق، فمن قلد من كل ما ذكرنا فقد عصى الله عز وجل وأثم، ولكنهم يختلفون في كيفية الاجتهاد، فلا يلزم المرء منه إلا مقدار ما يستطيع عليه لقوله تعالى : ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ (أنظر ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ج 6 ص 227 دار الحديث - الطبعة الأولى 1404، 1984).
والواقع أن هذا الموقف الذي وقفه ابن حزم هو موقف يحتاج إلى نظرة نقدية، لأن نظرة ابن حزم هذه وهي تعميم الاجتهاد على العوام سيء إلى الإسلام وشريعته، خصوصا إذا كان الكثير لا يقرأ إلا بصعوبة ولا يستطيع قراءة جملة ضئيلة، فكيف يعمل عقله في الاجتهاد.

15) الشوكاني : إرشاد الفحول ص 253.
16) المستصفى 21/2، الأحكام للآمدي 158/3، إرشاد الفحول ص 223.
17) الشاطبي : المرافقات ج 4 ص 89.
18) ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج 1 ص 60.
19) تتمتع الشريعة الإسلامية بمزية المرونة، حيث نزل الوحي بنوعين من الأحكام التشريعية في نوعين من المسائل، فهناك مسائل لا تتأثر باختلاف الأزمنة والأمكنة والبيئات والعادات، فنزلت قواعدها الأساسية محكمة محددة في القرآن الكريم، وكلف الرسول ﷺ بوحي من ربه أن يفصل للناس هذه الأحكام. يقول تعالى : ﴿**وأنزلت إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ (النحل /44).
والأحكام في هذا النوع من المسائل تسمى بالأحكام القطعية، ومن ذلك أحكام العقائد، والعبادات، والميراث، وأكثر أحكام الأسرة، والجرائم المحددة ذات الخطر على المجتمع وهي = جرائم الحدود والقصاص.

هل يجوز خلو العصر من المجتهد ؟

هل يجوز خلو عصر من العصور من مجتهد ما ؟ الواقع أن النزاع في نظري لا يطرح بالنسبة للمجتهد الجزئي، وإنما يطرح فقط بالنسبة للمجتهد المطلق[20] فقد ذهب الحنابلة[21] وأبو إسحاق وآخرون إلى أنه لا يجوز خلو الزمن من المجتهد المطلق شرعا[22]، ويقررون نتيجة لذلك أن باب الاجتهاد بكل أنواعه مفتوح، وإذا كانت القوى مختلفة والمدارك متباينة، فليس لأحد أن يغلق بابه، وإذا كان الناس جميعا ليسوا أهلا له، بل كل ومداركه، ولكل ما يسر له، فليس لأحد أن يدّعيه إلا إذا كان أهلا[23].

بل إنهم لم يقروا فتحه فقط، بل أوجبوا ألا يخلو عصر مجتهد من المجتهدين. ولقد قال ابن عقيل من فقهاء الحنابلة : «إنه لا يعرف خلافا فيه بين المتقدمين».

وقد أنحى صاحب مُسَلِّم الثبوت بشدة على من قال بانقطاع الاجتهاد المطلق بعد الأئمة، وقال : «وهذا كله هوس من هوساتهم لم يأتوا بدليل، ولا يعبأ بكلامهم، وإنما هم الذين حكم الحديث أنهم افتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، ولم يفهموا أن هذا إخبار بالغيب في خمس لا يعلمهن إلا الله[24].

أما جمهور الفقهاء فهم خلاف ذلك، حيث يرون بجواز خلو عصر من العصور من المجتهدين واستدلوا بحديث : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[25].

إلا أن هذا الحديث لا دلالة فيه على جواز خلو العصر عن مجتهد، ولذلك نشاطر ما ذهب إليه صاحب مسلم الثبوت بأن ذلك هوس من هوساتهم، لم يأتوا بدليل ولا يعبأ بكلامهم، فمن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة على ما تقدم عصره، فقد تجرأ على الله عز وجل، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده، ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة[26].

= وهناك مسائل أخرى من شأنها أنه تتأثر بظروف الزمان والمكان وتختلف باختلاف البيئة والعرف، وبحسب ما تدعو إليه المصلحة في كل منها، اكتفت الشريعة الإسلامية في هذه المسائل بوضع القواعد العامة الكلية المرنة، وتركت الأحكام الفرعية إلى اجتهاد العقل البشري احتراما له ومسايرة للظروف والمصالح، والا لجمدت العقول، ولاصطدمت الشريعة بظروف الزمان والمكان وبمصالح الناس.

20) المقصود بالمجتهد المطلق هو المجتهد المنتسب وهو الذي بلغ رتبة الاجتهاد المطلق بالأخذ من الكتاب والسنة، إلا أنه لم يصل إلى درجة الاستقلال الكامل في تأصيل الأصول الخاصة به، فهو يخرج الأحكام على أصول إمام من أئمة الاجتهاد المطلق كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي وأحمد (انظر المستصفى ج 2 ص 350 وما بعدها).

21) ابن القيم : أعلام الموقعين ج 1 ص 66 ـ 76.

22) استدل الحنابلة وأبو إسحاق بحديث : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» (رواه البخاري) ثم إن الاجتهاد في نظرهم فرض كفاية، فلو خلا الزمان عن المجتهد اجتمع العلماء على الباطل (انظر الشوكاني : في إرشاد الفحول ص 253، شرح مسلم ج 13 ص 68).

23) انظر محمد أبو زهرة : أصول الفقه ص 312.

24) انظر فواتح الرحموت على مسلم الثبوت ج 3 ص 399.

25) متفق عليه.

26) الشوكاني : إرشاد الفحول ص 224.

فالمجتهد المخطئ أفضل عند الله تعالى من المقلد المصيب، لأن الله تعالى ذم التقليد جملة، فالمقلد عاص، والمجتهد مأجور، وليس من اتبع رسول الله ﷺ مقلدا، لأنه فعل ما أمره الله تعالى به، وإنما المقلد من اتبع من دون رسول الله ﷺ، لأنه فعل ما لم يأمره الله تعالى به[27].

شروط الاجتهاد :

أحب أن أذكر هنا أن الشروط التي اشترطها الأصوليون للمجتهد في استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية ليس تحصيلها متعذرا ولا متعسرا كما يوهم البعض الذين يريدون أن يضيقوا ما وسع الله، ويغلقوا بابا فتحه الله لعباده وهو الاجتهاد[28].

فشروط الاجتهاد التي تصورها أهل العلم من المتأخرين شيئا هائلا وأسرفوا في تقييد أنفسهم، وتقييد الناس، وجعلوا هذه الشروط صعبة لا يستطيعها أحد، كثيرة متشعبة لا تكاد تجتمع لأحد، فأغلقوا باب الاجتهاد، وأوجبوا على الناس أن يقلدوا، ثم لم يكتفوا بذلك بل أوجبوا عليهم تقليد فقهاء معينين ينتسبون إليهم، ويزعمون أنهم أولى بالاتباع، ثم عكفوا على كتب لا يعرفون غيرها ولا يعتمدون على سواها، ولا يتلقون شريعة الله إلا منها، وأوجبوا على العالم ألا يقضي ولا يفتي بشيء منها حتى يعرضه على ما تنقله هذه الكتب من أقوال مذهبهم، فإن وافقها جاز الحكم به، وإلا وجب رده وعدم قبوله.

وذهب أكثرهم أن ليس للمتأخر أن يبحث أو يرجح فيما بحثه المتقدم أو رجّحه وإنما عليه أن يتبع، وجاء في فروع باب التعزير من كتاب الدر المختار : «من ارتحل إلى مذهب الشافعي يعزر»[29].

وإذا أردنا أن نعرف الشروط التي اشترطوها وخوفوا الناس بها، وحسبوها شيئا هائلا ونفروا الناس من الاجتهاد، حيث قالوا أن أول شرط من شروط الاجتهاد أن يكون المرء عالما بالكتاب[30]، والسنة[31] ثم جعلوا يضخمون هذا الشرط، فحكوا خلاف العلماء فيما يجب علمه من السنة، فقالوا :

---

27) انظر ابن حزم : المحلى ج 1 ص 88، طبعة دار الفكر.

28) يوسف القرضاوي : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص 107 دار القلم، الكويت.

29) ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ج 4 ص 80. ط. الثانية 1966 دار الفكر.

30) فالقرآن هو كتاب الإسلام، والمصدر الأول لتشريعه وتوجيهه، وهو كلية الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر المسلمة (انظر الموافقات ج 3 ص 346).

وقد صرح الغزالي في المستصفى بأنه لا يشترط معرفة جميع الكتاب بل ما تتعلق به الأحكام وهو مقدار خمسمائة آية (المستصفى ج 2 ص 350)، ونوزع الغزالي مع ذلك في هذا الحصر، فالراسخون من أهل العلم يمكنهم استخراج الأحكام من أي القصص والأمثال، فدعوى الانحصار في هذا المقدار إنما هي باعتبار الظاهر، للقطع بأن في الكتاب العزيز من الآيات التي تستخرج منها الأحكام الشرعية أضعاف أضعاف ذلك بل من له فهم صحيح، وتقدير كامل يستخرج الأحكام من الآيات الواردة لمجرد القصص والأمثال (إرشاد الفحول ص 250 ـ 251).

31) معرفة السنة النبوية لغة وشريعة من الشروط التي يجب على المجتهد أن ينالها ومعرفتها، في المتن، وفي السند، ومعرفة حال الرواة والجرح والتعديل والتمييز الصحيح في السنة من غيره والمقبول من المردود، ومعرفة الناسخ من المنسوخ من الحديث حتى لا يحكم بحديث قد ثبت نسخه وبطل العمل =

ألفان، وقالوا : عشرة آلاف، حتى زعم بعضهم وهو أبو علي الضرير أنه سأل الإمام أحمد بن حنبل كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي ؟ يكفيه مائة ألف، قال : لا، قال : ثلاثمائة ألف، قال : لا، قال : أربعمائة ألف، قال : لا، قال : أيكفيه خمسمائة ألف، قال أرجو[32].

فعلى هذا، فالذي يريد الاجتهاد أمام هذا، سيخاف وسيستصعب الأمر، إلا أن هذا كله كما يقول صاحب التحرير[33] محمول على الاحتياط والتغليظ في الفتيا، فإن الغزالي يقول : «لا يشترط معرفة جميع ما في الكتاب بل ما تتعلق به الأحكام... ولا يشترط حفظها على ظهر قلب، بل أن يكون عالما بمواضعها بحيث يطلب منه الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة، ولا يلزم حفظ السنة على ظهر قلب، بل أن يكون عنده أصل مصحح لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام، ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة»[34].

ويقول الآمدي أيضا : «وأما الاجتهاد في حكم بعض المسائل فيكفي فيه أن يكون عارفا بما يتعلق بتلك المسألة وما لابد منه فيها، ولا يضره في ذلك جهله بما لا تعلق له بها، مما يتعلق بباقي المسائل الفقهية، كما أن المجتهد المطلق قد يكون مجتهدا في المسائل المتكثرة، بالغارتبة الاجتهاد فيها، وإن كان جاهلا ببعض المسائل الخارجة عنها، فإنه ليس من شرط المفتي أن يكون عالما بجميع أحكام المسائل ومداركها، فإن ذلك مما لا يدخل تحت وسع البشر»[35].

فهذا الشرط يعني العلم بالكتاب والسنة بدا عسيرا هائلا، ثم عاد خفيفا هينا. وهكذا بالنسبة للشروط[36] الأخرى التي اشترطوها، فأي شرط يصعب تحقيقه خصوصا ونحن في عصر العلم، والمراجع، والمكتبات، والفهارس، والمذياع، والمؤتمرات العلمية، والصحف، والمجلات، والدراسات المنظمة، وهو لم يقل في عصور كانت

= به كالأحاديث التي رويت في جواز «نكاح المتعة» فقد ثبت نسخها كما يشترط فيه معرفة أسباب ورود الحديث.

32) أعلام الموقعين ج 2 ص 252، الشوكاني : إرشاد الفحول ص 251.

33) الشوكاني : المصدر السابق ص 251.

34) المستصفى ج 2 ص 351، وقد حدد الغزالي وابن العربي والرازي عدد هذه الآيات بمقدار خمسمائة آية.

35) الإحكام في أصول الأحكام ج 4 ص 171 دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية 1406 ـ 1986.

36) يجمع الشاطبي هذه الشروط في براعة رائعة قائلا : «إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين : أحدهما : فهم مقاصد الشريعة على كمالها. والثاني : التمكن من الاستنباط بناء على فهم فيها (الموافقات ج 4 ص 67).

وقد فصل هذه الشروط الأصوليون على النحو التالي :

1 ـ الاستقلال بالعربية.

2 ـ معرفة ما يتعلق بالشريعة في آيات الكتاب والإحاطة بناسخها ومنسوخها، عامها وخارجها.

3 ـ معرفة السنن، فمعظم آي الكتاب لا يستقل دون بيان الرسول ﷺ ثم لا يتقرر الاستقلال إلا بالتبحر في معرفة الرجال.

4 ـ معرفة مذاهب العلماء الماضين.

5 ـ الإحاطة بطرق القياس، ومراتب الأدلة.

6 ـ الورع والتقوى. (أصول خلاف ص 256).

العلوم فيه ناشئة، وكان العلماء يرحلون للحديث الواحد من بلاد إلى بلاد. يقول الحجوي الثعالبي في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي بعد أن نقل عن ابن عبد السلام[37] قوله : ومواد الاجتهاد في زماننا أيسر في زمن المتقدمين لو أراد الله الهداية[38] :

ومثله ابن عرفة[39] كما نقله الأبي[40] في شرح مسلم قال : واعلم أن الاجتهاد اليوم في القرن الرابع عشر أيسر مما كان في زمن الأبي وابن عرفة ومن قبلهما بسبب أهل الفضل الذين اعتنوا بالمطابع، وطبعوا الكتب المعينة على الاجتهاد، وأن ظهور الطباعة نقل العلم من طور إلى طور، وقد كان المتقدمون يعانون مشاق عظيمة في كتب الكتب، ويحتاجون لمادة مالية وزمن طويل، أما بعد ظهور الطباعة عندنا في أواسط القرن الماضي (الثالث عشر الهجري) فقد تيسر ما كان عسيرا... إلا أنها وجدت الأمة في التأخر، والفقه في الاضحلال، والهمم في جمود، فكأننا لم نستفد منها شيئا، فإذا قسنا ما استفدناه منها، ودرجة الرقي التي حصلت لفقهائنا بالنسبة لما حصل في زمن المأمون العباسي من النشاط العلمي بسبب ظهور (الكاغد) (الورق) حكمنا بأننا لم نتقدم خطوة تعتبر، وتناسب ما تقدمه غيرنا من الأمم، ورغما عن ذلك فقد وجدت كتبا كانت أعز من بعض الأنوق، وانتشرت ولا سيما في الحديث[41] «فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل دون خلاف، ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم الشريعة على ما تقدم عصره فقط، فقد تجرأ على الله، ثم على الشريعة الموضوعة للعباد، ثم على العباد الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة، فالوسائل في هذا الزمن لطالب العلم ولمن يريد البحث في النوازل متوفرة وميسرة أكثر وأوفر من العصور السابقة، لأن المطابع قد أخرجت كتبا لا تعد ولا تحصى في العلوم والفنون جميعا، ونظمت العلوم وجعلت لها الأشباه والنظائر، فليس بعسير اليوم الأخذ بالدليل.

---

37) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام التونسي الهواري قاضي الجماعة، حافظ متبحر في العلوم العقلية والنقلية، تولى التدريس والفتوى والقضاء (شجرة النور ص 210).

38) يقول ابن عبد السلام من المالكية في كتابه شرح مختصر ابن الحاجب في باب القضاء : «ان رتبة الاجتهاد مقدور على تحصيلها، وهي شرط الفتوى والقضاء وهي موجودة إلى الزمن الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام بانقطاع العلم، ولم نصل إليه إلى الآن، وإلا كانت الأمة مجتمعة على الخطإ وذلك باطل» قال السيوطي معلقا على هذه العبارة : «فانظر كيف صرح بأن رتبة الاجتهاد غير متعذرة، وأنها باقية إلى زمانه، وبأنه يلزم من فقدها اجتماع الأمة على الباطل وهو محال (الرد على من أخلد إلى الأرض ص 24).

39) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، ولد سنة 716 هـ كان مفتيا وخطيبا بجامع الزيتونة مشتغلا بالتدريس والعبادة متفننا في العلوم حافظا للمذهب المالكي ضابطا لقواعده، انتهت إليه رئاسة المذهب في آخر عمره توفي سنة 803 هـ. من مؤلفاته «مختصر في الفقه» و«الحدود الفقهية» (الديباج ص 337، شجرة النور ص 227)، الفكر السامي ج 4 ص 84).

40) هو محمد بن خلفة بن عمر التونسي الوشتاني اشتهر بالأبي أخذ عن الإمام ابن عرفة ولازمه، له «إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم» غلب عليه ذكر التعريفات الفقهية ولا سيما المالكية، وشرح المدونة، وله نظم، توفي سنة 828 هـ (شجرة النور ص 244، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 287).

41) الحجوي الثعالبي الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ج 2 ص 439، 441.

إلا أنه مع ذلك لابد من وضع معايير وضوابط للاجتهاد حتى لا يصبح مجالا لأدعياء الاجتهاد الذين يملكون الجرأة والاستهانة بالأصول وإتيان البيوت من غير أبوابها[42].

فإذا كان الاتفاق منعقدا على أن التجديد أمر لابد منه، لأنه استجابة لمطلب ديني، فقد قال الرسول ﷺ : «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة أمر دينها»[43].

حيث يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو، وأن دينها لن يموت، وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية - قَرْنٍ من الزمان - من يجدد شبابها ويحيي مواتها.

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر، مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء.

وعلى هذا، فالتجديد أمر لابد منه، لأن المسلمين في كل عصر يواجهون قضايا ومشكلات وحوادث ووقائع جديدة تتطلب فكرا جديدا وعلما جديدا، على أن الدعوة إلى التجديد ينبغي أن تقترن بالتنبيه إلى شيء خطير يلتبس بالتجديد وليس منه، هذا الشيء هو الانحرافات الفكرية باسم التجديد، فقد رأينا من يفهم التجديد بأنه تفسير مزاجي للقرآن الكريم، أو أنه هدم للسنة المطهرة، أو أنه تلفيق بين حقائق الإسلام وبين نظريات علمية ظنية الدلالة بل موهمة الدلالة.

وحسما لهذه الفوضى لابد من وضع ضوابط ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر نجملها في النقط التالية :

1) البعد عن منطقة «القطعيات» فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنيا من الأحكام، أي أنه يجب التقيد بالأحكام التي مصادرها نصوص قطعية الثبوت[44]، فلا مجال للاجتهاد في كل نص قرآني صريح مفسر بصيغته، وبما ألحقه الشارع به من بيان، كما لا يجوز ذلك بالنسبة للسنة المتواترة المفسرة[45]، فمثل هذه الأحكام يجب على كل مسلم أن يتبعها دون اختلاف فيها، أو التقنين بما يخالفها. ولهذا فلا يجوز الانسياق وراء المتلاعبين الذين يريدون أن يحولوا القطعي إلى ظني والمحكم إلى متشابه، وبذلك لا يبقى لنا أي معول نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه، إذ لا مساغ للاجتهاد في مورد النص.

2) وكما لا يجوز تحويل القطعي إلى ظني، يجب عدم تحويل الظني إلى قطعي، وزعم الإجماع

---

42) انظر يوسف القرضاوي : كتاب الأُمة ج 2 ص 160 ط. الأولى.

43) رواه أبو داود في سننه برقم 4270، والحاكم في مستدركه في الفتن 522/4، والبيهقي في معرفة السنن والآثار ص 52، والخطيب في تاريخ بغداد ج 2، ص 61، كما ذكر الألباني في سلسلة الصحيحة رقم 599.

44) عبد الوهاب خلاف : مصادر التشريع الإسلامي ص 11 والمقصود بالدليل القطعي هو ما ليس فيه احتمال آخر أصلا غير المعنى المتبادر إلى الذهن فور سماعه.

45) زكرياء البرديسي : أصول الفقه ص : 459، الطبعة الثالثة 1389/1969 دار النهضة العربية.

فيما ثبت فيه خلاف، أي أنه بالنسبة للأحكام المستمدة من النصوص ظنية الدلالة فإنه لا يجوز الاجتهاد فيها إلا في حدود تفهم النص وترجيح أحد معانيه، وما يترجح للمجتهد يكون هو حكم الله في الواقعة على ما غلب عليه ظنه، فيكون على هذا الاجتهاد في تعيين المراد من النص الظني الدلالة الذي يحتمل أكثر من معنى.

3) يخشى الدكتور يوسف القرضاوي الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة والاستسلام للأمر الواقع في المجتمعات المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلط وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل في غفلة من أهل الحق الأصيل الذي لدى المسلمين، لهذا يجب رفع ذلك النوع من الاجتهاد - إن صح أن يسمى اجتهادا - وهو اجتهاد (التبرير للواقع) واجتهاد (التقليد للآخرين) كاجتهاد الذي يحاولون منع الطلاق، وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الربوية وغيرها.

4) يجب على المجتهد التخلص من الخوف بكل ألوانه وخاصة الخوف من سلطان الجامدين المقلدين من العلماء.

5) يجب إفساح الصدور للاجتهاد، وإن خالف ما تمت النشأة عليه من آراء، وتوقع الخطإ من المجتهد، وعدم الضيق به ذرعا، لأنه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسب خطأ هو الصواب بعينه، ورب رأي رفضه جمهور الناس يوما ثم أصبح بعد ذلك هو الرأي المقبول والمرتضى[46].

تلك هي المعالم والضوابط الضرورية التي ينبغي أن يراعيها الاجتهاد في عصرنا الحافل بشتى التيارات والمؤثرات.

وفي ختام هذا الموضوع يجب ألا ننسى أننا في القرن الخامس عشر الهجري، لا في القرن العاشر أو الثامن ولا ما قبله، وأن لنا حاجاتنا ومشكلاتنا التي لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة وخلفها، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا، لا أن يجتهد قوم لنا ماتوا قبلنا بعدة قرون، ولو أنهم عاشوا عصرنا اليوم وعانوا ما عانينا، لرجعوا عن كثير من أقوالهم، وغيروا كثيرا من اجتهاداتهم لأنها قيلت لزمانهم، وليس لزماننا، فكيف بعصر وقد تغير فيه كل شيء، بعد عصر الانقلاب الصناعي، ثم عصر التقدم التكنولوجي، عصر غزو الكواكب و«الكومبيوتر» وثورة البيولوجيا التي تكاد تغير مستقبل الإنسان.

إن الاجتهاد الذي ننشده وندعو إليه يمثل حاجة بل ضرورة لحياتنا الإسلامية، وعلاج مشكلاتنا المعاصرة، وإلا أصيبت حياتنا بالجمود والعفن.

وقد روي عن أبي حنيفة أنه قال : «هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحدا عليه ولا نقول يجب على

46) انظر فصل معالم وضوابط لاجتهاد ومعاصر قويم من كتاب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي ص : 173 وما بعدها.

أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحق منه فليات به»[47].

إن المسلمين في أشد الحاجة إلى الاجتهاد والمجتهدين، أكثر من قبل، وهذا إذا أريد للفقه الإسلامي أن يحيى وأن تعود إليه صورته المشرقة الذي كان الطريق الوحيد لحل مشاكل الأمم الإسلامية قاطبة أكثر من ثلاثة عشر قرنا، كان الإسلام فيها بين قوة وضعف إلى أن تسلط أعداؤه على أكثر ممالكه ودوله، فكان الغزو العسكري، ثم التشريعي، ثم الفكري حتى قال المستشرق جب يصف هذه الحقيقة : «كانت الفكرة التي قامت عليها الثورة في كل ناحية من العالم الإسلامي هي نفس الفكرة التي أدت إلى ذلك الخراب الذي حدث في أوربا، وهي فكرة فصل الدين عن الدولة [48].

ولهذا فلا مجال للتقاعس عن الاجتهاد بأي صورة كانت سواء كان اجتهادا فرديا أو اجتهادا جماعيا، فلا بد أن يجتهد علماؤنا المؤهلون لكي يسير هذا المجتمع الإسلامي إلى أن تقوم الساعة، وهذا يحتم ألا يقف أمر التشريع عن الأمور والظواهر التي كانت في القرون الأولى والتي ظهرت بشأنها فتاوى، وإنما يحتاج الأمر دائما إلى مواكبة ما يجد في المجتمع من أمور اقتصادية وسياسية وتشريعية بما يلائمها من أحكام إسلامية دقيقة وصحيحة.

اعتماد القضاء على الفقه الإسلامي :

إذا ما ترسخت لدينا فكرة ضرورة الاجتهاد في التشريع الإسلامي، فهذا يعني أن القضاء الذي يرتكز في بنيانه الأساسي على الاجتهاد يقوم بدور كبير في مجال إغناء الثروة الفقهية عن طريق الأحكام المستندة إلى الكتاب والسنة، والتي من المفترض أن تعالج لكل ما يعرض من مسائل في حياة المجتمعات وتطورها.

ولقد اعتمد القضاء بشكل أساسي خلال عصوره المختلفة على الفقه الإسلامي على حدود ما تسمح به الشريعة من الاجتهادات في أحكامها وموضوعاتها، وهذا ما أدى إلى وجود أحكام كثيرة وثروة فقهية ضخمة ما زالت تعتبر حتى العصر الحاضر من المصادر التي يرجع إليها في تشريع الأحكام، وحل ما يستجد من حوادث. وقد اشترط الماوردي فيمن يتولى القضاء الاجتهاد بشروطه المعروفة، لأن القاضي مضطر للاجتهاد حتى يصل إلى حل ما يعرض له من مشكلات[49].

والمقصود بالاجتهاد هنا أن يكون غير جاهل لقوله ﷺ «القضاة ثلاثة : اثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على

---

47) ابن عبد البر : الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاث ص 14 دار الكتب العلمية، بيروت.

48) جب وآخرون : وجهة الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده 1934 ص 52 وما بعدها.

49) الماوردي : الأحكام السلطانية ص 61 وما بعدها.

جهل فهو في النار» فالجاهل لا يعرف حكم الله فهو في مرتبة المنحرف عن إقرار حكم الله، ويؤيد ذلك أن الرسول ﷺ لما بعث معاذا بن جبل قاضيا إلى اليمن قال له : بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله، قال : فإن لم تجد، قال : بسنة رسول الله، قال : فإن لم تجد، قال : أجتهد رأيي ولا آلو، فأيده الرسول ﷺ.

ولما كانت شروط الاجتهاد قاسية، ويتعذر توافرها في المرشحين للقضاء، فإن تولية غير المجتهد تعتبر صحيحة، يقول الغزالي : «إن اشتراط الاجتهاد متعذر في عصرنا لخلو العصر من المجتهد، فالوجه تنفيذ قضاء كل من ولاه سلطان ذو شوكة وإن كان جاهلا...»[50].

وإذا حكم القاضي في مسألة اجتهادية بحكم، ثم تغير اجتهاده، أو وجد اجتهادا بعد فترة مخالفا للأول فهل ينقض حكمه أم لا ؟

أجاب الأصوليون عن هذا بأنه لا ينقض حكمه، وإنما يستأنف الحكم في القضايا المماثلة على الاجتهاد الثاني[51].

هذا وليس للحاكم أو قاض آخر أن ينقض هذا الحكم أيضا، غير أنه يحكم بما أداه إليه اجتهاده في مثل هذه المسائل والقضايا[52] والسبب في ذلك هو الحرص على استقرار الأحكام ونفاذها وعدم تعطيلها مما يولد الأمن والطمأنينة في نفوس الحاكمين، يقول الآمدي في هذا : «لا يجوز نقض حكم الحاكم في المسائل الاجتهادية بمصلحة الحكم، فإنه لو جاز نقض حكم إما بتغير اجتهاده، أو بحكم حاكم آخر لا يمكن نقض الحكم بالنقض، ونقض نقض النقض إلى غير نهاية، ويلزم من ذلك اضطراب الأحكام وعدم الوثوق بحكم الحاكم، وهو خلاف المصلحة التي نصب الحاكم لها»[53].

مراكش ـ عبد السلام فيغو

---

50) انظر : المستصفى ج 2 ص 383.

51) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطي ص 104، مختصر ابن الحاجب ج 2 ص 300، الأحكام للآمدي ج 4 ص 203، جمع الجوامع ج 2 ص 408.

52) الأشباه والنظائر لابن نجيم ج / ص : 141.

53) الإحكام ج 4 ص 203، وانظر المستصفى ج 2 ص 383.

الإشتراك
وأثره في الاستنباط والاختلاف
في الفقه الإسلامي

للأستاذ المهدي الوافي
قيدوم كلية اللغة العربية بمراكش

تمهيد :

ذكر العلامة الراغب أن للفظ مع المعنى خمس حالات نجملها عنه فيما يلي :

ـ الحالة الأولى :

«أن يتفقا في اللفظ والمعنى» كالإنسان يستعمل في نحو خالد وسعيد. وهذا يسمى «المتواطئ».

ـ الحالة الثانية :

«أن يختلفا في اللفظ والمعنى» كرجل، وفرس، وهذا يسمى : «المتباين».

ـ الحالة الثالثة :

«أن يتفقا في المعنى دون اللفظ» ويسمى هذا النوع «بالمترادف».

ـ الحالة الرابعة :

«أن يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى» ويسمى هذا النوع «بالمشترك»، كما يسمى «بالمتفق».

ـ الحالة الخامسة :

«أن يتفقا في بعض اللفظ وبعض المعنى» كضارب، وضرب. ويسمى هذا النوع «بالمشتق».

وقد حقق القرافي حينما تعرض لتعريف المتواطئ أنه «اللفظ الموضوع لمعنى كلي، مستوفى محاله كالرجل»، مبينا أن اللفظ الموضوع لمعنى كلي غير متساو في محاله، كالنور بالنسبة للسراج والشمس لا يسمى متواطئا، وإنما يسمى : «مشككا».

وبهذا الاعتبار عرف المشكك قائلا : إنه «اللفظ الموضوع لمعنى كلي مختلف في محاله...».

وقد أوضح أن المتواطئ مشتق من التواطؤ أي التوافق يقال : تواطأ القوم على شيء بمعنى اتفقوا عليه. ووجه المناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي واضح.

وأوضح القرافي أيضا أن المشكك يؤول إلى الشك فهو يشكك الناظر فيه : أهو مشترك، أم متواطئ ؟ فهو باعتبار إطلاقه على المختلفات إلى المشترك أقرب، وباعتبار أن مسماه واحد هو متواطئ.

أما المتباين فهو من البين بمعنى الافتراق والبعد. ووجه المناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي واضح.

وفي مرتقى الوصول، لابن عاصم :

اللفظ والمعنى إذا تعددا
معا تباين كراح واغتدى
وفي اتحاد متواط إن ظهر
فيه التساوي مثل أرض وشجر
ومع تفاوت لديه باد
مشكك كالنور والسواد
وما به المعنى فقط تعددا
كالعين فهو الاشتراك وردا
وما يرى لنوع ذا يخالف
كالبر والقمح هو المرادف

وإلى هذه الأقسام أشار الأخضري في «السلم» بقوله :

ونسبة الألفاظ للمعاني
خمسة أقسام بلا نقصان
تواطؤ تشاكك تخالف
والاشتراك عكس الترادف

الاشتراك بين اللغويين والأصوليين

أولا : الاشتراك عند اللغويين :

أثبت جل الباحثين اللغويين - سواء منهم القدماء والمحدثون - ظاهرة الاشتراك في اللغة العربية، على أن بعض الباحثين المعاصرين يرى أنه يوجد في بعض اللغات الأخرى.

وقد أشار إليه سيبويه، وألف فيه تآليف مستقلة : الأصمعي، والخليل، وسيبويه، وأبو عبيدة، وآخرون. واعترف بوقوعه في اللغة العربية ابن فارس، وابن جني.

ويرى الدكتور أنيس أنه «لا معنى لإنكار المشترك اللفظي مع ما روي لنا من الأساليب الصحيحة من أمثلة كثيرة لا يتطرق إليها الشك».

فهو - حسب تعبير بعض الباحثين المعاصرين - : «واقع ملموس، وحقيقة لا خيال، وكثير لا قليل».

وهو - كما قال ابن فارس - : «أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر».

وقد أشرت سابقا إلى أن جل الباحثين أثبت هذه الظاهرة. وحكى السيوطي الاختلاف فيه، مبينا أن الأكثرين على إمكان وقوعه «لجواز أن يقع إما من واضعين، بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى، ثم يضعه الآخر لمعنى آخر... وإما من وضع واحد...».

ومن الباحثين اللغويين من أوجب وقوعه، معللا ذلك بأن «المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية، فإذا وزع لزم الاشتراك».

ويرى بعض اللغويين أن هذه الظاهرة أغلب، معللا ذلك بأن الحروف جميعا مشتركة - كما قرره النحاة - والأفعال الماضية مشتركة بين الدعاء والخبر، والمضارع مشترك بين الحال والاستقبال، والأسماء جاءت فيها هذه الظاهرة كثيرا، وبسبب كل ذلك يكون الاشتراك أغلب ومع ذلك قرروا أن هذه الظاهرة خلاف الأصل.

ورغم إقرار بعض الباحثين المعاصرين ما قرره اللغويون قديما من أن هذه الظاهرة خلاف الأصل يضيف إلى ذلك ما يلي :

«لكنه ورد بأساليب فصيحة لا سبيل إلى إنكارها، سواء ورد من واضع واحد أو من واضعين، أو بسبب اختلاف لهجات القبائل، أو النقل والمجاز من لغة واحدة، أو لغتين ثم مات المجاز، أو بسبب تطور صوتي».

وقد تعرض اللغويون إلى أسباب ظاهرة الاشتراك بالشرح والتفصيل، كما أعطوا كثيرا من الأمثلة والشواهد على هذه الظاهرة.

ولا نتعرض الآن لتفصيل أسباب الاشتراك عند اللغويين إذ سيقع بحثها حين التعرض لظاهرة الاشتراك عند الأصوليين. وقد جاءت تلك الأسباب مجملة في النص الذي نقلته قريبا ففيه الغناء عن بحثها عند اللغويين.

وبعض الباحثين الذين ينفون ظاهرة الاشتراك يجعلون الدليل على ذلك الاستعمال المجازي للكلمة المدعى فيها الاشتراك. وهذا ليس دليلا صحيحا، إذ المجاز لا يتنافى والاشتراك. ومعروف أن المراد بالمجاز هنا معناه الواسع ومع ذلك فإن المعنى الأصلي ينسى. وقد قرر بعض الباحثين أن المجاز لم يكن مستقرا حتى القرن السادس، مستدلا بأن جار الله الزمخشري حينما ألف كتابه «الأساس» لبيان الحقيقة والمجاز كانت ضوابطه لا تخلو من نقص وعدم ضبط، بدليل استدراك الحافظ ابن حجر عليه في «الغراس» كثيرا. وقد عد فيه بعض الكلمات مجازا وهي عند الزمخشري حقيقة، كما عد فيه بعض الكلمات حقيقة وهي عند الزمخشري من قبيل المجاز.

وقد أضاف هذا الباحث إلى ما لخصناه عنه قائلا : «وإذا فاستقرار المجاز بالمعنى المستقر في أذهان النافين للمشترك اللفظي - بناء على دعوى المجاز - لم يكن موجودا حتى وقت قريب. فعلى أي أساس نفى النافون وجوده، بعد أن أقره العلماء وألفوا في أصرح قسميه وهو الأضداد ؟ الحق أنه لا حق معهم».

أمثلة وشواهد للاشتراك

1 - لفظ عين : جاءت هذه الكلمة بمعنى الباصرة، وبمعنى الذهب، وبمعنى الشمس، والقبلة، والجاسوس، وعين الجيش بمعنى الطليعة، ورئيس القوم. وللسبكي قصيدة جمع فيها غالب معاني كلمة : «عين» أوصلها إلى نحو سبعين معنى. وللسجاعي أيضا قصيدة جمع فيها عدة معان لها. ومنها :

أيـــا ظبى الفـــلا وكحيـــل عين
ويـــا بـــدر الـــدجى وضيـــاء عين
حميت من المكـــاره يـــا غـــزالا
حـوى كـل الكمـــال بـــدون عين

ثم قال :

دعـــانـــا للهـــدايـــة نعم طـــه
رســول قـــد أبـــان لطرق عين
أمين سيـــد مـــا فيـــه غـــك
بـــه تهـــدى الأنـــام بكـل عين
لـــه ذات خلت عن كـــل ســوء
وقلب قـــد خـــلا من شين عين
سما فـوق السمـــاء ونـــال قربـــا
وخـــاطب ربـــه وحظى بعين
جميـــل النفس والأفعـــال قطعـــا
صفى خـــالص من قبـــح عين
أذاع الخير فينـــــا كـــل وقت
وعـــوذ أمـــــة من شر عين
يقيم شريعـــــة غراء فينـــــا
بهـــا كم قـــد هـــدى من كـل عين

ومن الطرائف قول بعض الأدباء :

ملكت العين فـــــاكحلهـــــا
بطلعتهـــــا ومجراهـــــا

فقد جمع فيـه بين أربع معان لكلمـة (عين) على طريقـة الاستخـدام إذ ذكرهـا في أول البيت (ملكت العين) بمعنى الذهب، وأعـاد عليهـا الضمير، بقولـه : (فـاكحلها) بمعنى البـاصرة، ثم أعـاد عليها الضمير بمعنى الشمس في قـولـه : (بطلعتهـا) وبمعنى عين الماء في قوله : (ومجراها).

2 ـ ومن الألفـــاظ المشتركـــة : كلمـــة : «الخـال» التي جـاءت لعدة معـان منهـا أخو الأم، والسحـابـة السـوداء. والنكتـة السـوداء في الجســد، و«الرجـل الحسن القيام على العيـال». وقد ذكر لها ثعلب في أماليه نحو ثلاثين معنى.

3 ـ ومن الألفاظ المشتركة : كلمة : «نحب». وقد نظم بعض الأدباء أهم معانيها في أبيات أقتصر منها على الأبيات الآتية :

مغرم قـــد قضى من الشـــوق نحبـــه
وهـــو لم يقض في المحبـــة نحبـــه
وامتطى نحبه فهيجه النحب إلى إلفه فواصل نحبه
يـــا لصب عراه نحب فـــأضنى
جسمـــه نحبـــه وشرد نحبـــه

4 ـ ومن الألفاظ المشتركة : كلمة (غروب) :

(غروب) :

ذكر اللغويون أن للغرب عدة إطلاقات.

منها :

ـ الدلو الكبيرة، مملوءة أو فارغة.

ـ والغرب بمعنى الـــدمع، وبمعنى العين، وبمعنى الحدة. ومنه قول عائشة رضي الله عنها تصف زينب رضي الله عنها :

«كل خلالها محمودة ما عدا سورة من غرب كانت فيها» أي حدة.

ـ ويطلق الغرب على النشاط والحركة، وعلى سرعة الجري.

ـ ومن معـانيهـا : الـذهب، والفضـة، ونـوع من الشجر، وجهة الغرب في مقابل الشرق.

- ومن معاني الغرب «الوهدة المنخفضة من الأرض».

ومن الطرائف قول الخليل بن أحمد :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى
إذ رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا
ودمع عيني كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة
تفتر عن مثل أقاحي الغروب

فالغروب في البيت الأول بمعنى غروب الشمس، والغروب في البيت الثاني جمع لغرب بمعنى الدلو. والغروب في البيت الثالث جمع لغرب بمعنى «الوهدة المنخفضة من الأرض».

5 - ومن المشترك : كلمة «عجوز» التي جاءت لعدة معان : منها : الأسد، والبقرة، والمرأة المسنة، والأرنب، والضبع، والعقرب، والفرس، وأحد أسماء الخمر، وبمعنى الشمس...

وقد عد بعض اللغويين معانيها فأوصلها إلى سبع وسبعين.

وقال الفيروزبادي : إنه عدَّلها ما ينيف على الثمانين.

ولابن أصبغ اللغوي قصيدة تشتمل على ثمانية وعشرين بيتا ضمنها معاني لفظ «عجوز» وقد أوصل تلك المعاني إلى اثنين وستين معنى. وشرح هذه القصيدة أبو حيان الأندلسي مؤلف «البحر المحيط». وقد استدرك على ابن أصبغ : ابن معصوم أبياتا أخرى استوفى فيها ما جاء ناقصا عند ابن أصبغ.

واقتصر من استدراك ابن معصوم على البيت التالي :

وكم أمسى عجوز في عجوز
بمرتبة أجل من العجوز

6 - ومن أمثلته : كلمة «أمة» : فمن معانيها : الجيل من الناس، والحين، ومنه قوله تعالى : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، والدين، والعالم، والقامة والإمام الذي يقتدى به، ومنه قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله...﴾ والأمة بمعنى الجماعة، وبمعنى الملة.

7 - ومن أمثلته : كلمة «خليل» : ونقتصر منها على معنين من معانيها فقد جاءت في العربية بمعنى الصديق، وجاءت بمعنى الفقير. ومن المعنى الثاني قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة
يقول لا غائب مالي ولا حرم

8 - ومن المشترك : الألفاظ التي وضعت للشيء وضده. وهو ما يعرف بالأضداد. وقد ألفت في هذا النوع تآليف مستقلة. ومن أمثلته : الجون للأبيض والأسود، والغابر للزمن الماضي وغيره، والجلل للعظيم والحقير. فمن الأول قول الشاعر :

قومي هم قتلوا أميم أخي
فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا
ولئن سطوت لأوهنن عظمي

ومن الثاني قول الطغرائي :

فقلت أدعوك للجلى لتنصرني
وأنت تخذلني في الحادث الجلل

ثانيا : الاشتراك عند الأُصوليين :

تناول علماء الأُصول بحث الاشتراك من حيث تعريفه، ووقوعه أو عدم وقوعه، وبيان أسبابه، وكونه سببا من أسباب اختلاف المجتهدين...

والمشترك أصله المشترك فيه، لأن الصيغة مشترك فيها. وهو ـ كما في كشف الأسرار ـ : «اللفظة الموضوعة لحقيقتين مختلفتين أو أكثر، وضعا أولا، من حيث هما مختلفان».

وقريب من تعريف الشوكاني في إرشاد الفحول وهو : «اللفظة الموضوعة لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعا أولا» وكلمة «وضعا أولا» لإخراج المنقول.

وقد جاء في التعريفين السابقين «اللفظة الموضوعة لحقيقتين» ومعنى ذلك أن المراد إطلاق اللفظ على حقيقتين، فليس من قبيل المشترك أن يكون اللفظ يطلق على أحد المعنيين حقيقة، وعلى المعنى الآخر مجازا.

وقد اختلف علماء الأُصول في وقوع المشترك وعدم وقوعه. والذي يرى عدم وقوعه يعلل رأيه بأن الألفاظ إنما توضع لتحديد المعاني وفهمها، فإذا كان اللفظ قد وضع لمعنيين أو عدة معان حسب من ينكر وقوعه في اللغة قلما يفهم المراد منهما أو منها إذا لم تكن هناك قرينة، بالإضافة إلى أن وقوع الاشتراك ـ حسب هذا الرأي ـ ينتج عنه إجمال وإبهام طالما أنه لم يبين.

وقد اختار القاضي البيضاوي أنه ممكن واقع. وقال ابن الحاجب : إنه «جائز وواقع عند المحققين».

والأصح أنه جاء في القرآن الكريم كما حكاه ابن الحاجب، والعضد في شرحه لمختصر المنتهى الأُصولي، لابن الحاجب.

ورغم جوازه ووقوعه في اللغة العربية فهو خلاف الأصل. ومعنى ذلك أنه إذا دار الأمر بين الاشتراك وعدمه، فإن الأغلب على الظن عدم الأخذ به، لأن الاشتراك يؤدي إلى الإخلال بالفهم بالنسبة للمخاطب. وقد يتعذر على السامع الاستفسار إما لحياء، أو لهيبة المتكلم، أو لغير ذلك من الأسباب وربما حمله على غير المراد فيقع في الجهل حتى قيل : «إن المشترك سبب أعظم في وقوع الأغلاط».

ومن الوجوه التي استدل بها أيضا على أن الاشتراك خلاف الأصل أن الاستقراء يدل على أن الكلمات المشتركة أقل من الكلمات المفردة. والكثرة تفيد ظن الرجحان.

قال أحد الباحثين المعاصرين :

«ومن ألفاظ اللغة ما تمرد على التغير والتطور فبقي على حالته يطلق على أكثر من معنى، وهي الألفاظ المشتركة، وتتصف تلك الألفاظ بالندرة في اللغة العربية إذا قيست بالألفاظ المترادفة».

أمثلة وشواهد للمشترك

ومن أمثلة المشترك في كتب الأصول : لفظ عين، وكذلك كلمة : «قرء» للحيض والطهر، وعسعس

الليل بمعنى : أقبل وأدبر. ومنه في القرآن الكريم قضى بمعنى : حتم، كقوله تعالى : ﴿**فيمسك التي قضى عليها الموت**﴾، وقضى بمعنى : أمر في قوله تعالى : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ وبمعنى : أعلم، كقوله تعالى : ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب...**﴾، وبمعنى : صنع، كقوله تعالى : ﴿**فاقض ما أنت قاض**﴾.

وذكر بعض الأصوليين أن المشترك يكون إسما كالقرء للطهر والحيض، ويكون فعلا كعسعس الليل، وحرفا كمن الجارة التي تكون للابتداء والتبعيض، وغيرهما من المعاني.

أسباب الاشتراك

وقد بين علماء الأصول أسباب الاشتراك ونجمل أهمها - بإيجاز - فيما يلي :

السبب الأول : «اختلاف الوضع بين القبائل العربية» : ومعنى ذلك أن تضع إحدى القبائل العربية اللفظ لمعنى، وتضعه قبيلة أخرى لمعنى آخر. وقد لا يكون بين المعنيين أية مناسبة ثم ينقل اللفظ بواسطة المصادر اللغوية مستعملا في المعنيين من غير نص على اختلاف الواضع.

السبب الثاني : أن يوضع اللفظ لمعنى حقيقي، ثم يستعمل في معنى آخر مجازي لعلاقة بين المعنيين : الحقيقي، والمجازي، ويشتهر بعد ذلك استعمال اللفظ في المعنى المجازي، ومع طول الزمان ينسى التجوز، وبذلك يصبح الإطلاق حقيقة عرفية فيه، وينقل اللفظ إلى أبناء اللسان العربي على أنه حقيقة في المعنيين معا.

السبب الثالث : أن يكون اللفظ قد وضع لمعنى مشترك بين معنيين أو معاني بسبب وجود معنى جامع بينهما أو بينها. ومع توالي الزمان، وطول العهد ينسى المعنى الجامع. وآنذاك تصبح الكلمة من قبيل المشترك اللفظي، ومن ذلك كلمة : «قرء» التي هي في الأصل اللغوي : «اسم لكل وقت اعتيد فيه أمر خاص» فقد قالوا للحمى : «قرء» بمعنى دور معتاد تأتي فيه، وقالوا للمرأة «قرء» يقصدون أن لها وقتا تحيض فيه، ووقتا تطهر فيه، كما قالوا للثريا : «قرء» يقصدون أن لها وقتا اعتيد فيه معها نزول المطر.

الاشتراك سبب من أسباب اختلاف الفقهاء في الاستنباط

تمهيد :

سلف القول بأن الاشتراك خلاف الأصل، ومعنى ذلك أن اللفظ إذا احتمل الاشتراك وعدمه، فإن عدم الاشتراك يرجح على وجوده.

وإذا ثبت الاشتراك فإن المجتهد يكون أمام إحدى الحالتين التاليتين :

الحالة الأولى :

أن يكون للفظ المشترك معنيان : أحدهما لغوي، والآخر اصطلاحي شرعي. ومن أمثلة ذلك : ألفاظ الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والطلاق، وما شابهها. ففي هذه الحالة يتعين حمل اللفظ على معناه الاصطلاحي الشرعي.

وهذا ما لم تكن هناك قرينة تصرفه إلى المعنى اللغوي، وإلا حمل عليه. كقوله تعالى :

﴿إن اللــه ومـلائكتــه يصلــون على النبيء يـا أيهـا الـذين آمنـوا صلـوا عليـه وسلمـوا تسليما﴾.

فالقرينة هنا تجعل كلمة «الصلاة» مرادا بها المعنى اللغوي وهو الدعاء، دون المعنى الاصطلاحي الشرعي وهو الأقوال والأفعال التي تبدأ بالتكبير وتختم بالتسليم.

الحالة الثانية :

أن يكون اللفظ مشتركا بين معنيين أو معان لغوية «وليس للشارع عرف خاص» يعين أحد المعاني التي وضع لها اللفظ المشترك. ففي هذه الحالة يجب على المجتهد تعيين المعنى المراد، مستعينا بالقرائن، وحكم التشريع، ومقاصده.

والآن نعطي أمثلة تطبيقية هي ثمرات هذا البحث يتبين بها مدى اختلاف المجتهدين في الفقه الإسلامي، نتيجة اختلافهم في تعيين المراد باللفظ المشترك في النصوص التشريعية كالآتي :

أولا : قوله تعالى : **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾**. فكلمة : «قرء» - كما سبق القول - وردت في اللسان العربي بمعنى الحيض، كما وردت بمعنى الطهر. فمن ورودها بمعنى الحيض قول النبي ﷺ في حديثه عن المستحاضة : (تدع الصلاة أيام أقرائها) أي أيام حيضها.

ومن ورودها بمعنى الطهر قول الأعشى :

أفي كل عام أنت جاشم غزوة
تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة ما لا وفي الحي رفعة
لما ضاع فيها من قروء نسائكا

«أي من أطهارهن بسبب الغزو».

قال الشريف التلمساني :

«والدليل على ثبوت الاشتراك بين المعنيين لغة : اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك، وهم أهل اللغة».

وبسبب ما ذكر اختلف المجتهدون في المراد بالقرء في الآية، فمنهم من رأى أن المراد به الطهر، ومنهم من رأى أنه الحيض. وقد رجح كل من الفريقين رأيه بمرجحات ونوضح ذلك فيما يلي :

أ - ذهب إلى أن المراد بالقرء في الآية الطهر : مالك، والشافعي، وأحمد في رواية، وداود، وأبو ثور، وهو مروى عن : عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وقتادة، والزهري، وأبان، ونقل عن الفقهاء السبعة.

والحجة لهذا الرأي :

1 - تأنيث اسم العدد وهو ثلاثة يدل - كما هو القاعدة المقررة في العربية - على أن المعدود مذكر. وهذا ما يرجح أن المراد بالقرء في الآية المذكورة : الطهر، إذ هو المذكر، لا الحيضة، إذ لو كان المقصود الحيض أو الحيضات لجيء بلفظ ثلاثة مذكرا لا مؤنثا، جريا على القاعدة المقررة في علم العربية.

2 - أيدوا رأيهم بما ذكره ابن الأنباري وخلاصته أن القرء إذا جمع على قروء - كما في الآية السابقة - يكون معناه الطهر، وإذا جمع على

إقراء كما في الحديث السابق يكون معناه الحيض. وإن كان مفردا يحتمل المعنيين : الحيض، والطهر. وقد رد الحنفية هذا قائلين :

«لو صح هذا لما اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك، فإنهم أهل اللغة، وأعرف بها، فلما اختلفوا دل ذلك على بقاء الاحتمال حالة الجمع، كما كان حالة الإفراد».

3 ـ أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾ وقد أمر عليه الصلاة والسلام أن يكون الطلاق وقت الطهر فالمعتبر في العدة هو الطهر.

ومعنى : ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾ لوقت عدتهن وهو الوقت المأمور بالطلاق فيه من طرف رسول الله ﷺ. ومعنى : ﴿**وأحصوا العدة**﴾، ما تعتد به المطلقة ألا وهو الطهر كما قال النبي ﷺ : «فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء» وهذا ما يرجح أن يكون المراد بالقرء في الآية : الطهر.

ب ـ ويرى آخرون أن المراد بالقرء في الآية الحيض. وهذا الرأي منقول عن : الخلفاء الراشدين، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، وابن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وهو رأي كثير من الصحابة، وبه قال جمهور التابعين، وبه أخذ أبو حنيفة، وأحمد في رواية، والحسن البصري، والأوزاعي، والثوري، والحسن بن صالح، وهو مذهب العترة.

وقد أيدوا رأيهم بما يلي :

1 ـ قوله ﷺ في المستحاضة : «تدع الصلاة أيام أقرائها» فهم يرون أن استعمال القرء في الحيض هنا مما يدل على تخصيص القرء بالحيض، دون الطهر في عرف الشريعة.

ويؤيد ذلك ـ حسب رأيهم ـ قوله تعالى : ﴿**واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر**﴾ «حيث جعل الاعتداد بالأشهر مكان الاعتداد بالحيض الميؤوس منه، وفي ذلك دلالة على أن الحيض هو المعتبر في العدة، لا الطهر».

2 ـ أن الحكمة من تشريع العدة هو التعرف على براءة الرحم وخلوه من الحمل حتى لا تختلط الأنساب، والذي يبين ذلك هو الحيض، لا الطهر.

قال الأستاذ علي الخفيف :

«ذلك مما رجح به كل فريق رأيه، ولم يكن الخلاف بينهم إلا بسبب استعمال اللفظ المشترك، فكان من ذلك اختلافهم في الحكم».

ويترتب على هذا الاختلاف عدة مسائل منها ما يلي :

• ـ زمن انتهاء العدة : فبالنسبة لتفسير القرء بالطهر تنتهي عدة المرأة إذا دخلت في الحيضة الثالثة. أما بالنسبة لمن فسره بالحيض فإنها تنتهي بالدخول في الطهر الرابع.

• ـ بالنسبة لحل الزواج : يحل للمرأة الزواج من زوج آخر إذا دخلت في الحيضة الثالثة حسب تفسير القرء بالطهر، وبعد انتهاء الحيضة الثالثة حسب تفسيره بالحيض.

ثانيا : ومن ثمرات التطبيق من أجل الاختلاف بسبب استعمال اللفظ المشترك اختلافهم في قوله تعالى : ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون**

الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض...﴾ فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن «أو» للتخيير، ومن أجل ذلك قالوا : إن ولي الأمر مخير بالنسبة لهذه العقوبات، إذ له أن يعاقب المحارب بأيها شاء من القتل، والصلب، والقطع، والنفي على حسب اجتهاده، وما تقتضيه المصلحة... وقد روي هذا القول عن : ابن عباس، والحسن البصري، وعطاء، وأبي ثور، وابن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، والضحاك، والنخعي، وهو رأي الإمام مالك وداود.

ويرى آخرون أن «أو» للتفصيل، ومن أجل ذلك قالوا : إن على الإمام إقامة الحد على المحارب بقدر فعله «فمن أخاف السبيل وأخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف»، ومن جمع بين أخذ المال والقتل قطعت يده، ورجله، ثم صلب، ومن قتل من دون أخذ مال قتل، أما من أخاف السبيل دون أن يأخذ مالا أو يقتل، فإنه ينفى.

ثالثا : ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾. فالواو في قوله تعالى : **﴿وإنه لفسق﴾** لفظ مشترك إذ الواو وضعت للحال، كما وضعت للاستئناف. وبسبب ذلك اختلف حكم الآية فمن جعل من المجتهدين الواو للحال فهم أن الآية تنهى عن أكل الذبيحة التي لم يذكر عليها اسم الله، بل ذكر اسم الصنم عليها والحال أنها فسق، وهذه هي حال العرب، وبناء على ذلك فإن النهي في الآية مخصوص بهذه الحالة، وليس مطلقا.

وبناء على هذا الرأي يجوز أكل الذبيحة التي لم يذكر عليها اسم الله ما عدا في حالة واحدة وهي التي ترك ذكر اسم الله عليها، لكن ذكر عليها اسم الصنم. وقد رجح مالك وأصحابه، والشافعية أنها للحال.

ويرى الحنفية أن الواو للاستئناف وهي تفيد ابتداء معنى جديد ولا تقيد العام بحالة واحدة كما مر معنا بالنسبة للرأي الأول.

وبناء على هذا الرأي يكون النهي في الآية عاما باقيا على عمومه وعليه فيحرم أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها مطلقا وإن لم يذكر عليها اسم الصنم.

وبذلك يتضح اختلاف الحكم بالنسبة لمتروك التسمية عمدا حسب الرأيين السابقين. فهو جائز الأكل حسب الرأي الأول، وحرام حسب الرأي الثاني. إذ «الترك عمدا في ذاته فسق». - حسب هذا الرأي.

رابعا : ومن ذلك لفظ (النكاح) في قوله عز وجل : **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾** فقد حمل جماعة من المجتهدين النكاح على الوطء. وبناء على هذا الرأي يحرم على الابن التزوج بالمرأة التي زنى بها أبوه، وقد أيدوا رأيهم بقوله تعالى بعد ذلك : **﴿إنه كان فاحشة ومقتا﴾** الذي يناسب الفعل، لا العقد. وقد نقل هذا الرأي عن : الأوزاعي، والثوري، والحنفية، والإمام أحمد.

ويرى آخرون أن المراد بالنكاح في الآية : العقد وبناء على ذلك لا يحرم على الابن تزوج المرأة التي زنى بها أبوه.

وقد أيدوا رأيهم بقوله ﷺ : «الحرام لا يحرم الحلال».

وهذا الرأي قال به ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وأبو ثور، والمالكية، والشافعية.

خامسا : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**وامسحوا برؤوسكم**﴾ فقد اختلف المجتهدون في الباء في قوله : ﴿**برؤوسكم**﴾ فمن جعل الباء زائدة أوجب مسح جميع الرأس. وهو رأي الإمام مالك. ومن قال : إن الباء للتبعيض أوجب مسح بعضه وهو رأي الإمامين : أبي حنيفة، والشافعي.

قال ابن رشد :

«وأصل الاختلاف في هذا : الاشتراك الذي في الباء في كلام العرب».

مراكش ـ المهدي الوافي



الدراسة والتدريس في عصر الخلافة

للدكتور إبراهيم حركات

كيف كان وضع الدراسة والتدريس في عصر الخلافة ؟ وما هو موقع الدروس الشعبية ؟ ما هي طرق التدريس والمقومات البيداغوجية للتحصيل والتجاوب بين الطلاب والأساتذة ؟ وما هو دور الكتاب في مجال الدراسة ؟ وما نقط التمايز بين المدرسة والمسجد ؟

هذه الأسئلة وغيرها، تحاول هذه الدراسة أن تجيب عنها قدر الإمكان، بالنسبة لفترة تميزت بعطاء ثقافي وعلمي تبدأ مراحله الأولى من الكُتّاب، وتنتهي بالمدرسة والمسجد. وهكذا يخرج التلميذ من الكُتّاب فإما أن يلتحق صغيرا بمهنة أو يواصل دراسته، وبوجه عام يتعين أن يمر من حلقات المسجد قبل أن يستكمل تخصصه بالمدرسة إذا اتجه إلى الفقه، فمهمة المدارس الأساسية كانت تكوين الفقهاء حتى ولو تلقى الطلاب مواد أخرى، وهناك من يستمر في التلقي بالمسجد حسب اختياره. والطالب في المدرسة تحت رقابة إدارية. أما بالمسجد ففي الغالب يتمتع بحرية مطلقة في الحضور والتخلف، وحتى في تغيير الحلقة أو المادة، ولو أن هذا لا يرتاح إليه المدرسون.

ما هو هدف الدراسة ؟ إنه ليس الحصول على معارف كافية من أجل تحقيق ذاتي للثقافة بالضرورة. ومعنى هذا أن هدف الطلاب لم يكن دائما هو اكتساب العلم من أجل العلم، ولو جاز هذا لخلت الإدارة الإسلامية من الإطارات الإدارية، ولكان القضاء والطب والجيش وغيرها من مقومات النظام الديني والاجتماعي والسياسي تحت رحمة أميين. لكن ميزة طلاب الماضي الذين لهم هدف محدد في الحياة العامة أن يحرصوا على تقوية معارفهم العامة بالإضافة إلى الجانب العلمي المرتبط مباشرة بهدفهم العملي، أما المعارف العامة لدى الأجيال الحالية فتظل غالبا دون القدر الكافي شكلا ومضمونا، لأن تعدد العلوم والفنون واستعجال مرحلة التخصص يجعل المعارف المكتسبة أشتاتا ونتفا نادرا ما يكتب لها أن تَنمَّى. وغالب الطلاب يقطعون

صلتهم بالمعرفة الجادة عند خروجهم إلى الحياة العامة مع تعقدها.

وفي أواخر القرن الأول وضع الحسن البصري الذي قضى الشطر الأكبر من حياته العملية في التدريس والمناظرة، تصنيفا لطلاب العلم حسب أهدافهم وطريقتهم حيث يرى أنهم ثلاث فئات :

1 ـ فئة تدرس بقصد تعلم طريقة الجدل والمناظرة وبالتالي تدخل في متاهات الإيديولوجيات، والجشع يقودها والورع يجانبها.

2 ـ فئة تدرس لتغامر مع المخادعين والمتملقين وتعيش على فتات من تنافقهم وتتملق إليهم.

3 ـ فئة التفقه والعقل وهذه تقرن العلم بالتقوى وقيام الليل وتنظر إلى الأقران بتحفظ حتى لا تخالطهم في ميدان التنافس والطمع.

وهذا التصنيف الذي أعيدت صيغته هنا زيادة في التوضيح، صالح إلى حد، ليطبق على الشطر الأول من العصر الوسيط عندما كان للفئة الأولى قوة يحسب لها حسابها. وقد تنقصه الدقة إذا راعينا أن في هذه الفئة من درسوا الجدل والمذاهب وهم في العبادة والنزاهة غير الذين وصفهم الحسن البصري من نفس الفئة. ثم إن تأثير الأساتذة سلوكا وتعايشا وتشويقا من حيث الطريقة وجاذبيتها، يؤخذ أيضا بعين الاعتبار في توجيه الطلاب واتجاههم. فقد كان في الأساتذة من يستأثر بالطلاب لوقت طويل فيلازمونه لسعة معارفه وتنوعها ولاستحسانهم طريقته. وقد زار عالم حنبلي القيروان في القرن الثالث فحضر دعوة عامة بأحد المنازل. ولاحظ أن جماعة من المدعوين انشغلوا وقتا بقراءة القرآن والتفسير، ثم أخذوا يتناظرون في مسائل علمية. ولما كان أول الليل قاموا للصلاة والتهجد، فسأل الحنبلي عن الجماعة وعرف أنهم من أصحاب الفقيه الكبير سحنون.

ولم تكن كل المساجد تقدم دروسا عامة، فقد كانت المساجد الرئيسية تستأثر غالبا بهذه الحلقات إلا ما ندر. ثم إن المراكز الصغرى والبوادي ليس بها ما يكفي من الأوقاف المخصصة لنشر المعرفة، ولذلك كان بناء المدارس وحتى الخوانق والزوايا بالمدن الكبرى عونا للطلاب الوافدين من خارجها. وإذا كانت المدارس تتوفر على كراسي لتدريس مادة أو مواد معينة، فقد كانت الكراسي بأقطار المغرب تخصص لدراسة كتب بعينها كصحيح البخاري أو رسالة أبي زيد القيرواني أو كتاب سيبويه، وقد تتغير الصورة نادرا هنا أو هناك. والمساجد الكبرى خصوصا، لا تخلو من كراسي موقوفة، غير الدروس التي تعطى تطوعا أو بتشجيع من الدولة أو مصالح الأوقاف.

وإذا كان المسجد مفتوحا للدارسين والفئات الشعبية، فإن الدروس ليست كلها في مستوى هذه الفئات. ولذلك تخصص دروس للوعظ والإرشاد يكون لها تأثير على السامعين كلما أحسن الأستاذ أو المرشد اختيار الموضوع والطريقة، وكان هو نفسه مثال الاستقامة. وقد تكون المواظبة على هذا النوع من الدروس سبيلا إلى الاستفادة من حلقات الدروس الأخرى كالتفسير والحديث ثم باقي المواد : فهناك

حرفيون وأميون كثيرون ارتقوا بهذه الطريقة إلى صف العلماء أو الأدباء بعد كدّ وملازمة، ولذلك يرى ابن الحاج أن المسجد خير مكان لتلقي المعرفة أو تلقينها، وهناك يستطيع المدرس أن يؤدي مهمته التي هي إما إظهار سنة أو إخماد بدعة أو تعليم حكم من أحكام الله. كما أن الدروس الشعبية يحسن أن تبدأ مباشرة بعد طلوع الصبح وتنتهي مع الضحى ليتمكن من له عمل أن يتوجه لمزاولته. وإذا اعتمد التدريس بالنسبة لهذه الفئة على كتب بعينها فينبغي تبسيط العبارة وتسهيل التبليغ. وقد أثبت ابن الحاج أن عددا من الشعبيين في عصره كانوا إذا توجهوا إلى أعمالهم ناقشوا مسائل الفقه بينهم وربما أحرجوا بعض الأساتذة بأسئلتهم ومناقشاتهم. أما حضور النساء فيختلف أمره حسب الجهات والمساجد. فبعضها يفرد فيه النساء بحاجز لا يمنع وصول صوت المدرس، وبعضها يسمح للنساء بالجلوس منفردات وراء الرجال، وبعضها الآخر يمنع حضور المرأة في الدروس مع الرجال.

أما الإشعاع المعرفي على عهد الفاطميين فقد كان تدخل الدولة فيما يتعلق بمذهبها قويا، وهناك دعاة مختصون وأساتذة فقهاء في المذهب، ودروس تعطى لوجوه كتابه وغيرهم داخل القصر وبحضور العاهل. وتحاط بعض التوجيهات والمعارف بالسرية ويضيق محيطها داخل الأسرة الحاكمة نفسها لأن الفاطميين تشبثوا بمؤلفات تتناول الغيبيات وعنوا عناية خاصة بالتنجيم، وقد أتت جهودهم وجهود الإسماعيليين أكلها عبر المساجد وبوسائل مختلفة، خصوصا مع تهميش علماء السنة، غير أن الجهود المضادة بإفريقية بعد قطيعتها مع الفاطميين حسمت الموقف لصالح السنة.

ووضع المربون قواعد لسلوك المدرس وممارسة نشاطه. ويرى الغزالي أن على المدرس أن يتعامل مع الدارسين بحنان الوالد على أبنائه، وأن لا يطلب أجرا على عمله. وبهذا الصدد، ندّد الغزالي ببعض الذين يتملقون السلطة ويبذلون المال للحصول على جرايات. ومن جهة أخرى فهو يلح في أن يكون زجر الدارس في حالة سوء أخلاق، بالتعريض والتلميح لا بالتصريح، وليس للمدرس أن يقبح في وجه الطالب علوما أخرى لا يقوم بتدريسها، وعليه أن يسير على قدر المستوى العقلي لطلابه حتى لا ينفرهم أو يحول بين عقولهم والمعارف التي تلقى إليهم. وأخيرا يجب أن يكون المدرس نفسه قدوة للدارس، مراعاة للآية الكريمة : ﴿**أتامرون الناس بالبروتنسون أنفسكم**﴾. ووضعت قواعد للتدريس تتناول الحوار مع الطلاب والسائلين ووقت إلقاء أسئلتهم، وحق هؤلاء في الاعتراض وحتى في مناقشة بعضهم بعضا وما إلى ذلك.

وكانت تعيينات أساتذة الكراسي تنص على عدد من الالتزامات التي يطوق بها الأستاذ خصوصا في المجال التربوي وطريقة التدريس، بما في ذلك المرونة والبشاشة في التعامل، وتشجيع الطلاب باستحسان أفكارهم وأجوبتهم، وهذا يصدق حتى على عامة الناس من غير الطلاب. ويتضمن نص التعيين توجيهات تتناول مادة تخصص الأستاذ.

وكانت الطرق المتبعة في التدريس هي :

1 ـ الرواية، وهي تبليغ الأحاديث والأقوال والأخبار والمعلومات التي رواها الأستاذ بالتواتر عن سابقيه حتى تصل إلى أصلها أو قائلها الأصلي، واتبعت هذه الطريقة في الأجيال الأولى على أوسع نطاق. واستمرت في الحديث النبوي قرونا متتالية.

2 ـ الإملاء، وهو أن يملي المدرس على السامعين من محفوظاته أو من كتبه وربما من مصنفات غيره.

3 ـ القراءة المباشرة من كتاب، وهذه اتبعها عدد من الوعاظ ومن يلقون الدروس الشعبية وكانوا يدعون بالقاصين.

4 ـ التقرير، وهو أن يكون الانطلاق من نص ثم يتبع بشرح المدرس وتفريعاته وتفصيلاته. أو يتناول سلسلة من الموضوعات يعالجها من غير رجوع إلى مؤلف مكتوب، لكن الجانب الأول من التقرير كان أغلب بأقطار المغرب وإن لم تخل منه حلقات المشرق. واتسع نطاق طريقة التقرير خصوصا منذ القرن الثالث ثم القرون اللاحقة مع انتشار الكتب واستنساخها لتمكين الدارسين من تمتين دراستهم المسموعة. وكيفما كان الأمر فقد اعتاد الطلبة أن يسجلوا كتابة أهم النقط التي يعالجها الأستاذ، لكن بشكل غير منسق.

وفي إطار هذه الطرق يحتفظ كل أستاذ بخصوصياته في إضفاء هذه الصورة أو تلك على سير طريقته، وكنموذج لذلك كان إبراهيم الكجي يملي درسه برحبة غسان بالبصرة (خلال القرن 3). وكان يملي على سبعة هم أقرب السامعين إليه ثم يبلغ كل منهم الذي يليه وهكذا. وقد قدرت حلقته بنحو أربعين ألفا، ومهما كان من المبالغة في هذا الرقم فقد كان التبليغ بالإملاء يتطلب وقتا طويلا بالنظر للطريقة المتبعة وكبر العدد.

ويعتبر الحفظ أداة أساسية لتراكم المعلومات ورسوخها في الذهن واستعمالها كما هي غالبا من غير جهد في الاستقراء والمقارنة واستخلاص النتائج والأحكام، ومن غير تجديد في الشكل والمضمون، ويأتي القرآن الكريم على رأس لائحة المحفوظات لأن الصبيان ملزمون بحفظه كلا أو بعضا في الكتاتيب حسب قوة حافظتهم ومدة دراستهم بالكتاتيب، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يحدد العطاء على قدر المحفوظ من القرآن، لكن القرآن يرتبط بممارسة الشعائر ويؤهل الحافظ لمعرفة اللغة العربية. أما حفظ كتب في النحو أو البلاغة وغيرها فقد كان شيئا مضنيا ولا يؤهل الدارس بالضرورة للتحرير والابداع والبحث المركز. وقد كان ثعلب وهو لغوي بارز، غزير الحفظ مطلعا على مذهب الفراء والكسائي، وهو لا يزيد في مستوى تحريره لرسالة على أسلوب العامة. وكان هناك من يحفظ كتب الأدب وحتى كتاب سبويه على ضخامته وصعوبته. وكثيرون كانت لهم حافظة خارقة. فقد ذكر ابن العطار الهمذاني (قرن 6) أنه حفظ كتاب (الجمل في النحو) لعبد القاهر الجرجاني في يوم واحد، وحفظ ثلاثين ورقة في القراءات خلال يوم واحد. وحفظ شرف الدين الدمياطي (قرن 7) كتاب (التنبيه في الفقه) لأبي إسحق الشيرازي. وأورد المقري عن أحد العلماء، أنه «كان آخر الحفاظ

للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهرا، لا يخل بحفظ شيء منها» وعرف الحسن بن الخطير المشهور بالظهير، بحفظ عدد كبير من الكتب في شتى المواد. وكان الموحدون يلزمون أنصارهم بحفظ رسائل ابن تومرت ومؤلفاته وهم الذين قرروا القراءة الجماعية للقرآن بمساجد المغرب الإسلامي ولا زال العمل جاريا بها حتى الآن، وبلغ أمر الموحدين من هوسهم بشأن الحفظ أن حملوا طلبة اشبيلية على حفظ قصيدة لعبد المومن، الخليفة الموحدي.

ومن الأساتذة من يكتفون بمحفوظاتهم، وقد يحسنون التصرف فيها وهم قلة، ومن يعود بالضرورة إلى مطالعة أكثر ما يمكن من الكتب أو صفحاتها التي تتصل بدروسه، وهذه هي الفئة الغالبة خصوصا في القرون المتأخرة. ولما كانت بعض النصوص تحظى بإقبال كبير كالموطأ وكتاب الشفا لعياض فإن عشرات الشروح قد صنفت فيها. وهذا يعني أن عددا من المدرسين كانوا يتجنبون تكرار الاعتماد على نفس الشرح المتعارف عدة أجيال. وغالب الأساتذة يتوفرون على خزانتهم الخاصة صغر حجمها أم كبر. بل إن عالما أندلسيا هو محمد السلمي المرسي (قرن 7) تنقل طالبا ثم مدرسا بين عدد من الأقطار والمراكز الإسلامية الشرقية، وكان له بكل جهة كتب يستعملها لكثرة تنقلاته بينها. وكان العالم الآبلي يكره للطالب أن يرجع إلى المؤلفات ويهمل الرحلة من أجل الدراسة، بل كان ضد نظام الدراسة بالمدارس، فبالنسبة إلى تناقص أعداد المهاجرين للدراسة في عهد الآبلي يعلله المقري الجد (قرن 8) بأن الرحلة تكلف مالا طائلا ولا يحصل الطالب إلا على مستوى يناسب قدر تعبه ومدة دراسته وما لديه من مال ثم إن الكتب تكاثرت وتقاعس عدد كبير من الطلاب بسببها عن الرحلة. أما نظام المدارس فإن الطلاب ينظرون إلى مزاياها المادية دون أن يأخذوا بعين الاعتبار أن انصرافهم بعدها إلى الوظائف الرسمية قد يصرفهم عن الدراسة الجادة الطويلة النفس، وربما كان تقهقر المعارف الفقهية بالأندلس يعود بالذات إلى قلة مدارسها. وهذا بالنسبة للقرن الثامن الذي تقلصت فيه الرقعة الإسلامية هناك، لكن هذا لم يمنع من وجود حركة علمية واسعة بالشمال الإفريقي في هذه المرحلة بالذات، بل إن القرن الثامن أفضل فترة ازدهرت فيها المعرفة والثقافة بالشمال الإفريقي خلال العصر الوسيط كلة خلافا لما يكرره ابن خلدون من كساد سوق العلم بأقطار المغرب وهو يعلم بل يسجل بنفسه أن أربعمائة عالم من علماء المغربين الأقصى والأوسط صحبوا أبا الحسن المريني إلى إفريقية. ولو كانت طرائق التعليم بهذه المنطقة غير جيدة لَمَا نبغ أمثال ابن البناء والبسطي والآبلي وعشرات غيرهم، ولَمَا لمع نجم ابن خلدون الذي تلقى عن هؤلاء بالذات مباشرة أو عن طريق مؤلفاتهم.

ويرى الغزالي أن الطالب ينبغي أن يدرس العلوم واحدا واحدا فلا ينتقل من علم إلى آخر إلا بعد إتقان سابقه، وقد تابعه ابن خلدون في هذا مع أن الغزالي يرى أنه لا توجد حواجز مطلقة بين العلوم فبينها قناطر تصل بعضها ببعض. غير أنه ما دام الأمر كذلك فإن فكرة التدرج من علم إلى علم هي أنسب للتخصص العالي منها إلى مرحلة

القناطر المتوازية، والتي لا مناص منها قبل التخصص الدقيق وهو أولى بالتنقل من علم إلى علم لمن استطاع.

ويحبذ الشاطبي وكثيرون غيره كأبي الحسن الشاري السبتي وابن خروف القرطبي الرجوع إلى كتب المتقدمين بوصفها أصولا لما بعدها، ويلغون كتب المتأخرين حتى ولو كان فيها الجيد. وقد تميز المشرق بالاهتمام بالعلوم العقلية حتى بعد مرحلة التمزق السياسي الذي شهده العالم الإسلامي. ونوه ابن خلدون بنشاط كل من عراق العجم (إيران) وما وراء النهر ومصر في مجال هذه العلوم.

وكان على من يريد من الدارسين، الوصول إلى مناصب دينية كبرى كالفتوى، الإلمام بعدد كبير من أمهات الكتب والطرق المذهبية لدى المراكز الإسلامية الكبرى فيفني الدارس بذلك عمره قبل أن يعتبر مؤهلا... وهكذا كانت الجهات المختصة تضحي بمصلحة الدارس في كثير من الأحيان، رغبة في المحافظة على مستوى المعرفة الإسلامية اللازمة، عندما يتعلق الأمر بمصلحة عامة.

وتعوض الأسئلة والحوار بين المستمع والمدرس، نقص الطريقة التقريرية التي يفرط فيها كثير من المدرسين. غير أن بعض الأسئلة قد تكون محرجة وخارجه عن اختصاص المدرس أو دائرة معارفه، كالذي سأل محدثا حلبيا في حلقة دراسية عن شرح بيتين من الشعر تضمن أحدهما مصطلحات فلكية، فآلى الأستاذ على نفسه أن يدرس علم النجامة قبل أن يعود إلى حلقته. وغالب الأساتذة الذين يفتحون مجال الأسئلة، من المتبحرين في معارفهم ولهم ثقة كافية بأنفسهم وعلمهم. وقد نوه ابن جبير بما تخلفه دروس أساتذة المدرسة النظامية إلى حضرها، من أثر نافذ في السامعين الذين يتوافدون عليها من كل جهة ومن أوساط مختلفة. ولاحظ طريقة العالم رضى الدين القزويني الذي كان بعد فراغه من درس التفسير يتلقى أسئلة السامعين في رقاع ويجيب عنها واحدا واحدا. وسجل الفقيه العبدري فحوى مناظرة جرت بينه وبين بعض فقهاء الإسكندرية في حلقة درس الفقيه المصري، وهي تبين عن اقتدار هذا الفقيه وانفتاحه كما تبين عن إطلاع العبدري، ولم يكن نادرا أن يتلقى المدرس اعتراضات السامعين أثناء الإلقاء، وإن كان في الأساتذة من لا يحبذ ذلك قبل انتهاء عرضه. وقد نوه ابن بطوطة من أجل ذلك؛ بالطريقة التي يتبعها أساتذة المناطق الفارسية وما وراء النهر والتي تقضي بتقديم الأسئلة كتابة وترك الجواب عنها إلى نهاية عرض الأستاذ، وهو ما كانت تسير عليه المدرسة النظامية ببغداد وكان جل أساتذتها من هذه المناطق.

وكثير من كبار الأساتذة لا سيما الذين تميزوا باجتهاداتهم أو بصفة الإمامة أو الضلاعة في علم أو فن معين كانوا يتلقون كتابة، أسئلة المستفسرين من جهات مختلفة ونائية أحيانا. وقد ترد الأسئلة من مدرسين أو من علماء اختلفوا في نازلة ورغبوا في التعرف على الحكم الصائب فيها من منابعه. وقد تلقى مالك أسئلة من القيروان مع وجود علماء بارزين بها كابن فروخ الفارسي والبهلول بن راشد.

ونشأ من هذا التبادل المعرفي، ومن فتح مجال الحوار والتناظر داخل حلقات الدروس، مجموعة من المفاهيم الأخلاقية والتربوية التي ترفض احتكار المعرفة والتحرج من الاستفادة المتبادلة. ولقد كانت مجموعات شعبية تستفسر علماء الجهات البعيدة إذا لم تقنعها أجوبة العلماء المحليين، فلا يتحرج هؤلاء، ولا يتعالى البعيدون من العلماء عن إلقاء المزيد من الأضواء المعرفية على استفسارات الشعبيين في الطرف الآخر من الأرض الإسلامية، وابن عرفة الفقيه البارز والمعروف بحدته، لم يجد غضاضة في أن يصحح زائره العالم ابن مرزوق خطأ نحويا أو بالأصح أن ينير بصيرته بشأن قاعدة نحوية، وابن عرفة في درسه وفي مدرسته الخاصة. وإذا ورد على المسجد عالم من الضيوف لا يجد أساتذة المسجد أو بعضهم غضاضة في أن يتركوا حلقة التدريس ويهبوا للاستماع إلى الضيف لا كزملاء بل كطلبة يستفيدون الجديد في الطريقة والمضمون. وابن مرزوق (الحفيد) يعترف بنجابة الشاب محمد المشذالي البجائي الذي كان يعترض على أقوال ابن مرزوق في حلقة الدرس. وهكذا يجد الأستاذ حافزا من حيوية تلميذة وفضوله المعرفي فيزيد نفسه تمكنا من المعرفة باحثا ومنقبا. وإذا حصل هذا بالمغرب الأوسط فإن طلبة إفريقية اعتادوا تعجيز أو محاولة إحراج ضيوفهم من الأساتذة. وقد فعلوا ذلك تجاه عدد من الوافدين كابن مرزوق المذكور وعبد العزيز بن معطي العبدوسي الفاسي الذين حاولوا أن يحرجوه في العربية وفي كتاب سبويه على غير أهبة، فابتدأ درسه بعرض طويل جدا عن تلاميذ سبويه، وشراح كتابه وطبقات النحاة حتى أتعبهم بطول درسه.

وحلقات الدرس قد تكبر بشكل يكاد لا يصدق، وذلك تبعا لجاذبية الأستاذ وقيمة الموضوع الذي يعالجه، وأيضا بالنظر لجلال السمعة التي يحظى بها في سلوكه ومواقفه، أو للروح الدينية العميقة التي يجسمها في زهده حتى لقد يقبل عليه الكثيرون خصوصا من الشعبيين تبركا. وسعة معارف الأستاذ وحسن طريقته في التبليغ، كل ذلك مما يجمع السامعين حوله بأعداد تتزايد المرة بعد المرة. ومن النماذج الكثيرة في هذا المجال، والتي لا يمكن حصرها :

1 ـ العالم أحمد بن حنبل الذي قيل إن حلقته قد تناهز خمسة آلاف، منها دون الخمسمائة يقيدون ما يلقيه، والباقون «يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمت» وبذلك كان هذا النموذج قدوة في التربية كما هو قدوة في نشر المعرفة.

2 ـ الحافظ عاصم الواسطي، ألقى دروسا ببغداد فقدر مجلسه بمائة ألف.

3 ـ المحدث الكبير أيوب سليمان بن حرب الأزدي قدرت حلقته ببغداد بأربعين ألفا، واستمع إليه المامون العباسي، ومثله أبو بكر بن أبي شيبة وهو أيضا محدث كبير.

وكل هؤلاء من شخصيات القرن الثالث.

4 ـ أبو حامد الاسفراييني الشافعي فقيه كبير كان يحضر مجلسه زهاء ثلاثمائة فقيه دون الطلاب والسامعين، وعاش في القرن الرابع. وذكر الذهبي أن الذين يحضرون مجلسه من الفقهاء كانوا سبعمائة.

5 ـ ابن الجوزي الفقيه الحنبلي (قرن 7) كان يحضر مجلسه من عشرة آلاف إلى مائة ألف. وهذا مع اشتغاله بالتأليف حتى إن أحد كتبه في التاريخ (مرآة الزمان) بلغ أربعين مجلدا.

ومهما كان من ضخامة تقدير هذه الحلقات التي يتعذر في الواقع وصول صوت الأستاذ إلى ما وراء الصفوف الأمامية منها، فهي دليل على التجاوب الشعبي والطلابي الذي كان لهؤلاء الأساتذة حيثما حلوا لأداء رسالتهم، ثم إن عددا من هؤلاء الأساتذة كان لهم تأثير عجيب في نفوس السامعين من الجماهير الشعبية خصوصا عندما تهم الدروس هذه الفئات بالدرجة الأولى لما تتضمنه من مواعظ وتوجيهات ومثل تربوية تقتبس من نضال السلف وتقشفه وصراعه مع هوى النفس، فيتقاطر العديد من السامعين معلنين توبتهم خاشعين باكين، بعد أن ينتهي الدرس ويكون الأستاذ قد مس أحاسيس الجماهير وخاطب بنجاح وصدق لهجة، ضمائرها الميالة إلى التوبة ومراجعة النفس. وهذا ما كانت تؤديه الدروس الجماهيرية في المدرسة النظامية وفي غيرها.

ولجأ مؤسس المذاهب ومنظروها إلى حلقات المساجد يبثون فيها أفكارهم ويناقشهم الطلبة الذين تخرجوا دعاة حقيقيين لهذه المذاهب وكون بعضهم فروعا لها. وهذا ما حدث بعد صدر الإسلام وخلال عدة أجيال خصوصا بالمشرق والقيروان، واعتمدت حركة المهدي ابن تومرت على الطلبة عبر مراكز الشمال الإفريقي التي حل بها المهدي. وقد حظي هذا الشاب الطموح بشعبية كبيرة لدى الطلاب وطبقة الشباب، وتوجه إلى الفئات الشعبية بلهجتها البربرية، كما استخدمت الفارسية بمناطق إيران إلى جانب العربية في حلقات التدريس. ولقد سادت العربية في الحلقات التي يكثر بها الطلبة الدارسون لهذه اللغة. وشهدت الأقطار التي حكمتها عناصر تركية ظهور شخصيات علمية كان لها دور كبير في الإشعاع العلمي وبينها مثقفون أتراك بالمئات، وفيهم من كان الطلبة يترددون عليه من كل مذهب.

وإذا كان من حق الأستاذ بالمسجد أن يقرر مادة تدريسه أو الكتب المخصصة لهذه المادة، فإن التقاليد جرت على أن يستجيب الأستاذ لاقتراحات طلابه بشأن الكتب المختارة، وهذا قد ينطبق خصوصا على الأساتذة المتطوعين والذين يأخذون جرايات دون أن تتدخل السلطة المعنية في تحديد اختيار المؤلفات المدروسة، كما أن بعض المدرسين يلقون الدروس ببيوتهم إما لكبر سنهم أو عزوفا عن مراقبة السلطة أو لوجود كتبهم بقربهم وبعض الأساتذة تنهكهم رغبات الطلبة المختلفة حول الكتب الدراسية المراد تدريسها. كما أن أسئلة الطلبة والراغبين قد تلاحق الأستاذ في بيته وفي السوق أو في طريقه إلى المسجد وداخل المسجد. وبعض الأساتذة يتضايقون من الأسئلة السخيفة أو المحرجة. وفي الطلبة من لا يحترمون الأستاذ ولا زملاءهم الجادين، فيتحدثون فيما بينهم، وقد يسيئون الأدب على المدرس، حتى إن بعض المدرسين يتخلون عن مهمة التدريس لأجل ذلك. وسأل رجل مرة اللغوي أبا العباس ثعلب في حلقة درس، سؤالا سخيفا وأتى بشاهد يتناسب مع سخف السؤال، فدعا ثعلب طلابه

إلى عرك أذنيه تأديبا له. وتضايق أستاذ النحو الحسن المرزباني من سائل كردي لا يفهم شيئا في مسائل النحو ويصر على أن يشرح له الأستاذ، فطالت المناقشة وضاع معها وقت الطلبة والمدرس الذي كاد أن يغادر كرسيه أو يدخل في خناق مع السائل الكردي. وتحدث أسد بن الفرات مرة عن رؤية الله يوم القيامة، فاستنكر ذلك أحد السامعين، فعمد الأستاذ إلى نعله فضربه به ضربا مبرحا. أما سحنون فشرد حلقات الصفرية والإباضية ومنعهم من التجمع كليا لدراسة مذاهبهم. وجملة الأمر أن طبائع الأساتذة تختلف، وقد يوجد فيهم من يبخل بمعارفه على السائلين مع تضلعه. وفيهم الموسوس والغضوب كما أن بينهم أكثرية تحسن التعامل مع الطلاب والسامعين.

وتشغل «الرحلة في طلب العلم» اهتمام عدد غير قليل من الطلاب، وهي رحلة لا تتحد الأسباب فيها، فقد تكون لأجل انعدام الاستقرار في الموطن الأصلي، وقد تكون لرغبة جادة في اكتساب ثقافة ومعارف أمتن وأخصب، أو طموحا إلى جاه أو منصب لا يتوفر في الموطن الأصلي، أو لإشباع فضول الطالب ونهمه لمعرفة عالم أرحب ووجوه وعادات غير التي ألفها. وربما كانت الرحلة أيضا للمباهاة وكسب السمعة، فقد كان الرأي السائد أن من رحل للدراسة خير ممن لم يرحل. ومهما كانت الأسباب وقد يجتمع أغلبها أحيانا، فقد كانت هناك حركة تنقل كبيرة تبدأ داخل القطر الواحد وتمر عبر الأقطار المجاورة وتنتهي إلى مراكز أبعد. وهذه الحركة خصوصا الأوسع منها لم تتأخر بأجيال كثيرة عن صدر الإسلام، بل إن الموالي من فارس وما جاورها هم من الرواد الأولين بمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة، إلى جانب إخوانهم من العرب. وهاجر طلاب المغرب والأندلس بكثرة إلى المشرق منذ أوائل القرن الثاني وحتى قبله. وتلاميذ مالك من هذه الجهة يعدون بأعداد كبيرة، وكذلك تلقى عدد من البربر المذاهب الخارجية بالمشرق أو عن شيوخ وفدوا من المشرق.

وقد ربط ابن خلدون الرحلة في طلب العلم بتعليل اقتصادي اجتماعي، وهو أن طلاب الجهات غير المستبحرة في العمران (أي غير النامية اقتصاديا) لا يجدون في بلادهم التعليم الصناعي فيضطرون للرحلة إليه حيث هو. وهو يقصد بالتعلم الصناعي ما كان غير مرتبط بالوحي والنصوص الشرعية كالنحو والمنطق والحساب.

على أن تغرب الطلاب كثيرا ما يكون غير خاضع لتصميم محدد ولا وجهة معينة. وقد يعزم الطالب على الدراسة ببلد ثم ينتقل منه إلى غيره بحثا عن الجديد وربما لدراسة ميدانية تتطلب ذلك، كما فعل الجوهري مؤلف الصحاح في اللغة العربية، فقد درس العربية بالعراق وشافه العرب العاربة بالحجاز وطاف بين ربيعة ومضر وخراسان، واستقر أخيرا للتدريس والتأليف بنيسابور كما ذكر ياقوت. أما طلاب المغرب فأغلبهم يقصد البلاد العربية، لكن بينهم من يقصد أقطار المشرق الأخرى، وهناك من يقصد أستاذا بعينه يرحل إليه، كذلك الطالب الذي شد الرحلة من المغرب (الأقصى) إلى همذان ليدرس على الحسن بن أحمد العطار الهمذاني وهو مقرئ

ومحدث بارز. وكذلك خرج عبد الرحمن بن سعيد الأندلسي من بلاده على إثر مشادة بينه وبين أقاربه، فاخترق أقطار الشمال الإفريقي ثم دخل مصر وأدى مناسك الحج وتوجه إلى دمشق وحلب وبغداد ثم فارس ومنها إلى بخارى حيث كتب إلى أهله رسالة كان مما قاله فيها : «وعكفت على طلب العلم واصلا في اجتهاده سواد الليل وبياض النهار». وكان ذلك خلال الربع الأول من القرن السابع، إلى أن حل التتر بالمنطقة وكان ابن سعيد من ضحاياهم العديدين. وطاف أبو عثمان الصابوني الأفغاني (قرن 5) بمختلف المراكز الثقافية الكبرى بإيران والشام والحجاز، كما زاول التدريس بهذه الجهات وبالهند وغيرها. وورد ابن حمويه السرخسي الخراساني على المغرب شابا وقد كانت له علاقة قرابة مغربية، ولقي عددا من شخصيات المغرب بمراكش وحل مكرما عند المنصور الموحدي إلى أن ذهب إلى مصر بعد أن قضى بالمغرب عدة سنوات. وكانت ظاهرة الطلبة الأساتذة الذين يتغربون طلابا ثم يشتغلون في المهجر مدرسين، فاشية شرقا ومغربا، كما أن الأساتذة يتنقلون بنفس الصفة فيما بين الأقطار الإسلامية دون حاجة إلى مفاوضات وعقود بين الأقطار ولا بين الأساتذة والبلدان التي تستقبلهم. فالعالم عمر بن مودود البخاري (قرن 7) يقوم بتدريس العلوم التي يحذقها كالتصوف وعلم الكلام في الأندلس، قبل أن يلتحق بمراكش الموحدية، ولعلم الكلام يومئذ مقامه لدى الموحدين، وطاف العالم أبو الخير محمد الجزري (قرن 8) بين الأقطار العربية وما وراء النهر دارسا ثم أستاذا. ودخل الأناضول لاجئا بعد أن وقع الاعتداء على أمواله بمصر، وواصل مهمة التدريس هناك ثم فيما وراء النهر وفي هراة والحجاز وغيرها. ولقي ابن بطوطة عددا غير قليل من الأساتذة والصوفية المغاربة بالشام وحتى بالهند. وكتب التراجم العديدة خير شاهد على هذا التبادل الرائع والمفتوح بين الأقطار الإسلامية، والذي شمل مختلف الميادين.

وكما كانت المعرفة تنتقل عبر الأشخاص كانت تنتقل عبر الكتب أو بالطريقتين معا. فعلي بن زياد نزيل تونس قيل إنه أول من أدخل موطأ مالك إلى المغرب. والنحوي أبو حيان الغرناطي عمل على نشر مؤلفات ابن مالك الأندلسي شرقا ومغربا. والواقع أن ابن مالك عرّف قبل ذلك بنفسه في الشام حيث حظي منهجه بإقبال كبير من الطلاب. وآجروم المغربي هو أيضا نحوي قدير لقي متنه المبسط في كل الأقطار الإسلامية إقبالا كبيرا خصوصا في المستوى الابتدائي للدراسة النحوية، أما مدونة سحنون فاجتاحت بدورها رحاب الدراسة في الفقه المالكي شرقا وغربا. وكان التدريس حولها على إحدى الطريقتين، العراقية والتي تقتضي اعتبار المسائل المضمنة في المدونة أساسا للتفصيل والقياس دون الرجوع إلى مناقشة ألفاظ المتن وتصحيح الروايات. والقروية (نسبة إلى القيروان)، وهي تساير المتن لفظا وتصحح الروايات وتبين الاحتمالات والاختلافات وترتب أساليب الأخبار.

وعندما تفرعت العلوم وتكاثرت الكتب خصوصا ذات الأحجام الكبيرة التي يتعذر استيعابها فشت عندئذ ظاهرة المختصرات، وهي في الواقع لها

أصل قديم في الإسلام بشكل أو بآخر كما فعل ابن المقفع في تأليف كل من (الأدب الكبير) و(الأدب الصغير). وفيما بين القرن الثاني والخامس اختصرت كتب كثيرة في شتى العلوم والمعارف كالأدب واللغة والفقه والتاريخ، واستمرت هذه الظاهرة في مجال التدريس بشكل تفاحش في القرن الثامن وأدى إلى انتقادات المناهضين من فقهاء واجتماعيين كابن خلدون، والمقري الجد، وابن الأزرق. وأهم ما أخذ على هذه المختصرات عدم استيفائها للأفكار والأحكام التي تضمنتها المؤلفات الأصلية، كما أن المختصرات ينسب ما فيها إلى الأصل مع أن الواضع ليس واحدا، وإن كان قليل من المؤلفين يضعون مصنفا ثم تلخيصا له على حدة.

والظاهرة الثانية هي كثرة الشروح على النصوص، وهي أيضا لها وجود قديم انطلاقا من النصوص الأدبية كما فعل المبرد ومؤلفو (الأمالي).

وأخيرا هناك ظاهرة المتون أو المنظومات العلمية وهي نفسها مختصرات منظومة للعلوم والفنون أو حصر لبعض المصطلحات الأساسية كما فعل قطرب في مثلثه (قرن 2). وبعض المنظومات العلمية تنسب إلى القرن الأول. والمتون والمنظومات أخذت أوسع مكان عرفته، منذ القرن السابع خاصة. وهكذا أصبح على الطالب في هذه المرحلة أن يحفظ أكبر عدد من المتون نثرا وشعرا في شتى العلوم والفنون، إما في الكُتّاب أو في بيته. وأكثر المتون لها أكثر من شرح.

أما تقرير الكتاب المدرسي أو الجامعي فيكون بإحدى الطرق الثلاث :

1 ـ القرآن الكريم تحفيظه إجباري بالنسبة للكُتّاب.

2 ـ المدرسة غالبا ما يكون نص وصية الوقف محددا للعلم أو نوع العلوم التي يجب تدريسها، وقد ينص أحيانا على كتب معينة.

3 ـ السلطة يمكن أن تتدخل بالنسبة للمسجد، في تقرير مواد أو كتب معينة بالنسبة لعلوم معينة، أي لا يشمل التدخل كل شيء إلا ما ندر، مع العلم بأن عددا كبيرا من المساجد لها كراسي لتدريس موادا أو كتب بعينها شأن نظام المدارس لكن جزئيا، ومعنى هذا أن المسجد يمكن أن يجمع بين ما قررته السلطة وما وصى به الوقف، وما اختاره نظام التطوع وحتى الأساتذة المؤجرون غير أصحاب الكراسي الوقفية والخاضعين لتوجيه السلطة.

وقد ساد نظام الكراسي الوقفية إلى حد كبير بجامع القرويين بفاس منذ القرن السابع، كما كان سائدا بعدة جهات إسلامية أخرى. ومن نماذج تدخل السلطة، فرض دراسة مؤلفات ابن تومرت عبر المغرب الإسلامي، وفقه الشيعة بمساجد مصر خلال العهد الفاطمي، وفرض كتاب في الحديث النبوي بعنوان روح العارفين من تأليف الخليفة الناصر لدين الله (قرن 7) وقد التزمت بتقريره عبر المساجد بمصر والشام، السلطة المصرية، كما تقرر بالعراق أيضا. وفي وثيقة تضمنت توجيهات إلى بعض المسؤولين بالأندلس خلال العهد الموحدي (ولو أن القلقشندي ينسبها للعصر الأموي) الأمر بفرض تعليم أبواب معينة من العبادات، والتحذير من تناول كتب الفلسفة

وتهديد المخالف بالإعدام. وترجع هذه الوثيقة إلى أيام الناصر الموحدي.

ووضع القلقشندي لائحة للمؤلفات الدراسية التي يرى أن يتعرف عليها المثقفون، وتشمل كل العلوم المتعارفة، وتتضمن مختصرات ومطولات ووسطى، وساهم فيها مؤلفون من مختلف بقاع العالم الإسلامي. وكثير منها كان له مقام بالمشرق والمغرب، وبينها ما يرجع إلى الأجيال الأولى وما تلاحق من قرون، ولا تخلو من ترجمات لعدد من فلاسفة الإغريق في الهيأة والهندسة والطب وغير ذلك، وهي لائحة تحدد الكثير مما كان متعارفا ويحظى بالتزكية لدى المختصين وإن اقتصرت اللائحة في مجال الفقه على كتب السنة وحدها. وبالطبع لا يمكن استيعاب إلا جزء من هذه اللائحة بالنسبة لكل دارس.

وقد كان في المدرسين من يتنقل للتدريس بين عدة مدارس إما بعد انتهاء مهمته بإحداها فينتقل إلى أخرى، أو للحاجة إليه في أكثر من مدرسة بالبلد الواحد. كذلك كان الجمع بين التدريس ووظيف آخر ممكنا ويستفيد منه المحظوظون كالفتوى أو الخطابة أو القضاء أو التوثيق. وربما تلازمت الفتوى وتدريس العلوم الشرعية خصوصا بالمدارس. غير أن رسوم تعيين المدرسين أو ظهائرهم تتم في مضمونها بالمبادئ العامة تاركة حدود الاختيار في المادة والكتاب والطريقة للمدرس نفسه، ما لم يقع التنصيص من السلطة أو الطرف الواقف، ويتطلب التأهيل لمنصب التدريس والفتيا قبل المرسوم تزكية من هيئة العلماء وقد تكون عبارة عن إجازة حقيقية يسلمها عالم أو أكثر.

والمدرسون الذين ترعاهم الدولة أو الأوقاف قد تختلف امتيازاتهم المادية حسب الظروف وحسن تسيير الاعتمادات، فلم يكونوا كلهم كذلك المدرس الذي صادفه ابن بطوطة بإحدى المدن التركية وقد كان يصحبه موكب من الخدام في هيئة فخمة، كما أن كثيرا منهم رضي باليسير أو رفض كليا تقاضي راتب من الدولة زهدا وتقشفا، واكتفاء بأرض يزرعها أو تجارة متواضعة يمارسها أو حرفة حرة يتعيش منها، غير أن هناك طائفة تتقاضى من الطلاب رأسا، أجرا على التدريس، لأنها تزاوله بكيفية حرة في الغالب، ومن ثم فإن وضعية الطلاب لم تكن دائما مريحة، وبالتالي فالدراسة تكلف نفقات قد تصبح باهظة بالنسبة لشريحة واسعة. ومن ذلك الحالات التالية :

1 ـ همام الرازي الحنفي تلميذ أبي حنيفة ومالك كلفته دراسته الطويلة مبلغ سبعمائة ألف درهم.

2 ـ أبو أحمد الدلال النيسابوري (ت. 312) أنفق مالا عظيما في طلب العلم كما قال الذهبي.

3 ـ أحمد بن مهدي أبو جعفر الأصبهاني المحدث (ت. 272) أنفق على الدراسة ثلثمائة ألف درهم مع زهده.

4 ـ كان طلبة مبرمان النحوي شارح سبويه يؤدون إليه أجرا نقديا وعينيا (ت. 327).

5 ـ طلبة المحدث أبي الحسين بن النقور كانوا يؤدون إليه دينارا عن التحديث من كتاب

طالوت، وذلك ببغداد، وتوفي هذا العالم سنة 470 وكان الطلبة أيضا ملتزمين بالمواد الغذائية لعياله.

6 ـ طلبة الأندلس بوجه عام كانوا يدرسون بالمساجد مقابل أجرة، ولا يعني هذا انعدام أساتذة متطوعين لهم مهن أو أرزاق يتعيشون منها خارج التدريس، وهذا مع العلم بأن الأندلس خلت من المدارس إلا نادرا وفي مرحلة متأخرة غالبا. وفي القرن الثالث استغرب ابن عبد الحكم كيف يقعد للدرس طول النهار من غير مقابل ويدع التزاماته تجاه عياله ونفقتهم.

ويضطر الطلبة المترحلون وحتى المقيمون أحيانا، إلى امتهان أي عمل للحصول على مورد يتعيشون منه وينفقون على الدراسة، فأبو الوليد الباجي في دراسته ببغداد كان حارسا بدروبها. وقبل أن يشتهر بالأندلس كان يمتهن بعض الحرف المتواضعة بها. وقد تنفد نفقة الطالب أثناء الدراسة ولا مورد له.

والمدارس كانت أوقافها أحيانا يقع العبث بها أو يسوء تسييرها، ويؤدي ذلك إلى تدهور أحوال طلبتها. ومع هذا فليس كل طالب في زمن انتشار المدارس يجد بالضرورة مكانا شاغرا بها أو مؤونة مضمونة. فقد كان بين طلبة المغرب بمصر من كانوا يعملون في البناء، وقد يحمل أحدهم مسحاته وينتظر من يطلبه بالموقف فلا يحصل له شيء وعليه أن يعود إلى دروسه. وما عرفته مدارس تلمسان من أوقاف وتسهيلات للطلبة حتى القرن الثامن انقلب في عهد الحسن الوزان وقبله بأجيال إلى بؤس، وإن كان حصولهم على الدرجة العلمية بعد الكد الطويل يعوضهم عمّا فات، ويضمن لهم أعمالا مربحة، ومع ذلك لم تكن هناك معاشات ثابتة للتقاعد بالنسبة لعموم الأساتذة فضلا عن باقي الشرائح العاملة. فالأساتذة يتوقف تأجيرهم بعجزهم أو وفاتهم. وإذا عجز الأستاذ وهو غير موظف فإنه يعاني الفقر المدقع إذا لم تكن لديه مدخرات. وهذا في الوقت الذي كانت الصين فيه خلال العصر الوسيط تخصص معاشات من بيت المال للمسنين من غير تمييز بين العامل مع الدولة أو الحر. غير أن التعليم الجامعي بالصين ظل لفترة من العصر الوسيط الأول مقصورا على فئات محظوظة من أبناء الوجهاء وكبار الموظفين، وبصفة استثنائية لأفراد من غيرهم، وبالمقابل فقد سجل الجغرافيون المسلمون حتى القرن الخامس على الأقل أن أهل الصين كانوا كلهم يعرفون الكتابة. أما بغرب أوروبا فقد كان الفقر سمة غالبية الطلاب الذين عليهم أن يؤدوا نفقات تعليمهم، وهم مضطرون للعمل خدما في البيوت وما إلى ذلك من المهن المتواضعة ما لم يحصلوا على إمكانية نسخ الكتب. وحتى التلاميذ المتغربون عن ذويهم يعيشون في حالة بائسة يخدمون في البيوت وقوتهم هزيل.

وتبادل المعرفة مقابل المادة التي هي ضرورة للحياة اليومية في أي حال، لا يعني أن المدرسين فقدوا كل إحساس بالقيم، فأغلبيتهم الساحقة تعطي أكثر مما تأخذ، وفي كل حال فهي لا يمكن أن تبقى إلا فقيرة إذا اعتمدت على ما يؤديه الطلبة. ومقابل ذلك، هناك مدرسون كثيرون لهم بعض

الموارد الثابتة، يتولون هم أنفسهم مساعدة الفقراء من طلابهم. وهكذا كان المحدث عبد الوهاب الثقفي يتوفر على موارد سنوية تقدر بأربعين ألفا (؟) ينفقها كلها على دارسي الحديث. وادخر القاضي أبو بكر الأبهري ألف مثقال لأواخر عمره، فلما بلغ هذه المرحلة كتب لائحة بأسماء تلاميذه ثم وزعها عليهم وكان على رأسهم العالم المتكلم أبو بكر الباقلاني. وعرف القاضي الفاضل بمصر، بعطفه على الطلاب والمثقفين الوافدين. وكان من نزلائه، الشاطبي المقرئ، كما كان ممن شملهم برعايته وحمايته الفيلسوف الإسرائيلي ابن ميمون.

وتتسم العلاقة في الغالب بالروح الإنسانية بين المدرس وطلابه، فهو لا يستنكف أن يذاكرهم أو يماشيهم في الطريق، ولا أن يرافقهم إلى نزهة، كما أن هذا التعامل الإنساني قد يعد خير نموذج للصداقة مهما كان من فارق السن. وقد وضع ابن الأزرق، صديق التعليم، مدرسا ومتعلما ومرافقا، خير مثل للصداقة إذا سلم التعامل من خبث الطباع والتلون والملق.

والطلبة المسلمون كان معهم في أكثر من جهة وعصر، طلاب مسيحيون أو يهود أو من ملل أخرى، كما أن الطلاب المسلمين يتلقون المعارف لدى المسيحيين في الأديرة وخارجها. وهكذا كان الأمر بأديرة الشام. واختلط المتعلمون من أقباط ومسلمين في مصر، كما ذكر ابن الحاج ذلك، في القرن الثامن، وسلك المسلمون في مجال الثقافة والمعرفة وإشعاعها سياسة التسامح تجاه الملل الأخرى. وهناك أدباء عديدون من اليهود درسوا جنبا لجنب مع المسلمين، كإبراهيم بن سهل قبل إسلامه، وإبراهيم بن الفخار، والطبيب إلياس بن المدور، وقسمونة بنت إسماعيل الشاعرة. وعند ما فتح القشتاليون مرسية في حركة الاسترداد أنشأوا مدرسة بها لاستقبال الطلاب من المسلمين واليهود والمسيحيين، وأسندوا إدارتها إلى محمد القرموطي وهو من مرسية، وكان آية في الهندسة والطب والفلسفة يتقن عدة لغات ويدرس كل لغة لمن اختارها. وقد أنشأ بنو الأحمر بدورهم مدرسة بغرناطة كان يدرس بها طلبة الملل الثلاث.

وفي الطلبة من يلازمون أساتذة معينين لمدة قد تستغرق سنوات طويلة وتتحول إلى صداقة مستمرة، حتى إن أبا القاسم البرزلي لازم ابن عرفة أربعين سنة. ويبدو الطالب في هذه الحال وكأنه مريد يلازم صوفيا أو شيخ طريقة. ويعتبر موت عالم ذي إشعاع نافذ، خسارة كبيرة لدى الجماهير التي تعبر عن تعاطفها معه حيا وميتا، حتى إن طلبة إمام الحرمين الجويني (قرن 5) كسروا عند موته محابرهم وأقلامهم كرمز لوداع شخصية علمية لا بديل لها يستحق أن يحتفظ بأدوات الكتابة من أجله.

وفي الطلبة ومن كانوا طلابا، فريق لا يتردد في خوض معركة قلمية من أجل الانتصار لشيخه إذا واجهت أفكاره حركة معادية. وقد يحدث أن يقوم التلميذ بالرد على أستاذه كتابة أي بنشر مذكرة أو أكثر، تنتقد أفكار الشيخ أو طريقته. وهذه الحالة أقل وقوعا، والدليل على ذلك مئات الفهارس التي خصصها طلاب سابقون لشيوخهم وما درسوا عليهم من مؤلفات ومعارف، فضلا عن كتب المناقب والتراجم الفريدة لعدد من الأساتذة وشيوخ المعرفة.

ثم إن كثيرا من قدامى الطلاب يباهون بكثرة شيوخهم، وقد يبلغون المئات عددا في بعض الأحيان :

1 ـ محمد بن أحمد القرطبي : (قرن 4) : 230.

2 ـ بقي بن مخلد (قرن 3) : 284.

3 ـ شرف الدين الدمياطي (قرن 7) : 1270، وبلغ برنامجه أربعة أسفار. ويتميز البرنامج عن الفهرس بأن هذا يعدد الشيوخ والكتب، ولا يقدم إلا جزئيات إضافية محدودة، أما البرنامج فيعطي تراجم شيوخ كثيرين، ويحدد المقروء ووقت دراسته وقد يذكر نصوص إجازات وما إلى ذلك.

4 ـ إسماعيل أبو سعيد الحنفي المعروف بالسمان (قرن 5) : ما بين 1300 و4000 حسب الروايات.

وتأخذ الفهارس طريقها إلى الظهور أو بالأصح إلى الانتشار، منذ القرن الرابع، وبذلك سايرت ظهور الإجازة أو انتشارها. وابن النديم في فهرسه لم يتناول الفهارس بالذكر، مما يدل على أنه لم يتوفر على معلومات بشأنها مع أن عنوان كتابه هو (الفهرست) وإن كان موضوعه يتناول الحركة العلمية وأسماء المؤلفين وتآليفهم وبذلك فهو ليس كفهارس الشيوخ التي تهم شيوخ شخص بعينه. والذي يؤكد سابقة العمل بالإجازة قبل القرن الرابع هو أن العالم الأندلسي الوليد بن بكر الغمري الذي تنقل بين عدة أقطار إسلامية ألف في هذا القرن كتابه : الوجازة في تجويز الإجازة. وبالنسبة لـ (البرامج) فقد تأخرت عدة عقود. وعلى أي فقد بدأ انتشارها على الخصوص منذ القرن الخامس.

أما تحديد وقت ابتداء العمل بالإجازة فيبقى مجرد تخمين، ومن بين الإجازات في أوائل القرن الثالث إجازة إبراهيم المغامي لعبد الملك بن حبيب، وكلاهما أندلسي.

والإجازة تعني الترخيص للطالب في رواية وتدريس ما قرأه على أستاذه، ويبدو أنها مرت بمرحلتين، أولاهما إجازة خاصة بموضوع أو خبر أو رواية، وهذه كانت متعارفة قبل القرن الرابع. فالزبير بن بكار يأخذ من هرون بن عبد الله الزبيري إجازة برواية قصيدة لنصيب. والزبيري هذا من شخصيات القرن الثاني. والمرحلة الثانية هي الإجازة العامة التي تشمل كل ما درسه الطالب أو سمعه من شيخ، كما تشمل الترخيص للمستجيز برواية كتب الشيخ ومسموعاته المباشرة أو بالإجازة. وتحرر الإجازة العامة عادة بطلب من المستجيز. على أن الإجازة الخاصة لم تختف مع انتشار أختها العامة. ففي القرن الخامس أجاز عالم لغوي هو الحسن بن يعقوب النيسابوري طالبا بشأن تدريس نسخة من صحاح الجوهري عليها حواش، وتلقى الأستاذ نفسه هذه النسخة إجازة عن أستاذه هو. وكثيرا ما تكون الاستجازة والإجازة بالمراسلة. والمفروض أن الأستاذ في هذه الحال لا يجيز إلا من عرفه أو تعرف على علمه سماعا أو تأليفا. ومن أهم النماذج في هذا الباب استجازة الحافظ السلفي لجار الله الزمخشري وإجازة هذا العالم لذاك. وقد نقل المقري نصهما. وهناك شيوخ كثيرون ذوو مكانة علمية استجازهم مئات الطلبة والعلماء، ومن هؤلاء الشيوخ، الحافظ السلفي وعياض وكريمة المروزية. وبعض الإجازات ليست

إلا مجرد إثبات لعرض كتاب كما هو أو عدة كتب حفظها المرشح عن ظهر قلب. وقد تضم الإجازة العامة أسماء كتب عرضها المستجيز فضلا عن باقي مشمولات هذه الإجازة كما سبق ذكره. وميدان الإجازات لا يخلو من محاباة أحيانا وتساهل أحيانا، وقد يجيز بعض الأساتذة أشخاصا لا يعلمون عنهم شيئا يذكر. وكيفما كان الأمر فالإجازة في مدلولها العام تمثل تكليلا لجهود العديد من المستحقين، وضمانة مقبولة في غالب الأحيان لممارسة التدريس وعدد من الوظائف الأُخرى. وبذلك يتواصل تبادل المعرفة أخذا وعطاء في سلسلة متشابكة تحدد مادة المعرفة، ومصدرها الإنساني، والطرف المستفيد الذي يصبح هو أيضا مفيدا ومنتجا.

الرباط - إبراهيم حركات



المختار السوسي في فاس*

للشاعر عبد الكريم التواتي

حيّ أرضا تلألأت أقمارا   حيّ (سوسا) والرائد (المختارا)

حي أرضا، أبناؤها الصّيد، للعلـ   ـم أقاموا معاقلا وديارا

حي (إيليغ) منبع الفضل والتقوى،   وحي القطان و«المختارا»

معشر أرضعوا المكارم أحدا   نا وطابوا منابتا ونجارا

تخذوا الدين جنة ومنارا   وكريم الأخلاق كان الشعارا

(سوسنا الأقصى)، منبت العز يا أر   ضا، أعزت أبناءنا الأبرارا

من ثراك تفجر العلم ينبـ   ـوع زلال، وروق استبشارا

من حناياك فجر العلم، ما ألقى عصـ   ـاه، لكن جرى أنهارا

فأفاض النعماء شرقا وغربا   وجنوبا، مدائنا وصحارى

(تـ   ـاشفين) «وآل يس» أقمـ   ـار أفاضت على الدنى أنوارا

غمر الكون فضلهم فاستقام الكـ   ـون عدلا استشعر استقرارا

حملوا راية الهدى وتواصوا   أن سيعلون للهدى الأسوارا

قسما أقسموا فعاش بنوهم   للذى أقسموا حماة غيارى

(سوس) يا موطن الأمازيغ، فاس   بك تاهت عجبا وماست جهارا

لك أبناؤها الأشاوس يزجـ   ـون التحايا : صغارهم والكبارا

---

* ألقيت هذه القصيدة في الندوة التي نظمتها جمعية فاس سايس في أواخر السنة الماضية بمدينة فاس، حول : «المختار السوسي فكراً وممارسة».

شاقهم منك، عترة، المعالي   تتباهى، زهوا بهم وافتخارا
بابنك البر، فاس : أهلا وأرضا   وسماء، ليحتفون سكارى
وبنو فاس أحفظ الناس عهدا   لحليف، وأكرم الناس دارا
ما على الأرض مثلهم : أدبا جما وتقوى وعفة وبهارا
لم يزالوا، ولن يزالوا - مدى الدهر عرانين يحفظون الذمارا
- فاس - مختار - موئل العلم والدين، ومغنى يستقطب الأحرارا
تتباهى بها العظائم نشوى   والمعالي قد آثرتها قرارا
فإذا ما رعت تر أنك - مختار - ففاس تهوى النفوس الكبارا
وابن سوس الأبر مختارها الفذ، لفاس، أنعم به مختارا
وأرى فاس أخت (إيليغ) آخى   بين أهليهما هوى لا يمارى
لم يكن ذلك الأبي فتى (سوس)   ولكن كان الحمى والديارا
عجمت عوده الليالي، فكان النور عقلا، والفكر كان نضارا
علما كان في المعارف فردا   كان في الشعر شهده المشتارا
أبرزت نثره الصحائف فنا   وروى الفن شعره أوتارا
غار سحبان من فصاحته المثلى، وقس - فيما أتاه - استحارا
وحللتم - مختار - فاس وكنتم   خير حل شدا بها أشعارا
لم تكن فاس يا مخيتر تنسى   يوم فيها أمسيت خلا وجارا
حضنتكم أفياء جامعها الأكبر، إعزازا، وكانت للمعتفين مزارا
أرضعتكم ألبانها الثرة السود   ق وأشربتم شهدها أنهارا
- حلقات الدروس - مختار - أفشت   ما جرى فيها من جدال وثارا
في ثبات خضتم مداها، فكنتم   المجلي والفارس المغوارا
الأساطين، والمنابر، والمحراب   أشهاد، سجلوا الأخبارا
ورفاق كانوا الطلائع علما   واقتدارا، وللحمى أنوارا
عاهدوا الله أن يفدوا المغاني   أو يموتوا فدى لها وانتصارا
كنت - مختار - فيهم العلم البا   رز فهما وفطنة واختيارا
منطق صائب ورأي سديد   وتقى تحذر الهوى والشجارا
تسبر الغور في أناة، وتستهدي التواريخ حكمة واعتبارا

وتحملت ما تحمل أولو العزم، إيمانا واحتسابا، بدارا
لم يرعك التعذيب ـ حاشا، ولا الحرمان، لكن قد أذكيا الإصرارا
هو عهد على الوفاء ونذر   ووفاء النذور كان وقارا
لم ترم سمعة ولا ظهورا، فقد عشت تعادي وتكره الإشهارا
عشت، بالله تستعيذ من اللغو، وترجوه لو يقيك العثارا
وترفعت عن سفاسف دنيا   نا وأوليت لهوها الأدبارا
زهدت نفسك الكبيرة فيها   فتباعدت عن هواها اختيارا
وتمنطقت بالعفاف وهمتم   بشباة تسجل الآثارا
وتأليت أن تعيش لدنيا   ها وتملي أبعادها أسفارا
وكتاب المعسول شاهد صدق   قبل الله ما احتوى وأجارا
كلمات رقراقة اللفظ غراء المعاني تدغدغ الأفكارا
عشت ـ مختار ـ العلوم ويبقى   ماله عشت، خالدا مختارا
وستبقى ذكراك مصدر إلهام، وتبقى للسالكين منارا
فلتنم في جوار ربك ربِّ العرش، ولتمنح الجنان قرارا

فاس ـ عبد الكريم التواتي

الشيخ محمد التاودي ابن سودة

اجتهادٌ في العلم والعبادة ومحبة آل البيت

إمام فقهاء المغرب

للأستاذ عثمان بن خضراء

هو شيخ الجماعة بفاس، العلامة المحدث الصالح المعمر، إمام فقهاء المغرب، أبو عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن علي بن قاسم بن محمد بن علي بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم ابن سودة المري الفاسي، المتوفى بفاس سنة 1209 هجرية، وقد جاوز التسعين.

قال عنه العلامة أبو عبد الله الرهوني أول أوضح المسالك :

«حاز رياسة فاس والمغرب كله، فلا أعلم الآن أحد ممن ينتمي إلى العلم بالمغرب، إلا وله عليه منة التعليم، إما بواسطة أو بغير واسطة أو بهما معا، وقد جمع مع ذلك، الاجتهاد في العبادة، والسخاء، وحسن الخلق، والمحبة العظيمة لآل البيت والطلبة وزيارة الصالحين».

وقال عنه عالم مصر الشيخ الأمير في فهرسته لما ترجمه :

«هلال المغرب وبركته وحامل فتواه وقدوته»

وقال عنه الحافظ الزبيدي في ألفية السند له :

ومنهم محمد بن الطالب
التاودي العدل ذو المواهب
رئيس فاس كاشف الغيوم
وعالم المنطوق والمفهوم
إليه في بلاده يشار
عليه في المعارف المدار
صحبته في مصر في وفادته
فجاد بالكثير من إفادته
أجازني بكل ما يرويه
من كل ما يفيد أو يمليه

وجاء في روضة أبي الربيع الحوات، عن شيخنا التاودي :

«إنه ثابر على إقراء صحيح البخاري حتى جاوزت ختماته حد الأربعين، فلم يكن يدعه لا سيما في شهر الصيام من البدء إلى التمام، يفتتحه

أول يوم منه ويختمه آخره، وكان يأتي في هذا الزمان القليل بتحقيقات.

وله عليه زاد المجد الساري في نحو أربع مجلدات، وحاشيته هذه، طبعت بفاس.

وأقرأ أيضا صحيح مسلم كثيرا، لكنه لم يكن له غالبا بهجير، أوله عليه تعليق.

وأقرأ أيضا سنن أبي داوود، وكانت بالمغرب عزيزة الوجود... كما أقرأ بقية الكتب الستة، وحدث بأوائلها.

وقرأ مسند الدارمي بأمر سلطاني... والشفا بمراكش وفاس، والجامع الصغير، ومشارق الصغاني، وأملى عليها شرحا نفيسا... والشمائل للترمذي وعلق عليها.

وأقرأ الأربعين النووية، وكتب عليها شروحا منها واحد طبع بفاس. والفتوحات الإلهية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، والألفيتين للعراقي، والكعبية لابن زهير وشرحها، والبردة والهمزية مرارا، والتفسير في عدة سنوات، والألفية نحوا من ثلاثين مرة... وربما أقرأها في الشهر الواحد بدءا وختما.

وأقرأ أحيانا التسهيل والمغنى والكافية والشافية، وأما الأجرومية، فلم يزل يقرأها خصوصا للصغار من أعقابه وأبناء أهل المودة إلى وفاته.

وأقرأ كبرى السنوسي والمقاصد للسعد، والمواقف للعضد، والورقات، وجمع الجوامع، والحكم، وهي آخر ما درس، والمباحث الأصلية، وابن عاشر والرسالة حتى لم يكن يدعها.

وأقرأ التهذيب حينا من الدهر.

وأقرأ مختصر خليل نحو الثلاثين مرة، وربما أضاف إليه أحيانا الجامع وشرحه، وهو مطبوع بفاس، وكان يختم المختصر غالبا في سنتين، وتارة في أكثر، وأخرى في أقل.

كما أقرأ بالجامع الأزهر بفاس الموطأ، حضره أعيان المذاهب الأربعة وكبار شيوخ مصر وصلحائها، كالصعيدي، والدردير، وعبد العليم الفيومي الأزهري الضرير، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ حسن الجبرتي، والسيد عبد الرحمن العيدروس، والحافظ مرتضى الزبيدي، والأمير المالكي الكبير، ومحمود الكردي وغيرهم.

لقد رزق الشيخ التاودي سعدا عظيما في التلاميذ، وجاها ودنيا في أيامه، وحاز المناصب السامية في الدولة ولأبنائه وأحفاده.

ويذكر في باب سعة خاطره وتحمله، أن تلميذه النقيب أبا الربيع الحوات أنشده أبياتا قال فيها :

قولوا لشيخكم ابن سودة أنه ... قرب الرحيل فهل له من زاد
عاش القرون وفاز من أيامه ... بالمال والأولاد والأحفاد
حتى إذا وفّى الرياسة حقها ... أمسى الحمام لديه بالمرصاد

أتى إليه، ومسح بيده على ظهره وهو يقول :

جزاك الله عنا خيرا إذ ذكرتنا يا ابن الرسول،

وأشار إلى ذلك الحوات في كتابه «ثمرة أنسي في التعريف بنفسي» وذكر جماعة من أشياخه منهم المترجم، فقال فيه :

«هو شيخ ظاهر النفع، كثير التلميذ، طال عمره إلى ما جاوز التسعين، وهو متمتع بحاستي السمع والبصر مع نحافة الجسم، وبلغ من الرياسة مع السلطان سيدي محمد ما لم يبلغه غيره، حتى اكتسب بذلك هو وأولاده أموالا كثيرة، وأكسبوا غيرهم ممن تعلق بهم ما فيه الغنى، واجتمع له ولأولاده من المناصب والولايات، والأخذ من وفر الأوقاف، ما لم يتفق لغيره قط، ولما مات السلطان المذكور، أقره ولده مولانا اليزيد على ما كان عليه».

وقد روى مترجمنا عامة عن شيوخ المغرب : أبي العباس أحمد بن مبارك اللمطي صاحب الذهب الإبريز وهو عمدته... وأبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس، وشيخهما أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بناني، وهو أعلى شيوخه إسنادا، والحافظ أبي العباس أحمد بن عبد الله الغربي الهلالي السجلماسي وغيرهم.

وروى بمكة المكرمة، عن المعمر عبد الرحمن بن محمد بن أسلم الحسيني المكي، وحسين ابن عبد الشكور الطائفي، وأبي عبد الله محمد بن خالد الجعفري المكي، ووالده أبي بكر، ولعله أعلى من لقي بالمشرق.

وبالمدينة، عن محمد بن عبد الكريم السمان المدني، والبرهان بن أسعد المدني. وبمصر عن الوجيه العيدروس، ومحمود الكردي، وعيسى الشبراوي، وحسن الجبرتي، وأبي البركات أحمد بن عوض المقدسي، وتدبج فيها مع أبي العباس أحمد الدمنهوري المذاهبي، وأبي الحسن علي الصعيدي العدوي، وسمع أول الصيح والشمائل على الشيخ سيدي المعطي بن صالح الشرقي البجعدي صاحب الذخيرة.

ومن شيوخه في الطريقة، الشيخ فتح الله العجمي التونسي، أخذ عنه طريقة مولاي عبد الله الشريف عنه عاليا، وهذا الشيخ، ذكره له ابن رحمون في فهرسة السلطان أبي الربيع سليمان، والحوات في الروضة وغيرهما، وأهمل ذكره التاودي نفسه.

وللشيخ محمد التاودي فهرسة صغرى وكبرى، ذكر في الأولى : شيوخه من أهل العلم ونصوص إجازتهم... وفي الثانية : من لقيه من الصالحين، ألفها في آخر عمره، آخر المائة الثانية عشر.

قال في الأولى :

«لما مَنَّ الله على العبد بالرحلة لأرض الحجاز، وظفر بزيارة الحرمين، ونزل أرض مصر، لقي من علمائها وفقهائها من يشار إليه بالنبل في العصر، فطمحت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء، وفي الأخذ عن مشايخ الغرب رغباء، أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، وإن كنت في الحقيقة على جناح سفر، فأجمع الأمر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر، ولما افتتحناه وجرى في الدرس ذكر من أخذناه عنه أو رويناه، وقع ذلك من السامعين موقعا (وكأنهم يقولون لا نجد له مسمعا ولا مرجعا) فطلبوا مني أن أقيد لهم سندى في ذلك، وأن أصل حبلهم ورابطتهم من جهتي بالإمام مالك مع سند الصحيحين، وذكر نبذة من مشايخي ممن شهد لي أو اشتهر وعلم (ترويهما وكل ما يصح له من مؤلف ومروى) من طرف تلاميذته المجازين منه عامة، كالسيد مرتضى

الـزبيـــدي، والشيـخ الأمير المصري، وأبي الحسن الصعيـدي، وأبي العبـاس الـدمنهوري، والشيخ عبد العليم الفيـومي الضرير المصري وغيره، وهـؤلاء من المشـارقـة، وأبي الحسن علي بن الأمين الجزائري، وابن عبد السلام الناصري، وأبي عبد الله محمد بن محمد الصادق ابن ريسون العلمي، وعبد اللـه بن إبراهيم العلوي الشنجيطي، والشيخ صالح الفلاني، وغيرهم من المغاربة.

ويـذكر صـاحب فهرس الفهـارس والإثبـات، أسانيـده إلى الشيخ التـاودي عن طريق آخر تلاميـذه في الدنيا وهم :

1) أبو عبد الله محمد بن أحمد السنوسي عن أبي محمد عبد الله بن إدريس بن محمد بن أحمد السنوسي، وأبي محمد عبد الملك بن عبد الكبير العلمي الفـاسي، كلاهمـا عن والـد الأول عن أبيـه، أخبره بإجازة الشيخ التاودي للسنوسي المـذكور حفيده المذكور، جازما بها معولا عليها.

2) أبو العباس أحمد بن محمد بونافع الفاسي عن أبي الحسن بن ظـاهر الوتري، عن أبي العبـاس أحمد بن الطاهر الأزدي المراكشي، عنه استفاد إجازة التاودي له من إجازته هو لابن الطاهر، ظفر بهـا في المدينة.

3) الشيخ بدر الدين بن الشاذلي الحمومي، عن أبي الحسن بن ظاهر، عن أحمد ابن الطـاهر الأزدي، والمهدي بن الطـالب ابن سودة، كلاهمـا عنه سماعا وإجازة عامة.

وعن عبد الله السنوسي، وعبد اللـه بن الهـاشمي ابن خضراء، كلاهما عن ابن سودة به أيضا.

وعن الفقيـه الصـالح اللغـوي عبـد المعطي السباع، وأبي العباس أحمد التناني، كلاهما عن أبي الحسن علي بن عبد الصـادق الرجراجي الصـويري، عن الشيخ بـدر الـدين ومحمـد بن أحمـد السـوسي السابق، ثلاثتهم عن الشيخ التاودي بن سودة عامة.

كمـا نجـده يروي أي صـاحب فهرس الفهـارس والإثبـات، عن أبي عبـد اللــه محمــد بن إبراهيم السبـاعي، وأبي محمد عبد الله الكـامل بن محمد الأمراني، كلاهمـا عن محمد بن المدني قنون، عن بـدر الـدين الحمومي، عن الشيخ التـاودي، وعن أبي العباس أحمد بن الخياط الزكاري، عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بنـاني المراكشي، عن الحمومي عنـه. وهـذا القـدر في الاتصال بـالشيخ التـاودي ينـدر الحصول عليه في غير هذا الموضع.

تـدبج الشيخ التـاودي أيضـا مـع الشيخ المعمر الصـالح الرحـال محمـد المختـار بن محمـد أمزيـان المعطاوي الدمراوي نزيل تازا، وتآخى معـه، وعـاش بعـده عشرات السنين، وهـو يروي عـامـة عن الشيخ أحمـد الحبيب وأخيـه صـالـح والحـافـظ الـزبيـدي، والحفني، ومحمد بن محمد بن عبد الرحمان أمزيـان والـمان والعيدروس والشهاب الـدردير، وعبـد القـادر الراشـدي، وأحمـد الهلالي وغيرهم، ووقف صـاحب فهرس الفهـارس على مـآخـاتـه مـع الشيخ التـاودي وإجازته له.

وقال الحوات : رأيت الشيخ التاودي أسنـد في بعض إجازاته عنه بعض ما أخذه عن مشايخه.

كما يضيف صاحب فهرس الفهـارس، أن الشيخ التاودي أجاز القاضي عبد السلام المسنـاوي، والمسنـد

الكبير محمد التهامي بن رحمون الفاسي، ووقف على إجازته لهما.

وأعلى من لقيه الشيخ محمد التاودي بن سودة وأخذ عنه بالمشرق، المعمر العلامة أبو بكر بن خالد الجعفري المكي، يروي عن اليوسي وأبي العباس ابن ناصر الدرعي، ويروي عاليا عن الشهاب أحمد بن عبد الغني الدمياطي المعروف بابن البنا وهو يروي عن المنوفي عن الحصاري وأبي الخير ابن عموس الرشيدي الحصاري عن الشمس الغمري والرشيدي عن زكرياء، كلاهما عن الحافظ ابن حجر، وهذا علو عظيم.

الشيخ محمد التاودي بن سودة، كان حاملا راية العلوم، متحففا بالمنطوق منها والمفهوم، مع دماثة أخلاق، وكرم أعراق، ونباهة أصل، حسن التبليغ لكل طالب وسائل.

فهو الإمام الشهير، ذو السيرة المحمودة، والشيم المرضية، انتخبته مقدمة الاختيار، وخلص خلوص التبر على النار، وصرفت أفعاله المحمودة، فلم يتطرق إليها اعتلال، ورجعت في المسيرة الحسنة أخباره على حالها. وممن شهد لتقدمه وبروزه وتضلعه، علمه واجتهاده وتربيته، ورسم الاختبار بصحة إشهادها في باب التزكية.

لقد قضى حاكم النظر باستحقاقه التولية، وفاز من أقداح اختصاصها وإيثارها بالمعلى، وجمع في أسباب مرضاتها جمعا سالما.

اقتضت الهمة الإمامية أعلى الله منارها، وأعظم آثارها، أن تعصب جبينه بتاج الرعاية، وتضفي عليه برود العناية بولايات تبع فيها سليم الاختيار.

أورد المؤرخ الضعيف الرباطي في تاريخ الدولة العلوية السعيدة :

«أنه في يوم الخميس 26 ذي الحجة 1211، دخل السلطان مولاي سليمان فاس البالي، وسار لدار أخيه مولاي الطيب، والتقى بسيدي العربي بن المعطي من فقهاء أهل فاس وكبرائهم، وخرجا على أرجلهما لضريح الشيخ التاودي ابن سودة للترحم عليه، ثم توجها لضريح مولاي إدريس».

ولله در القائل :

أولائك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

الرباط ـ عثمان بن خضراء

ويسألونك عن

الأمثال

للأستاذ عبد القادر زمامة

ليست الأمثال من الأشياء المتجاوزة في عصرنا هذا، عصر التركيز، والمنطق المفيد، والإفادة السهلة، والتعبير الجذاب...!

ولكنها رصيد معاناة، ونتاج تجربة، وملامح بيان، رصدت ومنذ عصور :

- حياةَ الإنسانية نعيما وبؤسا...

- المظاهرَ الاقتصادية ثراء وفقرا...

- قضايا المرأة، والرجل، والحب، والبغض، والشهرة، والخمول، والحظ، والمحاسن، والمباذل...

- أشكالَ التعبير، صراحة، وكناية، وتشخيصا، وتلميحا، وتضمينا، ونقدا، وتهكما، ومبالغة، وتقبيحا، وتجميلا.

- أساليبَ الإقناع : وجدانية، وعقلية، وأخلاقية، عامة، وخاصة، بالشدة تارة، وباللين أخرى...

كما رصدت معارف الإنسان عن :

- أنواعِ الحيوانات : وحشية، وداجنة، نافعة وضارة، وأنواع الطيور، والحشرات، وما كان لعاداتها من تأثير في حياة الإنسان ومعاشه...

لهذا ولغيره من الأسباب اللغوية والاجتماعية، والتاريخية، اهتم السابقون واللاحقون بتدوين نصوص الأمثال، مع شروح أدبية، وتاريخية، ولغوية، أعطتها ما تستحق من اهتمام في مجالات البحث والدرس...! فالشعر ديوان العرب...! والمثل مرآة حياتهم.

وأقرب وأيسر المجموعات التي اهتمت بأمثال الأدب العربي هي :

- مجمعُ الأمثال لأبي الفضل الميداني 518 هـ 1124 م.

- المستقصى لأبي القاسم الزمخشري 538 هـ 1144 م.

والمؤلفان متعاصران، وكل منهما كان من أعلام عصره، في اللغة، والأدب، والنحو، والبيان... ويذكر ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) ج 5 ص 47... سماعات تدل على :

أن أبا القاسم الزمخشري اطلع على كتاب : (مجمع الأمثال) للميداني، بعد أن ألف كتابه : (المستقصى)... وأنه «حسده» على جودة تصنيفه...!!!

ولا علينا في صدق سماعات ياقوت الحموي... أو عدم صدقها، وما يترتب على ذلك...!

فعمل كل منهما «شكلا ومضمونا» جيد يستحق التقدير، والتنويه، والمراجعة، والاستفادة...

يشتمل المستقصى على 3461 من الأمثال مرتبة على الحروف... مع شروح، واستشهادات، وإشارات مركزة، حيث إن مؤلفه اشتهر بحدة الذهن، وعمق التفكير، والغوص على دقائق المعاني، وأسرار البلاغة والبيان، كما أنه اشتهر ـ بنوع خاص ـ باطلاعه على ما كتبه اللغويون، والأدباء، والمفسرون وما زخرت به المصادر القديمة من نصوص أدبية وتاريخية ولغوية...

وتعليقات الزمخشري ـ في الغالب ـ مختصرة تعنى. بالاستشهاد للمثل، وبيان ما قيل في أصله. وما يستعمل فيه. وما يحمل من إشارات وظلال...! جدية وهزلية...!

وقد طبع كتاب المستقصى، منذ عقود من السنين بعناية دائرة المعارف الهندية، ثم أعيد «تصوير» هذه الطبعة ببيروت سنة 1397 هـ 1977 م... في جزءين.

ويشتمل مجمع الأمثال على 4765 من الأمثال مع ملحق ذكر فيه أيام العرب... ثم محلقات أخرى ذكر فيها :

أحاديث نبوية... ومختارات من كلام الخلفاء الراشدين... وبعض الصحابة والتابعين... وغيرهم... لهذا يقول المؤلف في المقدمة : إنه جمع ستة آلاف ونيفا من الأمثال...!

شروح الميداني دقيقة، ومفيدة، وحاسته اللغوية مرهفة، ورصيده الأدبي والتاريخي غزير وعميق، يطنب في العرض تارة، ويوجز أخرى...

المجموعتان متكاملتان يجد الباحث والدارس والمثقف العابر، فيهما من عبارات الجد، والهزل، والنقد، والتهكم، والتسلية، والحكمة، ما لا تبلى جدته. وما لا تطوى صفحته على ممر العصور...!

ومجمع الأمثال للميداني طبع مرات...!

والميداني كالزمخشري رتب كتابه مجمع الأمثال على الحروف، مع إفراد الأمثال المبدوءة بصيغة «أفعل» عن غيرها... وإلحاق الأمثال التي نشأت عند المولدين بالأمثال القديمة المموعة عن العرب... وبذلك زاد عمله إيضاحا وترتيبا...

أما مقدمة الكتاب فقد حرص الميداني على أن تكون منهجية جامعة مع شحنها بالقواعد اللغوية، والنحوية، وما كان يهدف إليه عند جمعه لهذا الكتاب من المصادر المتعددة...!

ولا نودع الحديث عن أمثال الميداني دون أن نشير هنا إلى أن الميداني كان أحد تلامذة أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي الأديب اللغوي المفسر المشهور تـ 468 هـ = 1075 م. وقد اقتبس من مؤلفه في الأمثال المسمّى :

الوسيط في الأمثال :

ولم يشر إلى ذلك في المقدمة التي كتبها لكتابه : (مجمع الأمثال)، مع أنه ذكر مصادر أخرى من كتب الأمثال لمؤلفين قدماء...!

وكتاب : الوسيط في الأمثال، مطبوع بتحقيق الدكتور عفيف محمد عبد الرحمن بالكويت سنة 1395 هـ = 1975 م، ويحتوي على معلومات وفوائد، وتفسيرات جيدة، نقل الميداني الكثير منها.

ومن مختارات الأمثال النثرية والشعرية، راجع واقرا معنا هذه الأمثال :

- أبت الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها...!
- ابدأهم بالصراخ يفروا...
- إنك لتكثر الحز وتخطئ المفصل...
- أشغل من ذات النحيين...
- ذكرني فوك حمار أهلي...
- مثل النعامة.. لا طير. ولا جمل...
- مصائب قوم عند قوم فوائد...!
- أراد أن ياكل بشدقين...!
- يداك أوكتا. وفوك نفخ...!
- نعم كلب في بؤس أهله...!
- ويل للشجي من الخلي...!
- تجشأ من غير شبع...!
- إن الطيور على أمثالها تقع...!
- كالراقم على الماء...!
- ليس في العير ولا في النفير...!
- استنوق الجمل...!
- استأتن الحمار...!
- أزهدُ الناس في عالم أهلُه وجيرانهُ...!
- أحلى من ميراث العمة الرقوب...!
- أشهر من : «قفا نبك»...!
- أساء سمعا فأساء جابة...!

- أحشفا وسوء كيلة..؟

- أعلمه الرماية كل يوم
فلما استد ساعده رماني

- وإذا تكون كريهة أُدعى لها
وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

- وكم قائل ما بال مثلك راجلا
فقلت له من أجل.أنك فارس

- وابن اللبون إذا ما لُزّفي قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

- وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت
غويت. وإن ترشد غزيّة أرشد

- ولكن الأديم إذا تفرى
بلِى. وتعينا. غلب الصّناعا

- إذا كنت في قوم عديٍّ. لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب

وراجع... واقرأ معنا. المثل التهكمي الذي قاله رجل يخاطب امرأة ويحدثها عن أشياء غامضة، وخفية، شارحا ما غمض، وكاشفا ما خفي...!

وفي الوقت ذاته تخاطبه وتحدثه عن أشياء واضحة بينة معروفة...!!

- أُريها السُهى...! وتريني القمر...!

فالقمر تراه كل العيون السليمة...

أما السهى فلا يحظى برؤيتها إلا من كان يملك بصرا حادا جدا.!!!

وهذا المثل التهكمي استغله شاعر ظريف فقال :

شكونا إليه خراب السواد
فحرم فينا لحوم البقر

قلنـــــا كمــــا قـــــال من قبلنــــا

أريهــــــــــا السهى وتريني القمر

ونصيب الحكمــة، والتــاريـخ، والحقيقــة، والخيال، والواقع، والأسطورة، من الأمثال في أدبنا، وآداب الشعوب الأخرى نصيب وافر، ما يزال بعضه في حاجة إلى دراسة الدارس، وبحث الباحث، وتجربة المفكر، وفن أهل الفنون...!

ولابد قبل إنهاء هذه الالتفاتة إلى الأمثال من الإشارة إلى نقطتين :

الشهرة عنصر أســـاسي في الأمثـــال... ولا يحظى المثل بهذه الشهرة إلا إذا راج على الألسنة، ونال من الواقع، والخيال، ما يحببه ويجذب الناس إلى ضربه، في المكان المناسب، والظرف المناسب، ليحقق ضاربه هدفه المناسب.

وكأنه بضربه استغنى عن الشرح، والإيضاح، ووصـل إلى غرضــه من أقرب طريـق، وبـأبلـغ أسلوب...!

بعض الأمثال صار حكمة...!

وبعض الحكم صار مثلا...!

لهذا حاول كثيرون ـ قديما وحديثا ـ رسم خط فاصل بين ما يدخل إطار الحكمة، وما يدخل إطار المثل. ولهم في ذلك آراء، وموازين، لا مجال لذكرها الآن في هذه الالتفاتة العابرة...!

على أنهما يشتركان معا في الإفادة والشهرة وينفرد كل منهما بمميزات خاصة...

هذه أيها القارئ الكريم، نقط من مقدمة تمهيدية كتبت لدراسة مستفيضة عن تراث «الأمثال المغربية» التي هي جانب من جوانب الحضارة المغربية...! وقد كانت وما تزال تسجل التجربة الصادقة... بأساليب شتى تهزّ المشاعر... وتحرك السواكن...!!

فاس ـ عبد القادر زمامة

من نشاط

وَزَارَةُ الأَوْقَافِ وَالشُّؤُونِ الإِسْلَامِيَّةِ

نشاط السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري خلال الزيارة التي قام بها لإقليم الرشيدية

تميزت زيارة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري لإقليم الرشيدية خلال يومي الخميس والجمعة 4 و5 جمادى الأولى 1411 هـ موافق 22 و23 نونبر 1990 م، بعدد من الأنشطة الهامة. حيث قام سيادته صباح يوم الخميس بتدشين مقر المجلس العلمي الإقليمي بالرشيدية.

وقد حضر إلى جانب السيد الوزير أثناء حفل التدشين السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم الرشيدية، والأستاذ أحمد أفزاز، الكاتب العام للوزارة، والسيد رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمدينة الرشيدية، وعدد من السادة رؤساء المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة، ورجال السلطة المحلية بالإقليم وعدد من السادة الوعاظ والمرشدين والمدعوين.

وبهذه المناسبة، ألقى السيد الوزير في جموع الحاضرين، كلمة عبّر فيها عن سروره وسعادته بزيارة هذا الإقليم. المعروف بماضيه في العلم، والوطنية، والإخلاص لله وللدين، وللوطن، وللملك.

ثم تحدث سيادته عن الجانب المعماري والفني لمقر المجلس العلمي الإقليمي الجديد، الذي يكتسي طابع الأناقة والإبداع، والذي يعتبر ثمرة للعناية الملكية السامية، والعطف الخاص الذي يوليه صاحب الجلالة للمجالس العلمية، ودليلا على الرعاية الفائقة للعلم والعلماء في مختلف أقاليم المملكة.

وبعد ذلك، قام السيد الوزير رفقة السيد عامل صاحب الجلالة على الإقليم بجولة تفقدية للمرافق التابعة للمجلس، والمشتملة على بهو للاستقبال، ومكتب للسيد رئيس المجلس، وخزانة، وقاعة للاجتماعات إضافة إلى 8 مكاتب ومرافق أخرى...

وقد بلغت تكاليف إنجاز هذه المعلمة العلمية ما قيمته 1.673.265,00 درهم، كما قاما بزيارة لورش المركب السكني والتجاري الذي تتولى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بناءه بهذا الإقليم، حيث



السيد الوزير أثناء إلقائه لكلمته بمناسبة تدشين المجلس



جمع في السادة العلماء يتتبعون كلمة السيد الوزير



السيد الوزير والسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم الرشيدية وبعض مساعديهما وعدد من السادة رؤساء المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة وعدد من المدعوين من علماء وأساتذة ومثقفين يتابعون أطوار المحاضرة

اطلعا على سير الأعمال الجارية به، والمراحل التي أنجزت في هذا المشروع.

والذي يشتمل في مجموعه على طابق سفلي يتكون من 55 متجراً وسكنى للحارس. و3 طوابق سكنية :

الأول : يحتوي على 15 شقة.

الثاني : يحتوي على 9 شقق.

الثالث : يحتوي على 3 شقق.

أما التكلفة الاجمالية التي تطلبها إنجاز هذا المشروع فهي : 8.478.517,80.

وفي الساعة الرابعة من مساء اليوم نفسه، تتبع السيد الوزير، والسيد عامل الإقليم، والكاتب العام للوزارة، وعدد من السادة رؤساء المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة، وجمهور من المدعوين من علماء وأساتذة ووعاظ ومرشدين ومثقفين المحاضرة التي ألقاها فضيلة الأستاذ مولاي هاشم العلوي أستاذ التاريخ بكلية الآداب بفاس حول موضوع :

«تافيلالت، مركز حضاري وثقافي».

كما تميز أيضا نشاط السيد الوزير بإقليم الرشيدية، بزيارة لمدينة الريصاني، وذلك يوم الجمعة 5 جمادى الأولى 1411 هـ موافق 23 نونبر

1990 م، حيث أدى بها صحبة السيد عامل الإقليم والسيد الكاتب العام للوزارة، وعدد من السادة رؤساء المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة، وجمهور من المومنين **صلاة الجمعة بمسجد ضريح مولاي علي الشريف، وقبلها استمع الجميع إلى الدرس الديني القيم الذي ألقاه فضيلة العلامة الأستاذ عبد السلام جبران المسفيوي رئيس المجلس العلمي الإقليمي بمدينة مراكش.**

وبعد أداء صلاة الجمعة، أقيم حفل ديني بالضريح، تليت خلاله آيات بينات من الذكر الحكيم، وقرأت أمداح نبوية.

واختُتِمَ الحفل بالدعاء لمولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، ولنجليه الجليلين صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير المحبوب سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وباقي أفراد أسرته العلوية الشريفة.

وبعد الحفل الديني، تمت زيارة للمدرسة القرآنية العتيقة المجاورة لضريح مولاي علي الشريف بمدينة الريصاني.



السيد الوزير والسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم الرشيدية يترأسان الحفل الديني بضريح مولاي علي الشريف بالريصاني عقب صلاة الجمعة بحضور جمع من المؤمنين



أثناء الحفل الديني بالضريح

كما تمت زيارة لبعض المآثر التاريخية للدولة العلوية الشريفة بالرشيدية ومن أبرزها «قصر أولاد عبد الحليم» و«قصر الفيضة».

وبهذه الزيارة اختتم السيد الوزير نشاطه بهذا الإقليم.

تدشين مسجد الحي الجامعي "مولاي إسماعيل" بالرباط
الذي قامت ببنائه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

تمكينا للشباب المومن من تأدية شعائره الدينية، وسيرا على النهج القويم المتجلي في بناء عدد من المساجد ببعض الأحياء الجامعية بالمملكة، قام السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، والسيد وزير التربية الوطنية الدكتور الطيب الشكيلي، بتدشين مسجد الحي الجامعي مولاي إسماعيل بالرباط الذي قامت ببنائه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وذلك عشية يوم الإثنين 22 جمادى I 1411 هـ موافق 10 دجنبر 1990.

ويشتمل المسجد على جناحين إثنين الأول خاص بالرجال، والثاني خاص بالنساء اضافة إلى عدد من المرافق التابعة له، وتتكون من موضعين للوضوء، أحدهما للرجال والآخر للنساء، ومقصورة، وصومعة يبلغ ارتفاعها 24 مترا، وكذا أربعة متاجر تابعة للمسجد.

وقد بلغت تكلفة بناء هذا المسجد ما قدره : 1.614.592,00 درهم.

وقد حضر مناسبة التدشين السيد الكاتب العام للوزارة الأستاذ أحمد أفزاز، والسيد والي صاحب الجلالة على ولاية الرباط سلا الأستاذ عمر بنشمسي، وعدد من المسؤولين بكل من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزارة التربية الوطنية وولاية الرباط ـ سلا.

وبهذه المناسبة، أدى الجميع صلاة العصر بالمسجد المذكور، تبركا وتيمنا بهذا الإنجاز الإسلامي الهام.



مسجد الحي الجامعي مولاي إسماعيل بالرباط



في انتظار أداء صلاة العصر

ورفعت في الختام، أكف الضراعة والابتهال إلى الله العلي القدير، أن يحفظ مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، وأن يبقيه ملاذا لشعبه الوفي، وذخرا للإسلام والمسلمين، وأن يقر عينه بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرته العلوية الشريفة.

وضع الحجر الأساسي لبناء مقر المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين بمدينة الرباط

اهتماما من أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بشؤون المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة، وإيمانا منه - حفظه الله - بضرورة توفير مجالات عملها لتؤدي رسالتها على الوجه الأكمل والمطلوب نحو المواطنين في شؤون دينهم ودنياهم.

أشرف السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري عشية يوم الإثنين 22 جمادى I 1411 هـ موافق 10 دجنبر 1990 م وبمعيته السيد وزير التربية الوطنية الدكتور الطيب الشكيلي، والسيد والي صاحب الجلالة على ولاية الرباط وسلا الأستاذ عمر بنشمسي، وفضيلة العلامة الشيخ محمد المكي الناصري، رئيس المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين، وعدد من المسؤولين بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وولاية الرباط وسلا، وبعض السادة العلماء أعضاء المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين على وضع الحجر الأساسي لبناء مقر المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين بمدينة الرباط بجانب مقر نظارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بباب شالة (المدينة العتيقة).

ويشتمل هذا المشروع :

أولا : على طابق تحت الأرض تبلغ مساحته 400 م^2، وهو مخصص لإنجاز موقف للسيارات وسكنى للحارس ومخزن.

ثانيا : طابق أرضي تبلغ مساحته 1 500 م^2 وهو مخصص لبناء بهو وقاعة للاجتماعات، وخزانة ومسجد، وقاعة للانتظار، ومخدع الهاتف.

ثالثا : طابق أول وتبلغ مساحته 700 م^2 وهو مخصص لبناء مكتب للسيد رئيس المجلس، وقاعة الاجتماعات، وكتابة المجلس، وقاعة للانتظار، إضافة إلى 10 مكاتب ومكتب للراقنات.

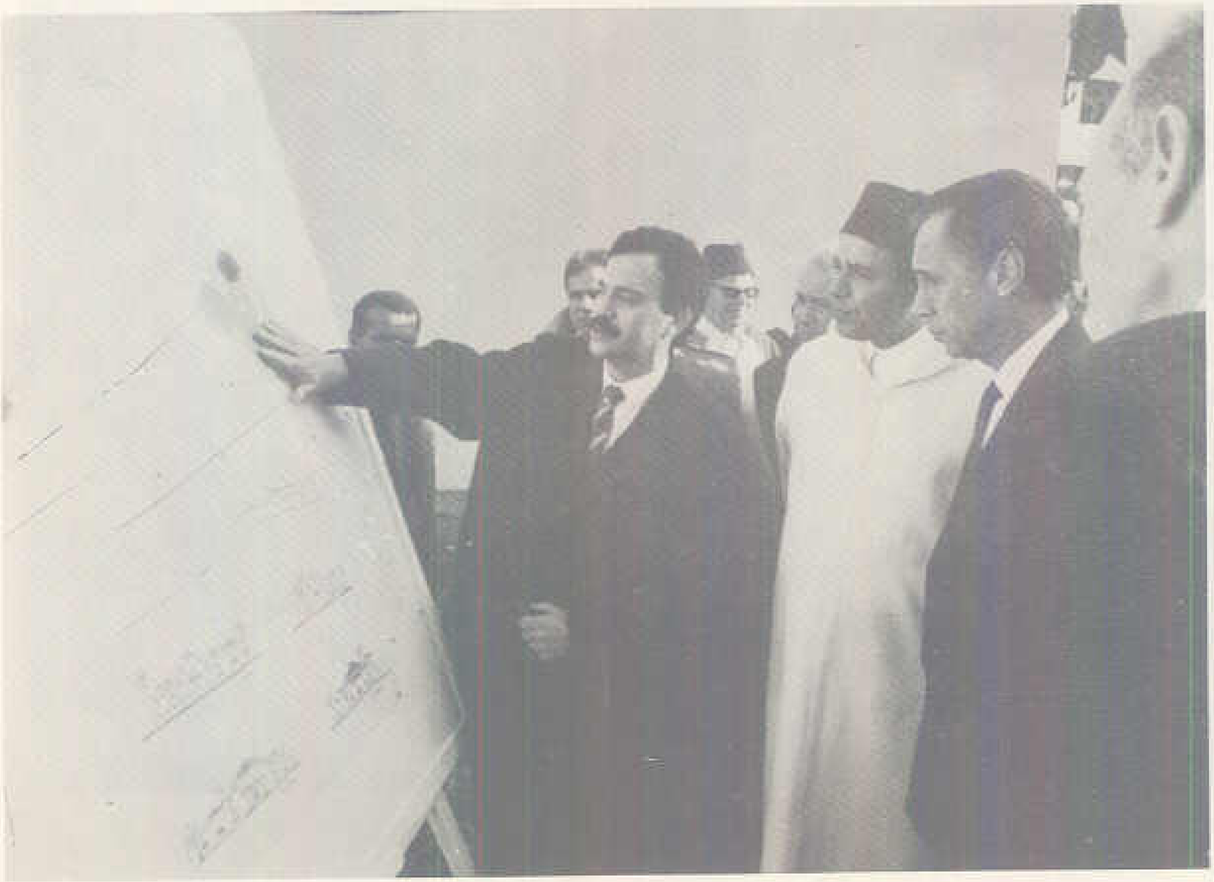
وبذلك تبلغ المساحة العامة التي سيبنى عليها مقر المجلس 2.600 م^2 من المساحة الإجمالية والتي تبلغ 3000 م^2.

أما التكاليف التي يستلزمها بناء هذا المقر فتقدر بـ : 10.000.000,00 درهم.

ويأتي هذا الإنجاز بمثابة معلمة علمية تضاف إلى عدد من مقرات المجالس العلمية الإقليمية الأخرى التي تم بناؤها ببعض مدن المملكة.



السيد الوزير يضع الحجر الأساسي لمقر المجلس العلمي الإقليمي
للعدوتين بمدينة الرباط



السيدان الوزيران، والسيد والي صاحب الجلالة على ولاية الرباط ـ سلا
يستمعون إلى مختلف الشروح والبيانات المتعلقة بالتصميم المنجز
لمقر المجلس العلمي الإقليمي للعدوتين بمدينة الرباط

الاجتماع العام السنوي

للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بالسادة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة

انعقد يومي الثلاثاء والأربعاء 8 و9 جمادى الثانية عام 1411 هـ الموافق 25 و26 دجنبر 1990 م بمقر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الاجتماع العام السنوي للسادة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة، تحت رئاسة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، وبحضور السيد الكاتب العام، والسيد المفتش العام، والسيد مدير الديوان، وأعضاء الديوان، والسيدين مديري الأوقاف والشؤون الإسلامية، والسادة رؤساء الأقسام والمصالح والسادة المفتشين بالوزارة.

وقد تميز هذا الاجتماع بالكلمة التي ألقاها السيد الوزير في جلسته الافتتاحية، أعطى خلالها نظرة شاملة وعامة عن نشاط الوزارة، سواء في ميدان الأوقاف أو الشؤون الإسلامية. واستهلها بالتذكير بالالتفاتة المولوية الكريمة، والمتمثلة في الزيادة في أجور القيمين الدينيين بنسبة 100 ٪، والتي أمر بها أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، مما جعل عددا من القيمين الدينيين يحصلون الآن على مكافآت مناسبة ومهمة والحمد لله قل نظيرها في بعض الدول الإسلامية.

□ □ □

ففي مجال الأوقاف، أوضح سيادته بأنه في إطار التوجه إلى تنمية الأوقاف وازدهارها وفق مخطط مسار التنمية (88 ـ 92)، عملت الوزارة في سنته الرابعة (91) على رصد اعتمادات مالية هامة شملت بناء وإصلاح المؤسسات الدينية والممتلكات ذات العائد، والمؤسسات الإدارية، والتجزئات، مبرزا بهذا الخصوص أن مشاريع الوزارة في هذا الميدان تشمل مختلف مناطق المملكة، مبينا ما يطبعها من توجهات تتمثل في :

أ ـ المحافظة على جهوية الاستثمار الحبسي، وعلى التوازن بين المدن والقرى، وكذا المشاريع الكبرى والصغرى.

ب ـ غراسة الأراضي الحبسية وتطوير فلاحتها، وتزويدها بالتجهيزات، والسهر على استثمارها.

ج - معالجة موضوع الأملاك الحبسية التي كانت تسهر على تسييرها في السابق بعض الجهات بإحداث نظارات بعين المكان لترعى شؤونها عن كثب بما فيها المؤسسات الدينية.

ومما أكده السيد الوزير، أن حظ الأوقاف في إسهاماتها الاجتماعية وفي المصلحة العامة بارز مهم، وغير محجوب، ولا يمكن نكرانه، وأن على السادة النظار أن يبرزوا هذا الدور المشرف الذي تقوم به الأوقاف من أجل استثمار أموالها، لما فيه خدمة الصالح العام، وأن يظلوا جنودا وحراسا لهذه الممتلكات التي ليس لأحد الحق في تفويتها، ذلك أن الظهير الشريف يحميها بهذا الخصوص، وأن الاعتداء على الملك الحبسي بالتفويت هو اعتداء على حرمة الظهير الشريف.

وفي إطار المحافظة على الأملاك الحبسية وحسن استثمارها، عبر سيادته بأن دور الوزارة الاجتماعي يظل هو استخلاص الواجب اللائق لإنفاقه على الوجوه الأخرى، مضيفا بأن نجاح الناظر ممثل الأوقاف والساهر على حمايتها يقاس بمدى التوازن المالي الذي حققه وبمدى الوفر المتبقي، وكيفية استثماره على الوجه الأحسن.

وبخصوص ما يزخر به التراث الحبسي من نفائس تاريخية هامة : كخزانات المخطوطات والكتب، وما يوجد داخل المساجد والزوايا من منابر وساعات وثريات تاريخية نفيسة، قال سيادته : بأن الوزارة تفكر بحول الله في إحداث متحف بمدينة فاس لجمع وعرض هذه النفائس.

□□□

وفي مجال الشؤون الإسلامية، أبرز السيد الوزير النشاط الهام الذي قامت به الوزارة والمتمثل في :

- تكثيف الجهود في تنشيط الحركة الفكرية الإسلامية على الصعيد الوطني.

- تنظيم دروس دينية من طرف النظارات والمجالس العلمية الإقليمية بالمملكة.

- الإعداد الجيد للدروس الحسنية ومناقشاتها، والسهر على إخراجها على أشرطة الڤيديو، وكذا ترجمتها لأهم اللغات الحية.

- تنظيم الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية بأمر من صاحب الجلالة نصره الله بولاية الدار البيضاء في أواخر شهر غشت 1990 م، ولمدة أسبوع، والتي اعتبرت بحق منبرا إسلاميا متسعا، استقطبت كثيرا من الجمعيات والجماعات الإسلامية، ورجال الدعوة في العالم الإسلامي، وعددا من أقطاب الفكر المستشرقين المنصفين.

وعن جانب التوعية الدينية على الصعيد الوطني، حث سيادته السادة النظار على القيام بمسؤولياتهم في هذا الصدد وذلك :

1 - بضرورة عقد اجتماعات مع السادة الوعاظ والمرشدين في الوقت المناسب لتكون خطبهم

ودروسهم مرتكزة في الأساس على الجانب الخلقي والسلوك الحسن، الذي ينبغي أن يتصف به المواطن المغربي، والحاج المغربي على وجه الخصوص أثناء مقامه بالديار المقدسة.

2 ـ بالعناية الفائقة بالمدارس العتيقة طلبة وأطرا، وبجامع القرويين وبالكراسي العلمية، وذلك بمراقبتها، والسهر عليها، ودعمها، وبعزم الوزارة على توسيع دائرتها.

3 ـ بالعناية بالمساجد والحفاظ على نظافتها، والحرص على اتباع تقاليدنا المغربية في الأذان، ونهج الطريقة الجماعية في قراءة القرآن الكريم، سيرا على نهج السلف الصالح لما في هذا من امتياز يمتاز به هذا البلد الأمين، والاقتصار في رواية حديث الإنصات يوم الجمعة على نص الحديث دون زيارة أو إطناب.

4 ـ بتشجيع الطاقات المجودة للقرآن الكريم، خصوصا التجويد المغربي.

□□□

وعلى مستوى نشاط الوزارة بالخارج، أشار سيادته إلى أن هذه الوزارة ما فتئت تكثف جهودها للاهتمام خصوصا بجاليتنا بالخارج، ويتجلى ذلك في :

ـ البعثات العلمية التي توفدها الوزارة إلى الخارج في أكثر المناسبات الدينية.

ـ التوجه لـ : 20 عالما قارّاً إلى الدول الأُروبية بأمر من صاحب الجلالة نصره الله، ليعملوا هناك بصفة مستمرة، ويكونوا دوما رهن إشارة مواطنينا في المهجر.

ـ دور البعثة العلمية التي توفدها الوزارة إلى الديار المقدسة لتوعية حجاجنا هناك وإرشادهم في أمور حجهم.

ـ الاهتمام بتوجيه بعض الكتب والمجلات التي تصدرها الوزارة إلى جاليتنا بالخارج. للاستفادة منها في المجال الديني.

واختتم السيد الوزير كلمته بالدعاء بالنصر والتمكين لمولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه، وأن يقر سبحانه عين جلالته بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد، وبصاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد، وباقي أفراد الأُسرة الملكية الشريفة.

كما شكر سيادته السادة النظار على المجهودات التي يبذلونها على مستوى عملهم، معربا لهم عن ارتياحه للنتائج التي تم تحقيقها. وحاثا لهم على مواصلة جهودهم وأعمالهم في المستوى المطلوب، حتى يكونوا عند حق ظن سيدنا المنصور بالله أدام الله عزه وعلاه.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تواصل رسالتها في مجال

إحياءِ التراث الإسلامي وطَبْعِه والتعريفِ به

في إطار العناية المولوية التي يوليها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده للحركة العلمية والفكرية، واهتماما من جلالته - رعاه الله - بالتراث الإسلامي بصفة عامّة، والمغربي بصفة خاصة، الذي تزخر به الخزانة المغربية، كرصيد ثقافي وحضاري، يتجلى في العديد من الكتب الفقهية، والمخطوطات الإسلامية، والوثائق التاريخية، والرسائل الجامعية، والتي يجب الحفاظ عليها، والتعريف بها بشتى الوسائل، لتكون في متناول الدارسين والباحثين والمثقفين على مختلف مستوياتهم العلمية.

وتنفيذاً لتوجيهات جلالته - حفظه الله - في طبع هذه الكتب والمخطوطات والوثائق وإصدارها، تواصل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية رسالتها في مجال إحياء التراث الإسلامي، وطبعه، والتعريف به، إما عن طريق مكتبة الأوقاف التابعة لها، أو عن طريق إقامة معارض في مختلف مدن وأقاليم المملكة في مختلف المناسبات الدينية والوطنية، والعديد من التظاهرات الثقافية.

وهكذا فقد نظمت الوزارة مؤخرا معرضا للمطبوعات في مدينة طنجة خلال الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر 1990 م، تميز بعرض الحصيلة الكبيرة التي طبعتها من أمهات الكتب والمخطوطات الإسلامية والرسائل الجامعية، وفي طليعتها المصحف الحسني، والمصحف الحسني المرتل، ومطبوعات الدروس الحسنية، ومن ضمنها الدروس الحسنية لعام 1409 هـ والتي سجلت - ولأول مرة - على «أشرطة فيديو»، إضافة إلى العديد من المؤلفات في المجال الإسلامي للتعريف بها من جهة، وجعلها في متناول الراغبين في اقتنائها من جهة أخرى.

وحتى تكون للقارئ الكريم صورة عن هذه الحصيلة، ارتأت مجلة دعوة الحق - إسهاما منها في التعريف بهذه المصاحف والمطبوعات والكتب والمخطوطات والرسائل - أن تضع بين يديه قائمة كاملة بها، والتي يمكن الاطلاع عليها في الصفحات الموالية من هذا العدد.

اللائحة الكاملة
للكتب والمطبوعات التي أصدرتها الوزارة

قائمة

بمطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ر.ت	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	المصحف الحسني	إعداد: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
1	- الحجم الكبير المذهب	
2	- الحجم الكبير الأبيض	
3	- الحجم المتوسط	
4	- الحجم الصغير	
5	المصحف الحسني المرتل	
	الدروس الحسنية	إعداد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
	دروس سنوات: 1387، و1388 و1394 و1395 و1403 و1404 و1405 هـ	
	دروس سنوات: 1406 و1407 و1408 هـ	
16	دروس سنة 1409	
17	دروس سنة 1409 على أشرطة فيديو	
18	مناقشات الدروس الحسنية لسنة 1409 هـ	
	التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد	الإمام الحافظ أبو عمر ابن عبد البر
19	الجزء الأول	" "
20	الجزء الثاني	" "
21	الجزء الثالث	" "
22	الجزء الرابع	" "
23	الجزء الخامس	" "
24	الجزء السادس	" "
25	الجزء السابع	" "
26	الجزء الثامن	" "
27	الجزء التاسع	" "
28	الجزء العاشر	" "

رت	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد	الامام الحافظ أبو عمر ابن عبد البر
29	الجزء الحادي عشر	» »
30	الجزء الثاني عشر	» »
31	الجزء الثالث عشر	» »
32	الجزء الرابع عشر	» »
33	الجزء الخامس عشر	» »
34	الجزء السادس عشر	» »
35	الجزء السابع عشر	» »
36	الجزء الثامن عشر	» »
37	الجزء التاسع عشر	» »
38	الجزء العشرون	» »
39	الجزء الحادي والعشرون	» »
40	الجزء الثاني والعشرون	» »
	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي
41	الجزء الأول	» »
42	الجزء الثاني	» »
43	الجزء الثالث	» »
44	الجزء الرابع	» »
45	الجزء الخامس	» »
46	الجزء السادس	» »
47	الجزء السابع	» »
48	الجزء الثامن	» »
49	الجزء التاسع	» »
50	الجزء العاشر	» »
51	الجزء الحادي عشر	» »
52	الجزء الثاني عشر	» »
53	الجزء الثالث عشر	» »
54	الجزء الرابع عشر	» »
55	الجزء الخامس عشر	» »

ر.ت	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك	القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي
56	الجزء الأول	« «
57	الجزء الثاني	« «
58	الجزء الثالث	« «
59	الجزء الرابع	« «
60	الجزء الخامس	« «
61	الجزء السادس	« «
62	الجزء السابع	« «
63	الجزء الثامن والأخير	« «
	المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيا والأندلس والمغرب	أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي
64	الجزء الأول	« «
65	الجزء الثاني	« «
66	الجزء الثالث	« «
67	الجزء الرابع	« «
68	الجزء الخامس	« «
69	الجزء السادس	« «
70	الجزء السابع	« «
71	الجزء الثامن	« «
72	الجزء التاسع	« «
73	الجزء العاشر	« «
74	الجزء الحادي عشر	« «
75	الجزء الثاني عشر	« «
76	الجزء الثالث عشر والأخير	« «

ر.ت	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	ندوة الإمام مالك	وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
77	الجزء الأول	” ”
78	الجزء الثاني	” ”
79	الجزء الثالث والأخير	” ”
	دورة القاضي عياض	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
80	الجزء الأول	” ”
81	الجزء الثاني	” ”
82	الجزء الثالث والأخير	” ”
	أزهار الرياض في أخبار عياض	شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني
83	الجزء الأول	” ”
84	الجزء الثاني	” ”
85	الجزء الثالث	” ”
86	الجزء الرابع	” ”
87	الجزء الخامس والأخير	” ”
	الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية	عبد العزيز بن عبد الله
88	الجزء الأول	” ”
89	الجزء الثاني	” ”
90	الجزء الثالث	” ”
91	الجزء الرابع	” ”

ت	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
	المعلمتان	
92	معلمة الصحراء (م 1)	عبد العزيز بن عبد الله
93	معلمة المدن (م 2)	" "
	نشر البنود على مراقي السعود	سيدي عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي
94	الجزء الأول	" "
95	الجزء الثاني والأخير	" "
	تاج المفرق في تحلية علماء المشرق	خالد بن عيسى البلوي
96	الجزء الأول	" "
97	الجزء الثاني والأخير	" "
	مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي	عبد الهادي أحمد الحسيسن
98	الجزء الأول	" "
99	الجزء الثاني والأخير	" "
	تاريخ الطب العربي (بالفرنسية)	لوسيان لوكليرك
100	الجزء الأول	" "
101	الجزء الثاني والأخير	" "

	عنوان الكتاب	إسم المؤلف
	إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس	ابن الطيب الشركي
102	الجزء الأول	"
103	الجزء الثاني	"
104	الجزء الثالث	"
	مشارق الأنوار على صحاح الآثار	القاضي عياض
105	الجزء الأول	"
106	الجزء الثاني	"
	كتاب النوازل	للعلمي
107	الجزء الأول	"
108	الجزء الثاني	"
109	الجزء الثالث والأخير	"
	دليل الرفاق على شمس الاتفاق	الشيخ ماء العينين بن مامين
110	الجزء الأول	" "
111	الجزء الثاني	" "
	كتب مختلفة :	
112	الأخلاق في القرآن (بالفرنسية)	د. محمد عبد الله دراز
113	العرف والعمل في المذهب المالكي	الدكتور عمر الجيدي
114	تحت ظلال القرآن والسنة	عبد الحي العمراني
115	هذا القرآن	" "
116	الإسلام دين ودولة ونظام	" "
117	تفسير سورة النور	الدكتور عبد الهادي التازي
118	في موكب السيرة النبوية	الدكتور محمد المختار ولد اباه الشنقيطي

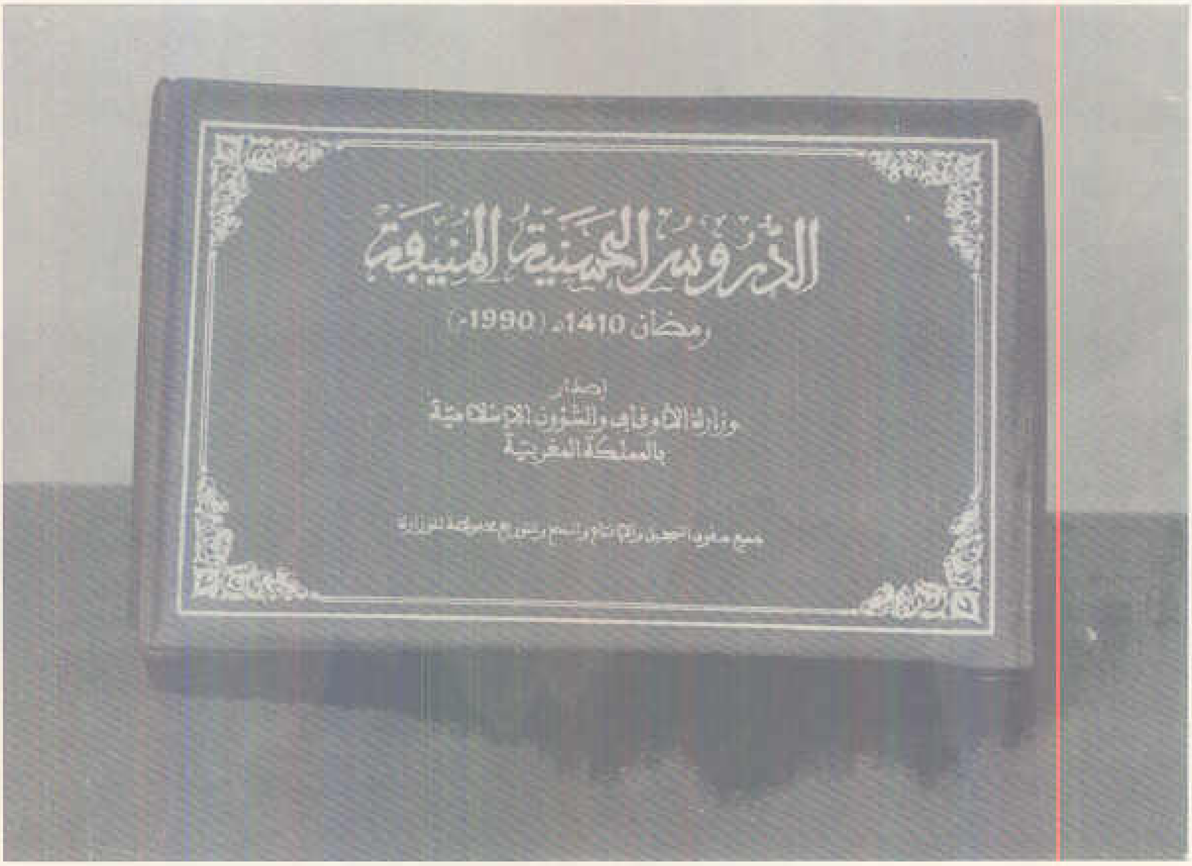
	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
119	إيضاح المسالك	أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي
120	أبو علي القالي	عبد العلي الود غيري
121	التعريف في اختلاف الرواة عن نافع	أبو عثمان الداني
122	الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها.	عبد القادر العافية
123	أوصاف الناس في التواريخ والصلات	لسان الدين ابن الخطيب
124	معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار	″ ″ ″
125	بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد	القاضي عياض
126	الصوارم والأسنة في الذب عن السنة	محمد بن ابي مدين الشنقيطي
127	التعريف بالقاضي عياض	لولده ابن عبد الله محمد
128	منوعات ابن الخطيب	الحسن السائح
129	المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب	السيوطي
130	كتاب الاربعين الطبية	تحقيق: عبد الله كنون
131	كتاب الاربعين حديثا في اصطناع المعروف	جمع: زكي الدين المنذري
132	كتاب ابن عاشر	ابن عاشر
133	متن الرسالة	ابن أبي زيد القيرواني
134	الإعلام بحدود قواعد الإسلام	القاضي عياض
135	الإعلام بحدود قواعد الإسلام (بالفرنسية)	″ ″
136	دروس من الهجرة	أحمد عبد الرحيم عبد البر
137	دروس من الهجرة (بالفرنسية)	″ ″ ″
138	أركان الاسلام	
139	أركان الاسلام (مترجم إلى الفرنسية)	
140	أضواء على الاسلام (بالفرنسية)	عبد العزيز بنعبد الله
141	حديث القرون الهجرية	بنعياد
142	دليل الحاج المغربي	
143	دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت	

	عنوان الكتاب	اسم المؤلف
144	كتاب "ديوان دعوة الحق" (ج 1 و2)	وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
145	علم المواقيت، أصوله ومناهجه	تحقيق: محمد العربي الخطابي
146	ندوة البيعة والخلافة في الإسلام	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
147	عمر بن الخطاب الخليفة المجتهد	د. عبد الحي العمراني
148	الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لابن عربي (في جزئين).	دراسة وتحقيق: د. عبد الكبير العلوي المدغري
149	أقرب المسالك إلى موطأ الامام مالك	ذ. التهامي كنون
150	الفقيه أبو علي اليوسي	د. عبد الكبير العلوي المدغري
151	تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة للفقيه محمد الخطاب	دراسة وتحقيق: ذ. أحمد سحنون
152	الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة للفقيه الرجراجي الشوشاوي	دراسة وتحقيق: ذ. ادريس عزوزي
153	إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب للشيخ علي بن غازي	دراسة وتحقيق: ذ. عبدالله التمسماني
154	فقه ابن عمر في المعاملات	تحقيق: ذ محمد سلامة
155	أبو الفتح اليعمري. حياته، آثاره تحقيق أجوبته (في جزئين)	دراسة وتحقيق: محمد الراوندي
156	الإحسان الالزامي في الاسلام	ذ. محمد نجيب التجكاني
157	البرهان في ترتيب سور القرآن للفقيه ابن الزبير الغرناطي	دراسة وتحقيق: د. محمد الشعباني
158	شرح فصول الاحكام. للفقيه أبي الوليد الباجي.	دراسة وتحقيق: ذ. البتول بن علي
159	الحافظ بن عبد البر حياته - آثاره	ذ. محمد بن يعيش
160	كتاب الحلال والحرام في الإسلام لابي الفضل راشد بن راشد الوليدي	دراسة وتحقيق: ذ. عبد الرحمن العمراني

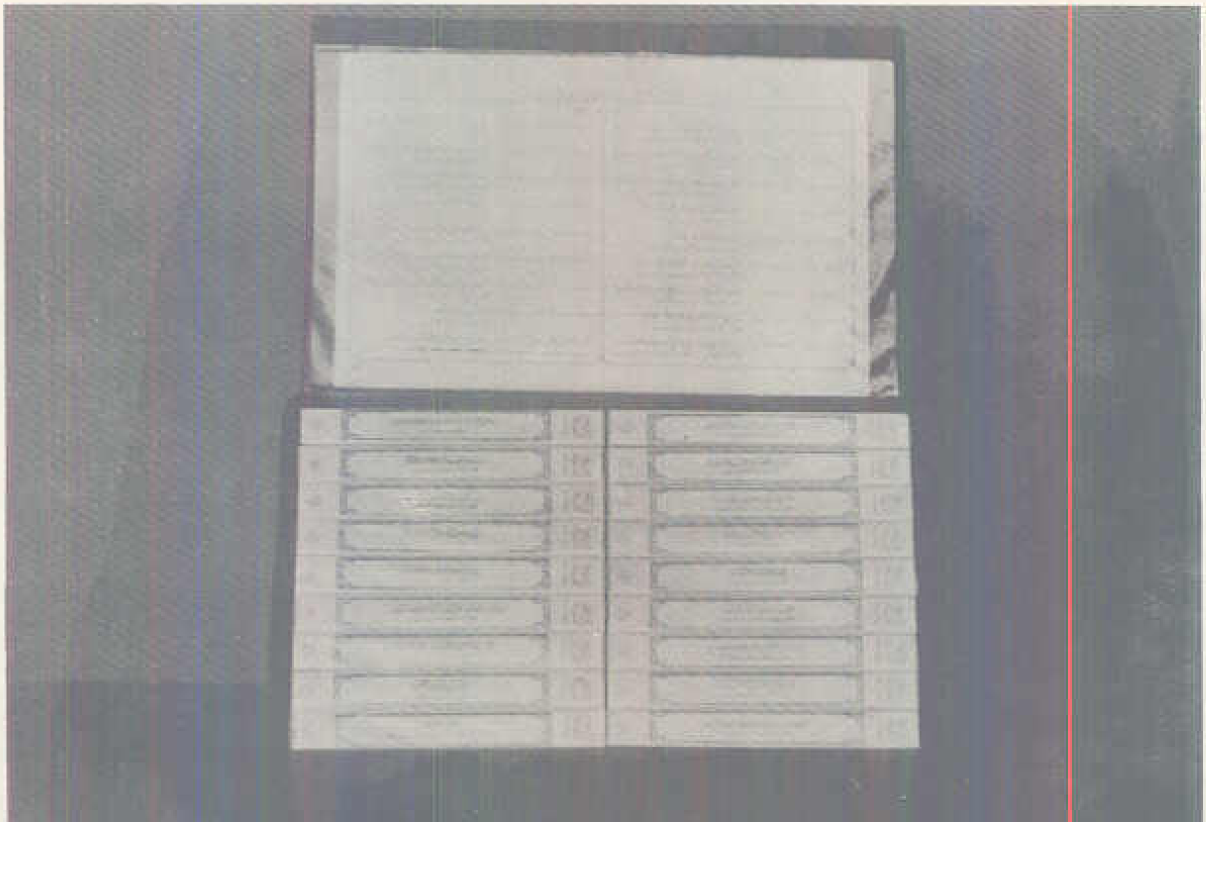
الجديد من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

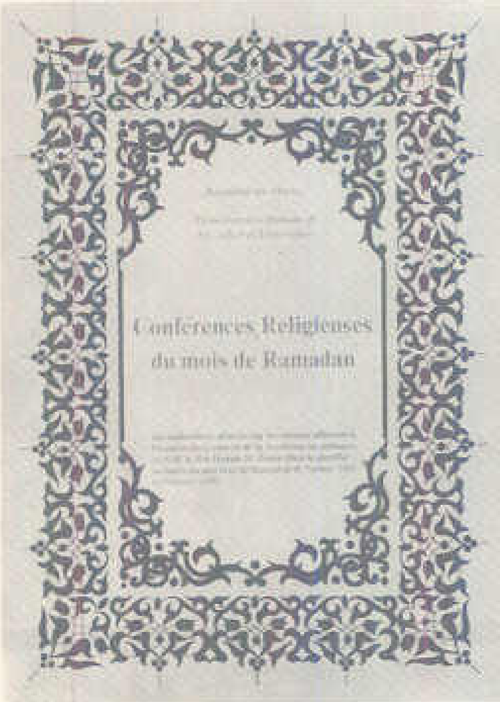
التي صدرت في شهر رمضان لعام 1411هـ

1. الدروس الحسنية لعام 1410هـ مسجلة على أشرطة الفيديو.
2. الدروس الحسنية لعام 1410هـ باللغة العربية، وترجمتها إلى اللغات: الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.
3. مناقشات الدروس الحسنية لعام 1410هـ باللغة العربية.
4. كتاب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (الجزءان الخامس عشر والسادس عشر - الأخير).
5. كتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" (الجزءان الثالث والعشرون والرابع والعشرون - الأخير).
6. كتاب "التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح"، تأليف الحافظ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي (أطروحة من دار الحديث الحسنية)
7. كتاب "الإسلام وانتزاع الملك للمصلحة العامة" للأستاذ محمد الحاج الناصر
8. كتاب "الفوائد الجامعة في عدة مسائل نافعة" للمرحوم الفقيه عبد السلام اسميج.



مجموعة الدروس الحسنية المسجلة على أشرطة فيديو، التي ألقيت
بحضرة مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله
برحاب القصر الملكي العامر بالرباط خلال شهر رمضان 1411هـ - 1991م

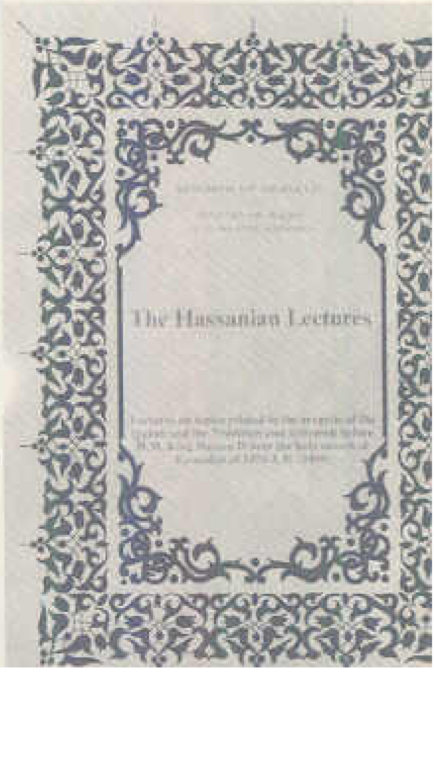












الدروس الحسنية لعام 1410 هـ باللغة العربية، وترجمتها إلى اللغات؛ الفرنسية والانجليزية والاسبانية مع مناقشاتها باللغة العربية

مطبوعات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دعوة

إلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين كتاب المجلة

استمرارا للدور الطلائعي الذي ظلت تضطلع به مجلة دعوة الحق في مجال رسالتها الإسلامية الخالدة،ووعيا بالمكانة المرموقة التي لها في الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية داخل المغرب وخارجه، واعتبارا بأن المادة الخام والرصيد الهام لكل مجلة ثقافية هو ما يزودها به كتابها وقراؤها الكرام على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم في العلوم والثقافة الإسلامية، والآداب والمعارف الإنسانية والحضارية.

يسعد هذه المجلة أن تدعو قراءها الفضلاء أساتذة وباحثين وعلماء وأدباء، وأن تهيب بهم وتستنهض هممهم وتستحث أقلامهم للمشاركة المتواصلة، بكتاباتهم القيمة، والإسهام المتنوع والمبدع في المسيرة التي تنهض بها أمتنا الإسلامية، حتى تظل هذه المجلة الرائدة في المستوى العلمي والثقافي الرفيع الذي رسمه لها مؤسسها الأول باعث النهضة الإسلامية والفكرية جلالة المغفور له محمد الخامس ويريده لها خلفه البارّ، ووارث سّره الملهم أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وينشده القراء الدارسون، والباحثون المتخصصون الذين يجدون فيها ضالتهم المنشودة وبغيتهم المطلوبة من تنوع مباحث المعرفة الإسلامية،والآداب والعلوم الإنسانية.

وفق الله الجميع لخدمة العلم والدين، والوطن والمسلمين.

دعوة الحق

فهرس العدد

○ **افتتاحية العدد**

○ **أبحاث ومقالات**

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة
و
التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

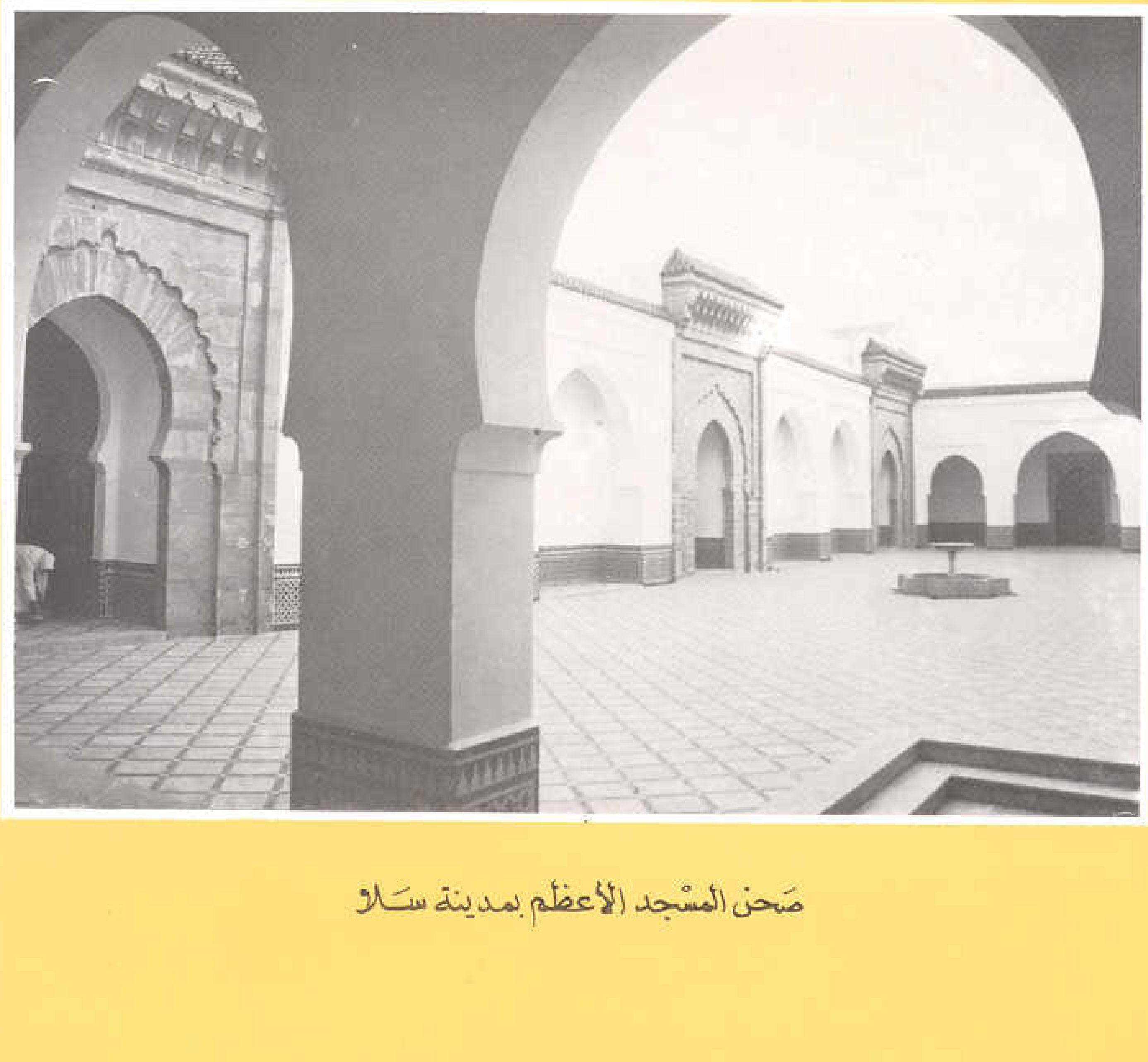
❋

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



صحن المسجد الأعظم بمدينة سلا